محمد مسعود فشيكة

رمضان السويحلي

البطل الليبي الشهير بكفاحه للطليان

الناشر
الفرجاني
ص. ب ١٣٢
طرابلس - ليبيا

محمّد مسعود فشيكة

رمضان السُّويحلي

البطل الليبي الشهير بكفاحه للطليان

وفي الكتاب مجموعة من الصور التاريخية

الناشر
الفرجاني
ص . ب ١٣٢
طرابلس ـ ليبيا

الطبعة الأولى

١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب ونظرية التاريخ

١ ـ على الرغم من أن رمضان الشتيوي أو السويحلي ، يعتبر أشهر زعيم طرابلسي ، وأشجع مجاهد باسل ، في الحرب الايطالية الطرابلسية ، فإنه مع هذا الشأن العظيم ، لم يكن له من قبل تاريخ مستقـل به وحده ، يشرح معـــالم رجولته الفذة ، وكفاحه الأمثل للعدو الغاشم ، ويوضح أوصافه الكريمة ، في اخلاقه الفاضلة ، وإنسانيته العطوفة ، وحبه للعدل والانصاف ومظاهر حياته الشعبية .

لذلك دفعتني مناقبه الغراء ، ودوى صيته الحميد بكل جهة ، أن أضع له هذا الكتاب ، بما أمكنني التحصل عليه ، من تاريخه الوافي الصحيـح ، وهو سيذكر بالتفصيل سيرته العامة . منذ ولادته إلى آخر يوم في حياته ، ويتضمن عنه من الأسرار والأخبار ، والحوادث السياسية والحربية ، ـ ثم كذلك عن مغامرات والده الشتيوي وعن تراجم خلفاء رمضان من أسرته

الذين قاموا بعده باتمام رسالته الجهادية ـ ما لم يسبق له نشر في أي كتاب آخر .

٢ ـ ونأمل من الذين قد يستاءون ، من صراحة الكتاب في كثير من الأمور الواقعية ، أن يدركوا بثقافتهم الواعية ، أن الحادثة التاريخية ، إذا مر عليها نصف قرن أو أزيد ، وكانت مسجلة في الوثائق والمستندات الرسمية ، لمراجعة الكتاب والجمهور وشائعة على الألسنة بالتواتر ، ومنشورة في المطبوعات ، أصبحت الحادثة المستاء منها والحالة هذه ملكاً لتاريخ الأمة التي وقعت بأرضها ، وحقاً اطلاعياً لاجيالها الحاضرة والمستقبلة ، وليس للأفراد العاطفيين أو الجهويين ، المنتسبين لأحد فرعي الحادثة ، العذر إذا ما استفزهم الغضب لذكرها ، لأن تطاول عهدها الزمني ، وتسجيلاتها الذائعة الأخبار ، قد فوتت عليهم اي استياء أو احتجاج من التصريح بها .

٣ ـ وترجمة أي انسان عظيم ، إذا خلت جوانب حياته ، مهما كان فيها أو يلابسها من أعمال خيّرة أو سيئة ، وأيام بهيجة أو أليمة ، تغدو بهذا الغلو ، ترجمة بتراء ناقصة لا قيمة علمية ولا أدبية لها .

هذا . وصراحتنا في حقائق التاريخ لم نتخل عنها في الماضي ، حتى إبان الحكم السنوسي والنفوذ المنتصري ، إذ لم يجرؤ وقتئذ داخل ليبيا غيرنا ، بايضاح الخصام بين السنوسيين ورمضان السويحلي وأسبابه ، وذكر براءة رمضان من اغتياله أبا القاسم المنتصر ، كما هو موجود في كتابنا (تاريخ ليبيا العام الجزء الثاني صفحات ١١١ ـ ١١٢ ـ ١١٥) .

٤ ـ ومصادر هذا الكتاب مستقاة ، من المراجع العربية

والتركية[١] والإيطالية المترجمة ، والمتكلمة عن رمضان السويحلي ، وصلته بغيره قبل الغزو الإيطالي وما بعده ، ولكن أكثر معلوماته مأخوذة ، من روايات عن طائفة من زعماء المجاهدين ، الأمناء في أقوالهم ، النزهاء في أخبارهم ، ممن شاركوا رمضان حياته النضالية والسياسية ، كالمرحومين شقيقه أحمد بك السويحلي ، والتهامي بك قِلِيصَه ، صديق رمضان الحميم ومستشاره المخلص ، وذلك الأخذ عندما كنت طالباً بالقاهرة ، وكانا هما والمرحوم أحمد بك المريض زعيم ترهونة ، مهاجرين بالفَيُّوم حوالي سنة ١٩٢٦ م .

٥ — ثم استقيت بعد ذلك ههنا في طرابلس ، معلومات قيمة جداً وفريدة ، عن رمضان ووالده الشتيوي ، من ابن شقيق رمضان ، الحاج الشيباني أحمد السويحلي ، ومن الحاج الفيتوري السويحلي ، وهو ابن عم رمضان ، وكان متزوجاً بأخت رمضان ، ووالده هو الفارس الشهيد عمر شقلوف السويحلي ، وكلاهما (الشيباني والفيتوري) عاشا حياتهما في أسرة رمضان ، ويعيا عهده تماماً حضوراً وأخباراً ، وهاجرا مع أحمد بك السويحلي لمصر ، ثم بعد الحرب العالمية الثانية عادا معه للوطن ، وقد أقسما لي بمحض إرادتهما ، بأنهما لن يحدثاني عن رمضان ووالده الشتيوي ، بغير الحقائق التي يعلمانها عنهما ، وإني لمقدر شهامتهما على موقفهما معي ، بذكر الحق ولو على أنفسهما ، كما أشكر الحاج سالم بن المرحوم محمد بك الصغير المريض لما مدني به من الحقائق الصحيحة عن ترهونة .

---

(١) بهذه المناسبة يشكر المؤلف الزميلين الفاضلين الحاج محمد الأسطى ، والأخ عبد السلام أدهم ، المترجمين عن التركية ، في دار المحفوظات التاريخية والأثرية ، بقلعة مدينة طرابلس على ما عربا له من الوثائق والمستندات التركية الخاصة بموضوع هذا الكتاب ، وهما مؤرخان أيضاً .

٦ ــ ومن غير أولئك وهؤلاء ، ففي أثناء تجولي بانحاء ولاية طرابلس بصفتي سابقاً مفتشاً عاماً للمواد الاجتماعية بالمعارف ، فقد روى لي عن رمضان من عرفوه شخصياً ، أو من سمعوا عنه من أسلافهم ، الذين اجتمعوا به وحضروا أيامه ، وكان ظاهرهم النزاهة والصدق ، ومع ذلك فقد اهتممت كثيراً بموازنة صحة تلك الروايات من عدمها ، المأخوذة بالمشافهة أو بالسمع ، ولم أثبت منها في الكتاب سوى التي اطمأنيت إلى تمحيصها التاريخي ولم تسقط بالغربلة القوية .ومع هذا فكثيراً ما تجدني أعزو الرواية ، في ذيل الصفحات المتحدث بها ، للأشخاص الذين نقلتها عنهم بذكر اسمائهم وأوصافهم ، زيادة لتوثيق الرواية والنقل .

٦ ــ وتاريخ رمضان في الحقيقة ، انه من ناحية أخرى كما سيأتي بيانه يعتبر تاريخاً شاملاً للزعماء والابطال وأدوار الجهاد الباسل والتطورات السياسية ، في قطري طرابلس وفزان خلال الحِقبَة الأولى من الغزو الايطالي للبلاد ، ما بين سنتي ١٩١١ م و ١٩٢٣ م ، وهو المرآة الصافية اثناء ذلك لنضال هذا الشعب الأبي ، حفاظاً على تراث آبائه وأجداده ، ومرآة لما بذل في سبيل عزته وكرامته ، من التضحيات الجسام بالأنفس والأموال وحيداً وما قوله كذا ومعه الصبر .

المؤلف

رسم القطر الليبي
باقاليمه الثلاث

البحر الابيض المتوسط

اقليم طرابلس

اقليم برقة

اقليم فزان

منطقة الواحات

خليج سرت

الجبل الاخضر

بنغازى

غدامس

سبها

مرزوق

الكفرة

جغبوب

اوجلة

جالو

غات

هذه الخريطة يظهر فيها أهم المواقع والمدن في اقليم طرابلس وفزان التي سيرد ذكرها في الكتاب

الفصل الأول

لمحات هامة عن الشتيوي وسطوته

الاسرة السويحلية وعميدها :

وقبل أن ندخل في التحدث عن ترجمة رمضان ، ولكي نتصور فيما بعد حقيقة سجاياه المفطور عليها ، بحكم الوراثة عن أبويه وأسلافه ، فإنه لهذه الأسباب ، يحسن بنا أن نتكلم عن أصل أسرته ، والتعريف بشخصية عميدها الصلب العاتي ، الشتيوي بن أحمد بن مفتاح السويحلي ، وهو والد رمضان صاحب الترجمة .

فالأسرة السويحلية بمصراته ، تنتمي أصلا إلى قبيلة يدّر[1] الكورغلية ، وهذه اللفظة الأخيرة تدل في شمال ليبيا ، على فريق من سكانها المنحدرين منذ نحو خمسمائة عام ، عن آباء من الوُلاة والقادة والجنود الأتراك ، وأمهات ليبيات بزواج شرعي ، وذلك حين طرد هؤلاء الأسبان من طرابلس سنة ١٥٥١ م وضموها إلى حكمهم أسوة بالمشرق العربي زمن السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ م .

وكانت الأسرة مقيمة (بيدّر) ، ولما حصل لأفرادها منازعات وجفاء

(١) كلمة يدّر : بكسر الياء وتشديد الدال وكسرها .

مع أقربائها من عائلة الأدغم ، حكام مصراته المحليين قديماً ، نزح رجالها ومنهم عميدها الشتيوي إلى زاوية المحجوب ، الكائنة بالشمال الغربي من مصراته فامتلكت في موطنها الجديد أراضي واسعة ، عمرتها بالبناء والشجر والزراعة واقتناء المواشي .

وكانت ولادة الشتيوي نحو سنة ١٢٦٣ هـ الموافقة لسنة ١٨٤٣ م وتزوج أولاً بإحدى قريباته [١] ، وتصادف ذات يوم بينما هو على ظهر جواده ماراً به في قرية الزاوية ، وقع ظِلـُّه على فتاة عربية الزي ، سافرة الوجه اسمها (مِنى) بنت الحاج سالم الكرِيكْ ، كانت تخبز على التنور ، أمام منزلها داخل سانيتها ، فلما التفتت فجأة ورأت صاحب الظل ، لم توجس في نفسها خيفة منه ، بل قالت له بكل شجاعة وطمأنينة ، على سلامة هذا الفارس ، وبادرت فناولته رغيفاً ساخناً من خبزها ، إذ كان للفارس عند الليبيات القدامى ، شأن كبير من الاحترام والتقدير ، ولا سيما لذي المروءة والأصالة ، وكذا الفارس فإنه كان يعتبر ، أي فتاة أو امرأة ، بمثابة شقيقته أو أمه ، في إجلال مكانتها والحرص على صيانة شرفها وكرامتها وأعجب الشتيوي بقوام (منى) الرشيق ، وجمالها الرائع ببياضه الناصع ، وثبات قلبها وفصاحة منطقها ، فسرعان ما عرف لمن تكون ، فخطبها من شقيقها (الشتيوي الكريك) ، وتزوجها حوالي سنة ١٢٩٣ هـ وعمره وقتئذ حوالي ٣٣ سنة ، وطلق امرأته الأولى ، ولقد كانت له (منى) خير قرينة مثالية ، بأدبها وأخلاقها الحسنة ، وفي قيامها بمسئوليتها العائلية الكبيرة ، وفي توجيه أبنائها للاعتماد على أنفسهم في الحياة ، والاتصاف بالصدق والشجاعة ،

---

(١) عن فرج بن محمد الجربو الزريقي كان يسكن في الزاوية قرب منازل الشتيوي ، ثم صار من المجاهدين المقربين إلى رمضان وخاصته وتبصر مجاهداً في إحدى المعارك للطليان .

وهي أم كل من رمضان وأحمد وسعدون وفاطمة وأم السعد .

مغامرات الشتيوي وظروفها :

والشتيوي كان كامل الأوصاف الجسمية ، ناصع البياض ، واسع المقلتين ، مهيب الطلعة ، ومن ناحية الطباع النفسية ، كان قوي الإرادة ، شجاعاً مقداماً ، لا يثنيه عن طلب مآربه ، أية صعاب وأهوال ، ولما بلغ عنفوان شبابه حوالي سنة ١٢٨٨ هـ و ١٨٧٤ م قد رأى وسمع ، أسوأ الأحداث في العهد التركي الأخير ، وأقساها حياة اجتماعية ، ففي هذه الفترة من حياته ، مرت به أخبار غومة المحمودي وثورته ، والاضطرابات المحلية والقبلية ، المتفاقمة بكل جهة من طرابلس ، وكان الفساد الحكومي من الاختلاس والرشوة والمحسوبية ، متفشياً في جميع الدوائر الرسمية ، وفي أواخر السنة المذكورة ، انقطع نزول المطر المعتاد في الموسم الشتوي ، فسبب للمزروعات المحروثة جفافاً كبيراً ، وانعدمت به المحاصيل من الحبوب الغذائية ، ونفقت الأغنام وندر إنتاجها لبيس المراعي ، وتبع ذلك مجاعة رهيبة في البادية وقرى الأرياف ، وتفشت فيها الأمراض والأوبئة .

وكان من أثر هذه الأوضاع السيئة والأحوال المجاعية ، أن قام كل مغامر مسلح جريء ، بالسطو ليلاً على بيوت الفلاحين الأثرياء ، وإرغامهم على مشتراة أرواحهم منه ، بتركه يغتصب ما عندهم من التبر واللجين بلا ممانعة ، وأما في البادية فقد كانت تعدياتهم ليلاً ونهاراً ، بغزو الإبل السارحة في المراعي ، وسوقها إلى بلاد نائية ، وبيعها هناك بعد أن يُغيّروا سماتها الأولى ، ووضع سمات أخرى مكانها ، تضليلاً عند بيعها بأنها ملكهم .

وكان في مصراته من أخطر هؤلاء الغزاة المغامرين ، المخلين بالأمن

وراحة الناس ، المتمردين على القوانين والحكومة ، هو الشتيوي السويحلي والد رمضان ، والظاهر أنه في بادىء الأمر ، نُهِبَتْ له البعض من إبله السارحة في البادية ، فأراد أن يعمل بالمثل القائل « إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب » فصار هو أيضاً يسطو على غيره ليُرْهِب ، وليتنحى المغامرون عن مواشيه ، ثم بعد ذلك اعتزازاً منه بمخاطر الفروسية المتغلبة دائماً ، والسائدة بين فتوة زمانه ، لم يلبث أن اتخذها هواية بمنزلة الحرفة له .

ثم تحالف مع الكثير من غزاة الإبل الخطرين ، يرسلون إليه غزوهم فيبيعه لهم في مصراته ، أو يرسله بمعرفته ليباع لهم في جهات بعيدة ، وكان من شركائه الكبار في هذه الصفقات ، مغامر ترهونه الكبير في زمانه المسمى « محمد أبو غرارة » ، ثم تحالف عملياً مع أشجع وأفرس مغامر شهير ، في الجهة الغربية من أهالي الزاوية الغربية ، وهو المسمى « عمر دربوك » وينتسب فيها لقبيلة أولاد صقر .

ومما يدل على تجبر وعتو هذا المغامر القصة الآتية : فقد وعد[1] الناس مغامر آخر اسمه الورْيَمّي بكسر شوكة دربوك ، في صميم أرضه وبين أقربائه ، وسمع هو بما قاله عنه ، وإذا هما في إحدى أسواق الزاوية العامة ، يتلاقيان بلا ميعاد ، وعرف بالقرائن كل منهما صاحبه ، وأمام الجميع من الناس المكتظين بالسوق ، هجم دربوك على الوريمي ، وقابله غريمه بالمثل غير هياب .

ونشب بين الاثنين صراع بدني ، كاد لشدته من الحقد والغيظ أن

(١) الوريمي بكسر الواو وسكون الراء وفتح الياء وتشديد الميم ، والقصة مروية عن (الحاج علي الرمحي) نسبة إلى قبيلة الرمحة في الزاوية الغربية.

يحطم عظامها ، والناس من حولها يتفرجون مستغربين ، وانجلى التلاحم الشرس بينهما ، بانتصار دربوك على الوريمي ، فسلبـــه غدريته وانتزع ملابسه الفوقية واغتصب منه حصانه وكاد لولا تداخـــل البعض لحماية الوريمي أن يفتك به .

ورجع المهزوم إلى قبيلته « وريمّة » بتلك الحالة المزرية ، وتأثر أهله وأبناء عشيرته مما حصل له ، ومن الاهانات التي لحقتهم في سوق الزاوية ، بسبب غروره وإعجابه بنفسه وقوته ، ثم جاء أفراد ومشايخ من قبيلته إلى « عمر دربوك » ، يرجون من شهامته أن يرد إليه ما سلبه منه ، والطريف في المسألة أنه قبل وساطتهم ، فأعطاهم ثيـابه وحصانه ، وأما الغدرية فتأسف لهم لعدم وجودها معه ، قائلاً إنه باعهـا وشرب بثمنها « لاقبى » أي مسكر .

دربوك والشتيوي والتوبة :

ولمـــا تحالف عمر دربوك والشتيوي السويحلي ، ذاع صيتهما المخيف بالشجاعة والجرأة النادرة ، في كل جهة من بادية طرابلس شمالاً وجنوباً ، وكانا يغيران على قطعان الإبل ، غير مبالين بكثرة رعاتها المسلحين ، لأن هؤلاء حين يرونهما يعتريهم من الخوف انهيار عصبي وفقدان الجسارة عليهما كرؤية الشاة للضبع ، حتى صار الاثنان محتكري النهب والسلب لماشية الإبل السارحة في البر ، وازداد الخوف من الشتيوي بعد أن قتل أخاه كيوسف باشا الذي قتل أخاه كما سيأتي. ولكن حادثة[1] جرت للشتيوي ليلاً ، كانت هي السبب في إنابته إلى الله وترك المغامرة بالتعدي

(١) والرواية عن الحاج الشيباني أحمد السويحلي وهو حفيد الشتيوي حليف دربوك ، ويقول بعد توبة جده ترك مغامراته بتاتاً بسبب هذه القصة . وهناك في أرض ورفلة جهة تسمى حتى الآن (قرارة دربوك) كانت أحد معاقله في غزواته.

على أرزاق الناس في البر والحضر . ففي إحدى المرات بعثه صاحبه الصقري ، ليتتبع قرب المساء مسيرة إبل متجهة غرباً نحو تونس ليهجما عليها ويرجعا بما يتمكنان منها ، وفيما هو ماش خلف مسيرته متوارياً عن الأنظار ، سمع بعد غياب الشمس من بناء خارجة منه أصوات غناء (ومَقْرُونة) وطرب ، تدل على أن أصحابها داخل البناء جماعة كبيرة وهم في ساعات فرح ، فدخل للمكان بدافع الاستطلاع ، ووجدهم يتصدرهم رئيسهم وسراج يضيء المحل أمامه ، فسَلَّم عليهم ولكنهم بدلاً من أن يرحبوا به ازدراه رئيسهم ، وفاجأه قائلاً : تقدم أيها البدوي الأبيض وأرنا رقصتك ، فاعتذر له الشتيوي بعدم معرفته في حياته الرقص ، واعتبر هذا الطلب في سره إهانة لكرامته واحتقاراً له ، وحمد الله كونهم يجهلونه ، وأصر رئيس الجماعة على طلبه بما يشبه التهديد ، عندئذ تحرك دم الشهامة برأس الشتيوي ، ونوى في نفسه شراً وخيماً لمحتقره ، وكان يخفي دائماً في حزامه (قشطته) غَدْرِيَّة صغيرة ، فأجابه حسناً فقل لهؤلاء أن يرددوا عليَّ إنشادي أثناء الرقص ، وهز كبيرهم رأسه علامة الموافقة ، وصاروا يعاودون ألفاظه وهو يقول :

حيْ يا دايمْ حيْ يا دَايِمْ طرْطِشها ما عادْ اِتْـلايِمْ

ثم تقدم مسرعاً نحو السراج ، فأطفأه بنفخة واحدة قوية ، وعندما أظلم المكان وكان هو قرب رئيسهم ، انتزع (غدريته) من وسطه وأفرغها في صدره ، وفر من الباب إلى الخارج يعدو كالغزال ، تاركاً القوم وراءه يكتنفهم الظلام الدامس والفوضى ، ولما وصل إلى رفيقه الصقري ، وهو يكاد يسقط على الأرض من إعياء الجري ، أخبره تفصيلاً بما حصل له بعد تركه ، وأدرك الصقري خطورة فعلته ، فبادر وأعطاه جملاً سريع الخطى كالمهارى أركبه عليه قائلاً له : هيا وابتعد كوميض البرق من هذه الجهة قبل طلوع الشمس ، واقصد بلدك بلا إبطاء خوفاً من أن يلحقوا بك .

وهكذا فإن المناداة عليه ليرقص ، وهو الفارس الأبي عن احتمال المذلة والقهر ، كانت هي السبب الوحيد ، في هجر مغـــامراته بالبر والحضر ، والتزامه بعد ذلك العناية بتنمية ثروته الطائلة ، في العقارات الفلاحية ، وأراضيه الحراثية الواسعة للزرع الشتوي ، وتربية الماشية في المراعي الخصبة ، وخاصة الأغنام والبقر والإبل ، ومن الناحية الماليـة كانت خزانته معبأة بقطع الذهب والفضة .

ومما يدل [١] على مروءة الشتيوي واعترافه بالجميـل ، أنه لم ينس شهامة صديقه وزميله عمر دربوك معه في تلك الليلة ، التي أنقذه فيها من مطاردة خصومه ، ليأخذوا ثأرهم منه لرئيسهم الذي قتله ، فأوصى أبناءه أنه إذا اتصل بهم وهو غير موجود ، بأن يكرموا وفادتـــه ويحسنوا إليه . ويقدر الله أنه بعد القَرْضابيَّة ، بينما كان رمضان أثناء حصار مصراته كما سيأتي ، يشرف على معركة مع الطليان بطريق قصر حمد ، إذ جاءه بعد وفاة أبيه عمر الصقري الملقب بدربوك ، وكان قد سمع بصيته الكبير ، في جهاده الباسل للعدو ، فلما عرّفه بنفسه ، تلقاه رمضان ، بكل بشاشة وترحاب ، وبالغ في إكرامه وضيافته ، وحين طلب العودة إلى الزاوية الغربية ، وكانت حالته تدل على الاحتياج ، أجزل له العطاء والهبة ، فرجع إلى وطنه ولسانه يلهج بالثناء على رمضان ، لأنه وجده فارساً معطاء ، تفوّق عن والده كرماً وغيرة وشجاعة .

فتك الشتيوي بأخيه :

ولمناسبة تلميحنا عن قتل الشتيوي ويوسف باشا لأخويهما ، فمن عظات التاريخ الليبي البليغة في العصر الحديث ، أنه أيام العهـــد التركي عندنا

---

(١) الرواية عن الحاج الشيباني حمد السويحلي وهو حفيد الشتيوي .

حصلت فيه فاجعتان أليمتان ، تجلى فيهما حقد الإنسان الدفين ، حتى على أخيه الشقيق ، لأن هـذا كان أحق منه بالحكم أو الإرث ، فقتله بسبب ذلك حباً وشهوة غريزية في متاع الدنيا الزائل الغرور ، وكالجبابرة الميكيافليين ، تماماً ، الذين في سبيل الوصول إلى مآربهم الأشعبية ، يرون أن الغاية تبرر الواسطة .

فالفاجعة الأولى صاحبها (سنة ١٧٩٨م) ، أمير من الأسرة القرهمانلية وهو يوسف باشا ، فلما رأى أن أخاه حسن بك ، أحق منه بعد أبيهما « علي الأول » بمنصب الحكم بصفته الأكبر سنا ، تملكت يوسف غريزته الشريرة بحب السلطة ، وليصل إليهـا قبل شقيقه حسن ، قتله بسيفه البتار ، وهو بحجر أمه يستغيث بها أن تنقذه من بطشه ، وكان ليوسف ما أراد من هذه الجريمـــة النكراء البشعة ، إذ تولى الإمارة القرهمانلية في السنة المذكورة ، بعد أن فر من وجهه أخوه الآخر أحمد بك إلى مالطة ، وكان يلي حسن بك في ولاية العهد .

وأما الفاجعة التالية [١] ، فإن أبناء أحمد بن مفتاح السويحلي ، وهم الشتيوي ومحمد فتولة وحفصة ، قـد ورثوا عن جدهم ووالدهم ، أراضي زراعية شاسعة وسواني فلاحية كثيرة ، والظاهر أنه عند التقسيم لإرث جدهم وأبيهم ، أراد الشتيوي أن يأخـــذ نصيباً أكثر منهم ، أو هم أرادوا ذلك ، ولعدم تراضي الطرفين بهذه الحصص ، ثارت أولاً حفصة بوجه شقيقها الشتيوي غاضبة ، وكأنها في ثورتها النفسية عليه ، أسمعته ألفاظاً أهاجت النخوة والعزة في رأسه ، فبادلها الكلام بما هو أقسى ، ولما انتصر لها أخوه فتولة وابنها إبراهيم ، جرت بينهم مشاجرة حامية الوطيس بالتلازم الصراعي ، ثم بالتضارب الدموي العنيف ، وبحالة لاشعورية أنهى

---

(١) الرواية عن الحاج الفيتوري السويحلي .

الشتيوي المعركة بقتل كل من أخيه فتولة وابراهيم ابن حفصة .

ولما[1] ثاب إلى رشده ، وأدرك فداحة الجرم العظيم الذي ارتكبه استيقظ ضميره بتأنيبه إياه ، التأنيب القوي الأليم ، على ما فعل بأخيه وابن أخته ، بسبب عرض دنيوي زائل ، ولديه منه ما لا يحصى ولا ينفد بطول الزمن ، فراح[2] يذرف الدمع المدرار ، كلما تذكرهما وأثارت عواطفه بنفسه الندم اللاذع ، والتأثر المضني لما جنته يداه عليهما، وموقفه الحزين هذا يتمثل فيه تماماً قول الشاعر :

لا تَظْلِمَنَّ إذا ما كنتَ مقتدراً
فالظلمُ آخره يُفضِي إلى الندم

ثم اشتد عطفه وإشفاقه الحنون ، على أولاد أخيه القتيل ، فضمهم إلى أسرته واعتبرهم كأبناء صلبه ، وزوج ابنته فاطمة ، إلى مفتاح ابن أخيه فتولة ، ورزق منها بولد سماه فتولة على اسم أبيه القتيل .

هذا وقد عرف عن الشتيوي أنه حاتمي السخـــاء والبذل ، نصير للضعفاء باراً بالفقراء ، وكان[3] كثير الاعتقـــاد بكرامات ، ولي الله سيدي المحجوب ، صاحب الزاوية المشتهرة باسمه في تلك الجهة ، ومع ذلك فقد كانت متأصلة فيه نخوة الرجولة وعزة النفس ، وعدم الغفران لأي مساس بكرامته وشرف أسرته ، كما كان شديد الحرص على أعراض الناس ، ولا سيما المجاورين لأملاكه في زاوية المحجوب ، وبلغ[4] من نفوذه وإرهابه القويين ، لدرجة أنه لم يستطع أي أحد في وقته ، أن يرعى مواشيه

---

(١) عن الحاج الشيباني السويحلي .
(٢) عن الشيباني احمد السويحلي .
(٣) عن الحاج علي الضراط .
(٤) عن الحاج علي الضراط .

أو يحتطب من الكثبان الرملية « القيزان » الممتدة على الشاطىء من محلة الزاوية إلى أوائل زليتن ، لاعتباره إيّاها ملحقة بأرضه ، أو بالأحرى داخلة تحت سلطته .

نمو صيته بالكرم والجود :

وعلى الرغم مما عرف به الشتيوي في حياته ، من المعاصي والمظالم الجمة ، واجترامه الذنوب الكبرى ، فإنه من النواحي الإيجابيـــة الأخرى في سيرته الرهيبة ، قد كان فزاعاً لنصرة الضعفاء ، جزيل البر بالفقراء ، وكان حاتمي الكرم والجود ، حتى راح مضرب الأمثـال ، في تصديه ليُقْري الأضياف ، جماعات وفرادى من الأعيان والوجهاء ، الذين يعبرون السبيل ذهاباً وإياباً قرب بساتينه أو حي بيوته .

وأن الحادثة الآتية لتعتبر أصدق دليل على صحة ما عزوناه للشتيوي من سجية الكرم الحاتمي فيه ، لمحض المروءة والشهامة ، المتصف بها عادة كل المغامرين الخطرين أمثـاله ، ففي حوالي سنة ١٨٨٧ م أقام [١] الأداغم بعصراته لزواج أحد أبنائهم ، فرحاً عظيماً بأيام وليال سارة ، فدعا رئيسهم وقتئذ محمد الصغير الأدغم ، أصهاره آل المريض بترهونة ، أن يتفضلوا بمشاركتهم بتلك المناسبة ، فلبوا الدعوة وأوفدوا لهم أربعين فارساً ، يتقدمهم محمد بك الصغير المريض [٢] .

---

(١) منذ قيام فرح الأداغم بعصراته لزواج أحد أبنائهم إلى استضافـــة الشتيوي لفرسان ترهونة ثم رجوعهم لبلدهم، هو من رواية الحاج سالم المريض بن محمد بك الصغير المريض .

(٢) جرت عادة الطرابلسيين بالأرياف، إذا وجد في العائلة شخصان ذكوراً أو أناثاً اتفقا في اسم واحد ، كمحمد وفاطمة مثلا : أن يوصف المولود تالياً بهذا الاسم أيضاً بالصغير تمييزاً له عن سميه الأسبق ، ومن هنا قيل محمد الصغير الأدغم ومحمد الصغير المريض ، وفاطمة الصغيرة وخديجة الصغيرة .. الخ .

ولما انتهت أيام ومباهج العرس ، رجع قبيل العصر أولئك الفرسان الأكابر إلى ديارهم ، وتصادف أن كان طريقهم من زاويـة المحجوب ، بجانب كثيب رمل يقع بأرض الشتيوي ، وإذا هو يفاجئهم واقفـاً بأعلى الكثيب وسلاحة بيده وصرخ فيهم بصوته الجهوري قائـلاً : قفوا مكانكم أيها الفرسان وإلا فالنار بيني وبينكم .

ذلك أنه رأى حسب العرف بين صناديد الرجال ، وأرباب السخاء والشهامة ، وقد مروا بناحيته قرب المساء ، أن لا يدعهم يتخطونه دون أن يحظى بشرف تكريمهم وضيافتهم ، وبعد أن عرفوه سرعان ما أدركوا المغزى المقصود ، من إنذاره الفكه الحبيب ، فانفجروا ضاحكين ضحك السرور والارتياح ، وعندما أمسكوا الأعنة عن السير ، انحدر إليهم من رأس الكثيب ، بالوجه الطلق البشوش ، وألفاظ الحفـاوة والترحيب ، وترجلوا هم عن خيولهم السباقـة الأصيلة إشارة لقبول رفده .

وبعد أن تبادل مع رئيسهم ورفاقه سلام الأخوة ، بالمعانقـة والمصافحة ، وتحيات المودة والصفاء ، أنزلهم في مرابيع استقبالاتـه الأنيقة بناء وفرشاً ، وبادر فريق من خدمه وعماله إلى الخيول فربطها ، بالسواني وعلق لها في مخاليها أنقى وأوفر الشعير علوفة ، وأسرع فريق آخر منهم ، فاستخرج من حظائر الأغنـام أصغر وأسمن الخراف ، فذبحت وقدمت لحومها لمطابخ الأسرة ، وأعد بها عشاء للضيوف، وكان من ألذ وأفخر أصناف الأطعمة لذة وشهية .

وبعد أن أمضوا نصف الليل ، مع الشتيوي وأحبابه من جيرانه ، في مسرات اجتماعية عامة وحكايات بهيجة ، باتوا ليلتهم مغتبطين هانئين ، وفي صباح اليوم التالي ، عندما أتموا فطورهم الدسم ، استأذنوا مضيفهم

بالسفر لتأخرهم كثيراً بسبب الفرح المذكور عن ديارهم ، واستجاب عذرهم فأسرجت خيولهم وجيء لهم بها ، وودع محمد بك وإخوانه الشتيوي وناسه وداعاً حاراً ، ورجعوا خبباً نحو ترهونة ، وألسنتهم تلهج بإطراء كرمه الحاتمي وفروسيته الأخاذة المعطاءة .

قال الشاعر :

يُغَطَّى بالسماحة كلُّ عيب
وكم عيبٍ يغطّيه السخاءُ

الفصل الثاني

حياة رمضان العامة بمصراته

نشأته وأحوال شبابه

نشأته وأحوال شبابه :

ولم يكن من أولاد الشتيوي مشابهاً له في الصفات الجسدية والشجاعة وقوة الإرادة ، سوى ابنه رمضان ، وقد ولد سنة ١٢٩٧ هـ الموافقة لسنة ١٨٨١ م ، (أيام الولاية الثانية لعزت باشا على ليبيا) ، ولما صار طفلاً واعياً ، ادخله والده لمعهد زاوية المحجوب الديني ، وبذكائه الفطري الحاد حفظ القرآن ، قبل أن يصل لسن الرشد ، وبعد ذلك أخذ مبادىء من الدين الحنيف ، وفي نحو السادس عشرة سنة (١٦) من عمره ، لكي يتمم دراسته العربية والدينية ، انتقل إلى معهد سيدي أحمد الزروق الشهير بمصراته الشرقية ، فازداد فيه تعلماً وتحصيلاً بدرجة ممتازة ، وكان من اساتذته الكبار فيه ، الشيخ العلامة رمضان أبو تركية وغيره ، وبعد تخرجه من الزروق ، رجع للزاوية وابتدأ يساهم مع والده وأخوته ، بأعمال الفلاحة في سوانيهم

(بساتينهم) الكثيرة ، ويقوم معهم بالحراثة الشتوية بأراضيهم الواسعة في البر ، وتربية المواشي بمراعيها الخصبة وفي هذه الأثناء تمهر بأعمال الفروسية والرماية .

ثم أن بعض الناس لا يبرئون رمضان في أيام شبابه ، من العبث والمجون والغزو الصحراوي ، ونحن في الحقيقة حتى الآن لم تتوفر لدينا أدلة ، على قيامه وهو فتى يافع ، بمغامرات في البادية كوالده[1] ، غير أن هناك حادثة تعزى إليه بهذا الخصوص (بعد وفاة أبيه) ، ولا يعترف هو حصولها منه بنية سيئة ، وهي تهمة اعتدائه بالسرقة الناهبة ، فقد حصل له بأوائل الاحتلال الإيطالي بمصراته ، أن أخذ جملين شاردين ريثما يهتدي لصاحبها وكانا لأحد أثرياء (يدر)وهو أبو بكر الشاوش،فلما عرف أنهماعند رمضان اتهمه بسرقتهما ، وأراد أن يشكوه للحكومة ، فبادر (أبو بكر بو دبوس) من أعيان مصراته التجار وصديق رمضان ، فتوسط بينهما بالتي هي أحسن ، وارجع الجملين لأبي بكر الشاوش ، ومن اتصاف أبناء وذرية (منى) بقول الصدق ، أن حفيدها فتولة ولد بنتها فاطمة ، هو الذي اعترف لأبي بكر الشاوش ، بوجود جمليه بين إبلهم ، واعترافه هذا ليس فيه ما يشعر بسرقتهما وشرود الحيوانات وامساكها لظهور أصحابها ، أمر متعارف عليه بين الفلاحين في البر والحضر .

وفي حياة والده الشتيوي ، كانت زوجته الأولى فتاة حسناء أصيلةالحسب والنسب ، كريمة المنبت والأخلاق ، وهي السيدة فاطمة بنت الحاج خليل السويحلي ، ورزق منها بنتاً اسمها خديجة ، وولداً اسمه ابراهيم ، ولما توفيت فاطمة أورثت قلبه حزناً عميقاً ، لحرمانه من عطفها وآدابها

---

(١) رواية الحاج الشيباني أحمد السويحلي وذلك عن حادثة الجملين .

فتزوج بعدها فتاة أخرى (يدّرية) أيضاً،لا تقل عن الأولى نبلاً وجمالاً ومكانة وجيهة هي السيدة (للاّ هنُم) بنت محمد بن التيمّي (بتشديد الميم وكسرها) ورزق منها بنتاً اسمها عائشة .

ونظراً لأن الشتيوي كان قليل الذهاب للمواطين ، خوفاً من مطاردة الجند التركي إياه ، بسبب مغامراته المشهورة ، وإذا اضطر لها فانه يذهب متوارياً عنهم ، لذلك كان ابنه رمضان ، يتولى دائمـاً بدلاً منه ، قضاء الاحتياجات الهامة للاسرة ، وكان يأخذها في بعض الأحيان ، من المسمى الزعلوك أحد تجار قبيلة الدرادفة ، القائمة مساكنها في المواطين ، وفي غالب الأوقات كان يأخذها من يهودي غني اسمه « عقيبة القفصية » وهـو تاجر كبير في جميع السلع ، وخاصة في المواشي والأغنام ، بين مصراته وبنغازي ومصر ، وكان العميل الأول للشتيوي ، في شراء مـا يجلبـه للسوق من قطعان الابل وتصريفها ، وبهذه المناسبة كانت بينه وبين رمضان صحبـة وثيقة ، ووجهات نظر متقاربة في الرأي أو متوافقة ، عن أحوال مصراته العامة . وخاصة منها الأوضاع الاجتماعية في عاصمتها المواطين .

وفي ذلك الحين كان من أشهر أغنياء وملاك مصراته وأقواهم نفوذاً «عمر بك المنتصر » زعيم قبيلة الكوافي ، وكان يحوز أهم العقارات بمنازل وأسواق المواطين ، وأراضي زراعية وسواني فلاحية لا حصر لتعداداهـا ، فضلاً عن مباني مدينة سرت ، ومنطقتها الحراثية والرعوية . وكان له أربعة أولاد ، هم أحمد وسالم وأبو القاسم وعبد القادر ، وبينما كان ابنه أحمد ، أعقـل أولاده وأكثرهم ثقافة ، وكان قائمقاماً للعجيلات ثم لترهونة ، وكان أخوه أبو القاسم ، قد صدق فيه قول الشاعر :

إن الشباب والفراغ والجده   مفسدة للمرء أي مفسده

ومعنى هذا أن الشاب إذا توفر له المال ، وحياة البذخ والنعيم ، ولم يكن

له عمل مسئول عنه ، أو حرفة تشغل فراغ يومه ، يتجه بدلاً من ذلك إلى ممارسة النزوات النفسية والميول السيئة ، التي لا يعصمها دين ولا يخيفها أحد ولهذا كان بالقاسم يجترح الموبقات ، من الخمر والنساء واللهو والطرب ، متخذاً نفوذ والده الكبير ، وارشائه بالذهب والفضة الناس والموظفين ، درئاً له من أي قصاص شرعي أو قانوني ، حاسباً أن حرمات البشر كلها ، مهيأة لمتعه ولذاته ، ومما يزيد في سلوكه هذا شناعة وقبحاً ، أنه وهو منغمس فيه كان محصناً ، أي له زوجتان من أطهر بنات عمه شرفاً ، وأجملهن صورة وأدباً ، هما السيدة وريدة بنت مصطفى المنتصر ، والسيده آمنة بنت علي السنوسي ، ورزق منها وولداً وبنتاً .

ولا غرو بذلك فإنه ما من بلد أو بيئة أو أسرة ، إلا وفيها الفاجر الشقي ، والصالح التقي ، فإذا شذ فرد منتصري كالذي نتحدث عنه ، فإنه للحقيقة والتاريخ ، كان في أيامه وما بعده ، مناصرة كثيرون من أبناء عمومته ، ظافرين من مواطنيهم بالتقدير الكبير والاحترام الزائد، لحسن سيرتهم وأخلاقهم الكريمة وحياتهم الشعبية .

ومن هؤلاء المرحومين مثلاً ، الطيب بك المنتصر ، وكان من كبار الحفاظ للقرآن الكريم ، والحاج علي بك بن حسن المنتصر ، الذي تفرغ في زاوية أسرتهم بالمواطين ، لخدمة كتاب الذكر الحكيم ، بتحفيظه لناشئة بلده وقد ختمه على يده مئات من الشباب المصراتي ، الذين هم الآن من الرجال العاملين ، في مختلف جوانب الحياة ، وبعد وفاته قام بنشر رسالته القرآنية ابنه الشيخ حسن المجيد لحفظه القرآن ، ومنهم الضابط المجاهد الشهير محمد بك بن حسن المنتصر ، وسيأتي عنه المزيد .

وفي هذا العهد من ثورة الفاتح من سبتمبر ، هناك الكثير من الشباب المنتصري لوطنيتهم وجدارتهم العلمية ، يشغلون فيها مناصب رسمية هامة ، وللدلالة على صحة ما نقوله مثلاً فإن منهم الوكيل الحالي لوزارة النفط ،

وقد سجن في العهد الغابر وعذب كثيراً في سبيل مبادئه الثورية المناهضة للاستعمار والطغيان ، ومنهم عالم ديني متخرج في الجامعة الأزهرية بالقاهرة وهو الآن من أركان الأمانة العامة للدعوة الإسلامية ، ومنهم شـــاب في « السلك الدبلوماسي » ، يشغل منصب سفير عام للجمهورية الليبية في أمريكا الجنوبية ومركزه الرئيسي الأرجنتين ، ولعل فيما تقدمت الإشارة إليه عنهم ، ما يوحي للقارىء نزاهتنا فيما نكتب من الأبحاث التاريخية .

ورجوعاً لاستئناف الموضوع السابق ، عن التصرفات الشائنة لابن عمر المنتصر [١] ، ذلك الحين كان في المواطين فتاة يهودية فائقة الجمال ، والدها يحمل الجنسية الفرنسية ، وهو قريب النسب لـ « عقيبة القفصية » ، فاغتصبها بلقاسم بحيلة شيطانية دبرت لها ، ونظراً لنفوذ والده الكبير ، وانتقامه هو بواسطة أعوانه ، ممن يفسدون عليه مزاجه الشخصي ، لذلك كظم والدها وعقيبة ، ما يضطرب في نفسيهما من نيران الألم المبرح ، لفاجعتهما باغتصاب فتاتهما العذراء ، وحدث عقيبة رمضان بالأمر الشنيع الذي جرى للفتاة ، وكان رمضان يدري قبله عن بلقاسم الشيء الكثير ، وعن سلوكه الانحرافي مع اليهودية ، وكان عقيبة متأثراً جداً ، فنصحه رمضان بالصبر وكتمان المسألة عن باقي الناس .

وكان لعمر المنتصر بقرية سواوه [٢] عقارات فلاحية مجاورة لأملاك

---

(١) حادثة اليهودي رواها لي في طرابلس (الياهو أبوهـــارون بن عقيبة القفصيه) وصلة الشتيوي ورمضان بهم ، وكان أبو هارون في آخرته تاجراً في مدينة طرابلس بالمواشي بين طرابلس وبنغازي كحرفة والده قبله .

(٢) حادثة (حواءغباين) أخذاً من رواية (فرج بن محمد الجريو) المتقدم ذكره وغـــيره من أقارب رمضان وعن الحاج علي الضراط .

الشتيوي ، وإذا بلقاسم لم يقتصر في مجونه وعبثه على المواطين والجهات الأخرى ، بل تعداها إلى سواوه ، فأخذ يتردد فيها على امرأة اسمها « حواء غباين » ، غير عفيفة وذات حسن جذاب وأنوثة ، وكانت قبل ضياع شرفها ، تقوم بخدمة في منازل أسرة الشتيوي ، فلما ساءت سمعتها طردت من خدمتها ، والتزمت الإقامة في قريتها سواوه .

الفصل الثالث

اغتياله لأبي القاسم ودوافعه

وكان أبو القاسم [1] في ذهـــابه وإيابه ، إلى تلك المرأة في سواوه ، يمر من سواني الشتيوي وما حولها ، فعم استياء الشتيوي وأبناؤه وناس الزاوية من هذا المرور ، لما فيه من عدم الحفاظ على كرامتهم وشرف سمعتهم ، ولأنهم يخشون أن تمتد به التهمـة ، إلى نساء الزاوية المصونات ، اللائي هن أمنع عليه من عقاب الجو ، وليس في هذا الاستياء الساخط من غرابة ، فالإنسان متى كان معروفاً بسيرته الذميمة ، ويشاهد ماراً بين أو قرب الأحيـــاء الآهلة بالسكان في المزارع والمنـــازل ، فمن حق هؤلاء إنذاره أكثر من مرة ، باتخاذ طريق آخر له بعيداً عن منطقتهم ، حتى لا تنشأ فيها بـه الظنون السيئة ، ولكنه لم يأبه لذلك ، وأنى له أن يرتدع عن خيلائه وغروره ،

(١) عن الحاج علي الضراط ، أحد أعيـــان مصراته ، المعروفين بالصلاح والتقوى ، وعلى الرغم من كبر سنه عام ١٩٧٢ م ، فهو لا يزال صافي الذهن حاضر الوعي ، وقد عاصر كلاً من الشتيوي وابنـه رمضان ، وأخباره عنهما يعتبرها المؤلف ثقـة ، وستأتي له في هـــذا الكتاب روايات أخرى .

ما دام والده وأخوتـه رغم مفاسده المتفاقمة لم يكبحوا جمـــاح نفسه الباغية .

ومهدت الأقدار ما ينتظره من المصير المشئوم [١] ففي إحدى الليالي جاء لمنزله الخاص بسواوة ، ومعه أصحاب سمره وطربه ، ومنهم تابع له اسمه محمود الشركسي الملقب بالباشا ، فلما لعبت الخمرة برأس بلقاسم ، حتى لم يعد يعرف ما يهذي به ، طلب من تابعه أن يحضر له (حواء غباين) من حي الشتيوي ، وأدرك رفاقه خطورة وسوء عربدته ، بذكر المرأة وتعيين محل وجودها ، لا سيما وان آل الشتيوي قد طردوها من خدمتهم منذ مدة ، لذلك لم يجرأ تابعه ولا غيره ، أن يخطو خارج المكان لتنفيذ طلبه ولا خطوة واحدة .

وتصادف أن أحد الذين ، كانوا في تلك الليلة مع بلقاسم وقيل هو محمود الشركسي نفسه أن أخبر رمضان بما تفوه به صاحبهم عن حواء غباين ومكان وجودها ، فتضاعف سخط رمضان عليه ، وصمم في نفسه أن يجعل لاستفزازاته لهم حداً ، وفي يوم من أسواق المواطين الكبيرة ، بينما كان رمضان جالساً ، أمام متجر الزعلوك المتقدم ذكره ، مر به بالقاسم مع بعض أصحابه ، فخاطبه رمضان قائلاً لقد بلغني ، ما تفوهت به عنا في تلك الليلة ، عندمـــا كنت بمنزلك في سواوة ، مما نعده ماساً بشرفنا وكرامتنا ونصحه بأن لا يعود لمثله ، وأن يتنحى عن المرور إليها من منطقة سوانيهم .

عندئذ انفجر بلقاسم غضباً على رمضان ، ووجه إليه ألفاظاً غير مهذبة ، وفي أثناء هذا الموقف المثير للأعصاب ، برهن رمضان أمام الجمهور المحتشد على رجاحة عقله ، وقوة إرادته في احتماله للمكاره ، فبدلاً من أن يرد عليه بما يزيد الأمر تفاقماً بينهما ، تركه بحالته المضطربة ودخل إلى متجر الزعلوك

---

(١) رواية الحاج فيتوري السويحلي المذكور في المقدمة إلى وقوع الاغتيال والقبض على رمضان .

فجلس فيه ، ونوى له في نفسه أمراً ، ثم رجع إلى الزاوية وعلامات الانقباض ظاهرة على وجهه وكتم الحادث عن أبيه .

غير أنه جاء من أخبر الشتيوي ، بما جرى لابنه رمضان يوم السوق مع بلقاسم ، وإن رمضان لم يرد عليه بشيء ، ولم يبادله التهجم عليه بمثله ، فذهب الشتيوي إلى ابنه ثائراً وشرر الغضب والانفعال يتقد من عينيه ، ورماه بأقبح الشتائم والسباب لجبنه وضعفه أمام خصمه ابن المنتصر ، بدلاً من أن يصرعه ويقضي عليه ، رداً لشرفه عن الاهانة التي ألحقها به في يوم سوق كبير ، وكاد يصفعه لاشتداد سخطه منه ، لما أورثه إياه بذلك من العار في البلاد غير أن رمضان أسرع فتوارى ، ثم ذهب الشتيوي بحالته الغاضبة إلى والدته (منى) ورماها بكل نقيصة في ذريتها ، قائلاً يا عربية انك لم تلدي حتى الآن ، ابناً تفخرين بشجاعته وإبائه الضيم والذل والمهانة ، وسوف نرى إن كانت السيدة (منى) تستحق من زوجها هذا الوصف ، أم أنها حقاً أتت له بخيرة الرجال وسيد الأبطال .

والواقع أن رمضان لم يكن أمام خصمه في ذلك اليوم ، جباناً ولا رعديداً ، وهو من تجري في دمائه ، أوصاف الشمم والبطولة ، وإنما آثر أن يرجىء حسابه معه إلى الوقت المناسب ، ولم يلبث طويلاً حتى اختلى سراً في المواطين ، هو وعقيبة وتدارسا الخطط التنفيذية ، لاغتيال بلقاسم ، جزاء له من الله على ما اقترفه من الشرور في البلاد ، واعتداءاته على أعراض الناس الضعاف ، واستهتاره بقيم الفضيلة والكرامات الموفورة ، واتفقا متى يعلم عقيبة بسفر بلقاسم إلى مدينة طرابلس المتردد عليها دائماً ، أن يذهب في أثره متظاهراً بإتمام شئونه التجارية فيها ، وأن يبرق له عن يوم رجوع بلقاسم بإشارة رمزية متفاهمين عليها ، وفجأة تلقى منه برقية تفيده ، أنه أرسل له من طرابلس البقر المطلوب ، وأدرك رمضان المقصود فبادر بمصارحة والده بما دبره هو وعقيبة لغريمهما .

وبعد أن عمل ترتيبه لملاقاته في عين كعام ، ركب هو وأخوه أحمد جواديهما ومعهما شخص من أتباعهما اسمه (محمد الفنيك) ، فاتجهوا إلى زليتن ونزلوا فيها ضيوفاً وقت المساء عند صديق أسرتهم المسمى (محمود الهذلولي) أحد أعيان جهتها الغربية المسماة سوق الجمعة ، وسألهم عن سبب قدومهم المفاجيء ، فأخفوا عنه حقيقة قصدهم ، وأجابوا فقدنا في مصراته بعض البقر فجئنا نبحث عنه في زليتن ، ورد عليهم كونوا مطمئنين فعليكم بالرجوع إلى مصراته ، وإذا كان البقر قد جاء إلى زليتن ، فسوف أتحصل عليه وأبعثه لكم ، فأظهروا سرورهم وامتنانهم منه ، وقاموا مبكرين فركبوا خيولهم واتجهوا أمامه شرقاً نحو مصراته ، ولما تواروا عنه أداروا أعنة خيولهم غرباً نحو عين كعام .

وبينما هم عندها ينتظرون عودة بالقاسم من طرابلس ، صهل حصان رمضان إذ شم رائحة فرس بالقاسم ، وكان معه تابعه « محمد درّم » ، فقال له يا بك هذا الصهيل هو لحصان رمضان الشتيوي ، فلننحرف من طريقه لجهة أخرى فوافقه ، ولكن محمد الفنيك شعر به فأخبر رفيقيه عنه .

لحظتئذ أسرع أحمد السويحلي بحصانه وراء بلقاسم ، حتى أمسكه من جرده عند رقبته ثم جاء رمضان وقابله من أمامه ساحباً بندقيته ، وأفرغها في صدره فسقط على الأرض يتخبط بدمه وفارق الحياة ، وكان ذلك يوم الأربعاء ، آخر شهر رجب سنة ١٣٢٧ هـ و ١٢ أغسطس سنة ١٩٠٩ م.

وهناك رواية تقول أن بلقاسم كان فارساً شجاعاً ، فلما أحس بالخطر سحب غدريته وهجم على أحمد فأطلقها عليه ، وأصابه عيارها في كتفه ، ولكن المصادر السويحلية تنفي ذلك ، وعند حصول الفاجعة فر « درم » يجري بحصانه ، فلحقه رمضان وكاد يفتك به ، فاستجار بالله منه ، واسترحمه الابقاء على حياته ، فتركه ، ولما ذهب درم إلى زليتن ، أبرق لأبناء

عمر المنتصر في طرابلس بما جرى لأخيهم في عين كعام ، ثم انه على أثر اغتيال رمضان له عملاً بقول الشاعر :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

بادر الاثنان فوراً بالرجوع نحو مصراته ، ثم اختفيا عن مطاردة الجندرمة (رجال الأمن) في منطقة الكثبان الرملية ، الممتدة على شاطىء البحر بين مصراته وزليتن ، وأقاما بهذه الجهة في محل له نخيل وماء يسمى (شواظه) .

وحين أخبر الشتيوي بأنها قتلا بالقاسم المنتصر ، استنفزه الفرح العظيم والرضاء عنها ، وذهب مسرعاً يهنىء زوجه (منى) بأنها حقاً أنجبت له فارسين ، حرية بأن تفخر بهما وتستحق منه على ذلك أن يكرمها ، فيشيد لها غرفة لإقامتها الخاصة رمزاً لعلو قدرها عنده ومكانتها في قلبه .

دحض تهمة عن سبب الاغتيال :

وما دمنا في مجال الكلام عن الدوافع الكثيرة ، التي أدت إلى هـذا الاغتيال ، نشير إلى أن الذين يكرهون رمضان وأسرته لأسباب عاطفية وحزازات قبلية ، يزعمون للحط من شرف أسرته العظيمة ، والإساءة إلى كرامتها وسمعتها ، أنه لم يقتل بالقاسم إلا لأن هـذا كان قد اختطف شقيقته المسماة أم السعد .

ونظراً لذيوع هذه الشائعة على ألسنة القدامى في مصراته ، وتسربها بالتواتر الباطل في مصراته للآن ، لذلك خدمة لحقائق التاريخ بذلنا عنها أعمق الدراسة والتنقيب ، إلى أن توصلنا لإجلاء ترهاتها الشائعة وحديثها الأفكي ، بالوثائق الرسمية والحجة الشرعية ، وأنه التبست عليهم الحقيقة ، بفتاة أخرى بهذا

الاسم اعتدى عليها بالقاسم .

وإيضاحاً للواقع المعزز بالأسانيد ، نقول بخصوص الموضوع ، أن بالقاسم لم يكتف باعتداءاته المتكررة على المسكينة (حواء غبابن) ، بل تجاوزها بالمثل إلى أختها البكر العذراء المسماة (أم السعد [1] بنت علي عبد الدايم) ، فاختطفها وظل يغتصبها في بيت سري له بالمواطين مدة ثلاثة أشهر .

ولما اشتد بحث أهلها عنها بواسطة حكومة مصراته ومراقبته ، خاف الاهتداء إليها عنده فركب جواده وأردفها وراءه ، ثم ذهب بها مع أحد أتباعه إلى زليتن ، وهناك تركها بمنزل شخص يعرفه اسمه (سليمان كرم) ، وأخبر سليمان أهلها فجاءوا إليها ، وأجريت لها قائمقامية زليتن ، فحصاً طبياً مع قابلة فثبتت جناية بالقاسم عليها .

وفي يوم [2] ٢٥ يوليو سنة ١٩٠٩ ، أرسل (محمد [3] أمين بك المهدوي) قائمقام مصراته ، أرسل برقية إلى رئيسه متصرف الخمس ، ومنه لمركز الولاية ، تفيد العثور على الفتاة أم السعد المختطفة ، بالكيفية المسبوق ذكرها ، وأنها تشكر الدولة التي أخذتها وأرجعتها إلى أهلها ، وترجو أخذ حقها والانتقام لها منه .

وأم السعد السويحلية ذات الطهر والعفاف ، والتي الوصول إليها بغير

---

(١) أخذاً من ملفات الأوراق المتعلقة بقتل بالقاسم والتحقيقات القضائية والبرقيات حول ذلك وهي المودعة في دار المحفوظات التاريخية والأثرية بقلعة مدينة طرابلس .

(٢) فلنلاحظ من هذا التاريخ أي ٢٥ يوليو سنة ١٩٠٩ ، أن العثور على أم السعد بنت عبد الدايم في زليتن كان قبل اغتيال بالقاسم بنحو ثلاثة وأربعين (٤٣) يوماً إذ اغتيل كما تقدم في ١٢ أغسطس سنة ١٩٠٩ .

(٣) محمد أمين بك المهدوي هو والد شاعر ليبيا البليغ أحمد رفيق المهدوي .

ما أباحه الشرع الشريف،أمنع عليه من عقاب الجو، فهي البنت الثانية للشتيوي من زوجة (منى) ، ويوم اغتيل بالقاسم ، كانت لا تزال دون الحلم لا تدرك من الدنيا شيئاً ، هاجرت إلى مصر مع أخيها أحمد بك وأسرته ، وتزوجها هناك عذراء ، ابن عمها الصميم الحاج فيتوري السويحلي ، ولم ينجب منها نسلاً .

وبعد زوال الحكم الايطالي ، رجعت إلى مصراته مع أخيها أحمد بك وأسرته ، ومنذ نحو تسع سنوات توفيت ، ونظراً لأن ابني أخويها الحاج الشيباني بن حمد السويحلي ، وسالم بن سعدون السويحلي ، يريدان أن يحصرا تركة أحدهما لأسباب وراثية ، فقد تحصلا في السنة الماضية ، على العلم والخبر بذلك من مختار محلة الخروبة « الشيخ علي محمد الهمالي » بتاريخ ٦ ربيع أول سنة ١٣٩٢ هـ الموافق ١٩ أبريل سنة ١٩٧٢ م يقول فيه بالنص :

« أشهد أن المواطنة أم السعد بنت الشتيوي السويحلي ، ومنى بنت الحاج سالم ، قد توفيت بمصراته بتاريخ ١٩٦٥/٦/٢٤ ، وهي عديمة الذرية ، وليس لها وريث سوى ابني أخويها ، وهما الشيباني بن أحمد السويحلي ، وسالم بن سعدون السويحلي »

وطبع بختمه الرسمي هذا العلم والخبر ، وصدق عليه كل من مدير زاوية المحجوب ومتصرف مصراته .

وبهذا الدحض التاريخي والمستندات الرسمية التي أخذنا عنها ، يظهر لنا جلياً البون الشاسع الزمني، بين حياة أم السعد بنت علي عبد الدايم ، وأم السعد بنت الشتيوي السويحلي ، وبين منزلة الاثنتين العائلية والاجتماعية ، فبأي حديث بعد ذلك سيرجفون ، عن الذين صان الله أعراضهم وبرر جهادهم ، وويل للذين يحبون أن يأكلوا لحم اخوانهم ميتاً ولا يكرهونه .

وبعد ما دحضنا تاريخياً وتحقيقياً الفرية القائلة ، عن صلة الاغتيال ببنت

الشتيوي ، نحب أن نجمل القول في ، أن اغتيال رمضان لبلقاسم ، كان ناجماً عن أسباب كثيرة ومنها :

١ – استفزازه إياهم أن يمنعوا مروره من سوانيهم .

٢ – مساسه بكرامتهم ليلة عربدته بسواوة .

٣ – تعريضه [١] برمضان في بعض أحاديثه ، كونه ابن عربية ذات شراريب ، إذ كانت « منى » وهي فتاة تلبس رداء نسوياً له عند خصرها ، زوائد قصيرة تتدلى منه لعند ركبتيها للحلية والزينة كعادة فتيات جيلها .

٤ – تهجمه عليه بألفاظ غير مهذبة في سوق المواطين الكبير أمام الناس.

٥ – عدم مراعاته كرامة آل الشتيوي ، في صلتهم بعميلهم (عقيبة) فاغتصب إحدى قريباته .

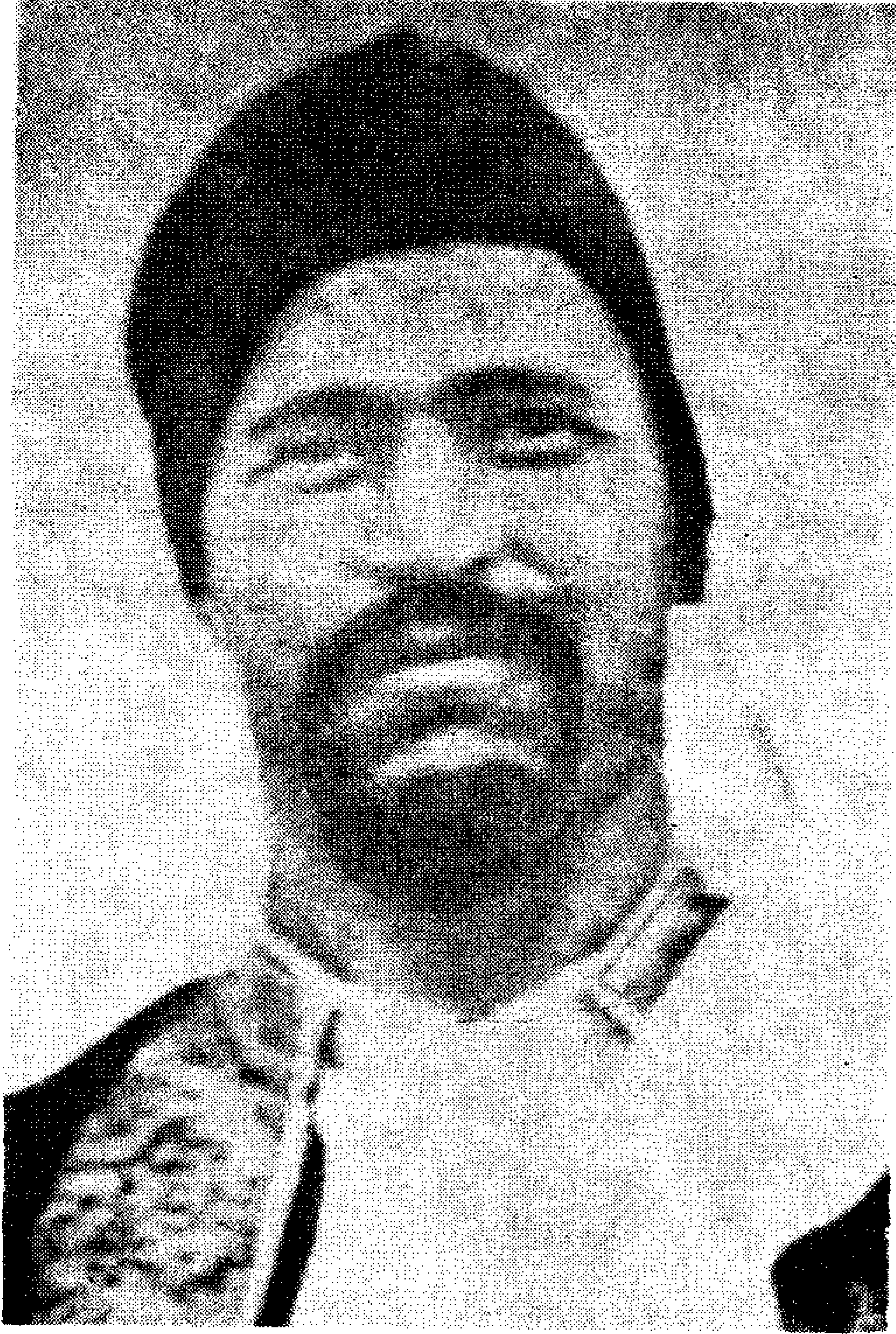
٦ – كسره حرمة واعتبار آل الشتيوي باعتدائه على خادمتهم « حواء غباين » ثم اغتصابه فيما بعد أختها العذراء ، التي طالما كانت تحمي نفسها منه باللجوء لكنف السويحلية ، ولعل هذا السبب الأخير ، كان من أهم وأقوى الدوافع ، التي حملت رمضان على قتله ، نخوة منه وغيرة على الأعراض المباحة لكل عابث ، لانحرامها ممن يذود عن شرفها وعفافها .

ورمضان في غيرته على أعراض المواطنات اللائي يجاورنه أحياء ومساكن ، كان له مثيل في هذه المروءة ، وهو الفارس البطل خليفة بن عسكر [٢] الزعيم

---

(١) رواية الوجيه الحاج علي الضراط المتقدم الذكر .

(٢) أخذاً من مقالات للأديب محمد سعيد القشاط عن ثورة خليفة بن عسكر نشرها في جريدة الثورة المحتجبة بتاريخ ٥ رمضان سنة ١٣٩٠ هـ و ٥ نوفمبر سنة ١٩٧٠ م .



صورة خليفة بن عسكر بطل وزعيم الجبل الغربي في زي الطاقية (الشاشية) الواسعة ، المناسبة للبرنس المذهب الرقبة المخلوع عليه من سلطان تركيا تقديراً لجهاده .

الأول للجهاد الوطني في الجبل الغربي ، الذي قام بثورته هناك على الطليان ، لأن الضابط الإيطالي حاكم نالوت ، أراد أن يتزوج بفتاة منها ، وهي لا تربطها بخليفة بن عسكر صلة قرابة ، ولا نية خطبتها له أو لأحد من أسرته ، وإنما هي بدافع مروءة الأبطال ، وغيرة على المسلمات ربات الحجال .

ويقول الأديب الصحفي « محمد سعيد القشاط » عن خليفة بهذا الخصوص ما يأتي بالنص : « وجاءت الفترة التي طفحت بالكأس ، وجعلت خليفة بن عسكر يعلن الثورة ، فقد طلب الحاكم العسكري الايطالي لنالوت ، من عميد بلديتها « عمر بن عسكر » وقائمقام نالوت « خليفة بغني » أن يزوجوه فتاة من نالوت ، البلدة المسلمة المحافظة ، يطالبهـــا إيطالي « كافر » بتدنيس شرفها ، يا لها من طامة كبرى ، فثار خليفة ولم يرض بهذا العار ، وشتم أخـاه عمر ابن عسكر الأكبر منه سناً ، وبسبب غيرته على أعراض المسلمين من أن يدنسها عدو كافر ، كانت في الجبل الغربي ثورته المجيدة ؛ وقد استمرت عدة سنوات ، تمكن فيها بعد معارك طاحنة مـع العدو بأراضي « الجويبية ، ووادي نالوت ، وسِنَّاوِن ، ودرِج ، ورملة ومِزْزِم وفي هذه قتل قائد الجند الإيطالي » تمكن على أثرها من احتلاله لنالوت أكبر مدن الجبل الغربي وأهمها ، ومد نفوذ حكمه على جميع ملحقاتها ، وكبد الطليان أثناء صراعه معهم أفدح الخسائر البشرية في الأرواح والأسرى ، وغنم منهم أضخم كميات الذخائر والأسلحة والمهمات العسكرية وقطع لهم الاتصال بينهم وبين فزان عن طريق غدامس .

الفصل الرابع

محاكماته وشهودها وبراءته

القبض على الشتيوي وولديه :

وكان رمضان وأحمد مدة أربعة أشهر تقريباً من اختفائهما في «شواظة» يترددان ليلاً المرة بعد المرة على منزلهما بالزاوية بصفـة سرية ، ووصل إلى شرطة مصراته خبر ذلك التردد ، وبعد مجهود للشرطة من الكمائن الليلية حول منطقة مساكنهم ، استطاعت أخيراً وهما يتسللان في الظلام إلى منزلهما ، أن تفاجئهما بغتـة ، وتحيط بهما من كل جانب ، وتأكدا أن مقاومتهما غير مجدية فسلما لها نفسيهما .

ولما تم القبض عليهما والقبض معهما على والدهمـا ، أرسل متصرف الخمس إلى مركز الولاية بتاريخ ١٦ ذو القعدة ١٣٢٧ هـ الموافق ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٩ م برقية هذا نصها : « أعرض بناء على إشعار محلي أن الشتيوي ابن مفتاح ، وولديه رمضان وأحمد ، قتلة بلقاسم المنتصر سيقوا بقيادة اليوزباشي

ابراهيم بك[1] في الساعة العاشرة من ليلة البارحة ، مخفورين من مصراته بالمفرزة الخيالة » وعندما وصلوا إلى طرابلس أودعوا انتظاراً للمحاكمة في سجن القلعة المسمى وقتئذ بالتركية « كلاه خانة » .

وضم إليهم في السجن كل من محمد بك المنتصر ، وعبد العظيم المنتصر ، إذ كان أبناء عمر المنتصر ، قد اتهموهما أيضاً بالاشتراك مع أولاد الشتيوي ، بتدبير الاغتيال لبلقاسم ، وسر هذا الاتهام لأقربائهم دماً ولحماً ، هو نشوء عداوة كبيرة وقوية لهم معهما ، لمنازعات عقارية بينهما ، ولأنهما كانا يشنعان دائماً بصراته على أخلاق بلقاسم الرذيلة ، ويحذرانه دائماً عاقبته السيئة ، إذا لم يسلك طريق الاستقامة والتزام الفضيلة .

وفي أثناء هذه الحوادث ، كان عمر بك المنتصر قد جعل لابنه الأكبر أحمد بك الوكالة الشرعية العامة عنه ، في جميع ما يتعلق بقضاياه وحقوقه وشئون أسرته ، وبينما رمضان وأخوه أحمد ، في حالة متأثرة زاد في تكدير خواطرهما أمران محزنان ، أولهما : وفاة والدهما في السجن بمرض الحمى في سنة اعتقالهما ، ودفن في مدينة طرابلس بمقبرة سيدي منيذر ، وثانيهما : ما بلغهما عن تعرض أملاكهم وأسرتهم بمصراته ، لكثير من عوامل الأذى والأضرار ، من قبل أبناء عمر المنتصر بواسطة أتباعهم ، كرد فعل انتقامي لفاجعتهم بقتل اخيهم .

يدل على هذا أن الأخوين بعثا من سجنهما للوالي برقية جاء فيها : « إن الدولة التي حبستنا تحرياً لإظهار الحقيقة ، فقد تركنا وراءنا أسرة ، تتعرض لاضطهاد المناصرة وأعدائنا ، لذلك نطلب من عدالة الدولة ، أن تعمل لحماية حقوقنا وأسرتنا مدة حبسنا » .

---

(١) اليوزباشي ابراهيم بك هو ابن حسونة باشا القره مانلي ، والمستشهد في قتال الطليان بجنزور .

وبعد مدة قليلة من حبسها ، بوشر معها التحقيق القضائي في التهمة الجنائية الموجهة إليها ، وكان أول النظر في قضيتها بمحكمة استئناف طرابلس ، وتألفت هيئتها الرسمية الأولى ، من السيد بك بلحاج رئيساً ، وعثمان بك توحيد المدعي العام ، وأعضاؤها هم توفيق أفندي ، وعلي غالب أفندي واليهودي سلمان أفندي ، وأما المستشارون فكان منهم محمد بك الفقيه حسن ، والشيخ محمد البصيري ، وكان محامي المناصرة قدري أفندي الجزائري ، ومحاميا أبناء الشتوي هما كال بك وعبدالله أفندي بنون .

ومما يؤيد تواطؤ « عقيبة القفصية » مع رمضان في اغتيال بلقاسم وإخلاصه له والوفاء بصحبته ، أنه [1] أثناء سجنه مدة عامين تقريباً ، لم يفتر عن مده بالمال اللازم للمحامين وغيرهم ، لدرجة أنه عندما كان لا يجد نقوداً متوفرة في خزانته ، يبادر فيعرض الكثير من سلعه التجارية للدلالة في سوق المواطين ، وبيعها بالأثمان البخسة ، ليُمَوِّن بها احتياجات رمضان الضرورية له ولأسرته ، الأمر الذي جعل عقيبة بمصراته وقتئذ ، ذا منزلة محترمة لدى أعيانها وشيوخ قبائلها ، تقديراً لاعترافه بجميل آل الشتيوي عليه .

ثم ابتدأت المحكمة عملها ، بأن عرضت أبناء الشتيوي ، ومحمد بن مصطفى المنتصر وعبد العظيم المنتصر ، مع طائفة من الأشخاص الآخرين ، ليتعرف على المتهمين شهود الاثبات ، الذين أتى بهم أحمد بك المنتصر قائمقام ترهونة .

وكان هؤلاء عدة أنفار ، أكثرهم من ترهونة وأزياء ألبستهم موحدة كالجند ، ولما شرعت في استجوابهم تبين لها ، أن كلامهم يوحي بتلقينهم

---

(١) رواية الحاج الشيباني أحمد السويحلي.

إيّاه ، لما كان فيه من الاتفاق غير الاعتيادي ، عن سبب حضورهم يوم حادثة القتل لعين كمام ، وعن كيفية حصول الاغتيـال ، وعن عدد الذين قاموا به .

ونظراً لكثرة هؤلاء الشهود ، واتفاقهم في إجاباتهم للمحكمة ، فإننا نقتصر على إفادة ثلاثة منهم ، كنموذج تلخيص لكلام البقية ، فإن كلاً من الشهود الثلاثة « الحاج محمد بن عون » و « محمد بن علي السائح » و « أحمد بن محمد الهمالي » اتفقوا أقوالا في حادثة الاغتيال بأنهم :

أ – شاهدوها لمناسبة مجيئهم يوم الأربعاء من ترهونة إلى زليتن بقصد التجارة ، مارين إليها من عين كمام .

ب – وأنهم تعرفوا على المتهمين محمد بن مصطفى المنتصر ، وعبد العظيم المنتصر ، إذ كانوا قد رأوهما من قبل في ترهونة ، عند قائمقامها أحمد بك المنتصر .

جـ – وأن الذين اشتركوا في الاغتيال (٨) ثمانية أشخاص ، منهم ثلاثة فرسان وخمسة مشاة .

وأما الشاهد أحمد الكميش بن علي ، وعمره خمسة وخمسون سنة ، لما قال انه يعرف المتهمين ، رد عليه رمضان قائلاً للمحكمة : إن أحمد المنتصر قائمقام ترهونة ، هو الذي لقنه الإجابة الباطلة ، وأن لديه ما يثبت كون هذا الشاهد يوم الحادث لم يكن موجوداً في البلاد بتاتاً .

ولعدم اقتناع المحكمة بالأقوال التي أدلى بها أمامها شهود الإثبات ، المليئة بالاضطراب الكلامي ، ونقصان الأدلة المقنعة بصحتها ، فضلاً عن ظهور قرائن لمحاولات التأثير على المحكمة ، بالنفوذ العائلي والسياسي من طرف المدعين ، لإصدار حكمها لصالحهم ، لذلك قررت إحالة القضية مع أطراف النزاع ، لمحكمة استئناف رودس ، لبعدها عن أي تأثيرات قبلية وحركات

جهوية تحد من نزاهة العدالة .

فأرسلوا جميعاً (المدعوون والمتهمون ومن له صلة بأحد الطرفين) إلى رودس بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٩١١ م بواسطة والي طرابلس ، ورد عليه والي جزيرة رودس بتاريخ ٦ يونيه سنة ١٩١١م أنهم قد وصلوا إليها ، وتولت شرطتها سجنهم وحراستهم . وبعدما استمعت محكمة رودس لأقوال شهود الإثبات ، ودفاع محامي المتخاصمين ، ودرست القضية بإمعان ودقة من جميع الوجوه ، أصدرت حكمها ببراءة كل من رمضان وأحمد ومحمد ابن مصطفى المنتصر وعبد العظيم المنتصر ، من تهمة اغتيالهم لأبي القاسم ، نظراً لعدم كفاية الأدلة ، التي قدمها المدعون ضد خصومهم .

وقيل[1] أن هذه البراءة المطلقة ، بالنسبة لرمضان وأحمد ، تداخلت فيها عوامل سياسية ، بوساطة بهجت بك قائمقام مصراته سابقاً ، الذي كان أثناء اشغاله منصبه فيها يعمل بارادة صلبة ، للحد من نفوذ عمر بك المنتصر وأولاده في البلاد ، فما زال هؤلاء يسعون لدى المساندين إياهم بالمال ، في ولاية طرابلس واستانبول حتى عزل بهجت ، ولما رجع لتركيا فضح صلتهم الخفية بإيطاليا ، وإنهم كانوا في مصراته المعطلة لكل اتجاه حكومي للاصلاح والعدالة يرونه في غير مصلحتهم .

هذا ولقد كان رمضان فارط الذكاء ، باختياره ملاقاة خصمه في الصباح المبكر بعين كعام ، إذ في هذا الوقت طريقها منقطع من السابلة غالباً ، ولا يتوفر منهم شهود إثبات نزهاء لابن المنتصر ، تأخذ المحكمة بأقوالهم غير مشكوك بعدم صحتها ، ولا صلة لهؤلاء بأرباب الدعوى بتاتاً .

---

(١) عن رواية المجاهد فرج بن محمد الجزيو الزريقي المتقدم ذكره ووصفه .

وكانت براءة رمضان وأخيه من محاكمة رودس ، قبل مجيء ايطاليا بنحو شهرين ، ومن طرابلس مضى الأخوان مسرعين إلى مصراته ، ودخلها رمضان طافح البشر والاغتباط رافع الرأس طلق المحيا ، واستقبلا فيها من أسرتها وأحبابها ، بالحفاوة البالغة وأقصى معالم الأفراح والسرور ، ووفدت الناس أعياناً وأفراداً على منزل رمضان ، مظهرين له ابتهاجهم العظيم ، بما منّ الله عليه بالنجاة من السجن الرهيب جزاء غضبته لأعراض المسلمات .

وكان[1] ممن جاء يقدم له خالص التهنئة ، بالتبرئة الميمونة ، ولرؤيته بين أصدقائه والمعجبين بشهامته النادرة ، هو الوجيه الكبير السيد « علي الماني » ، أحد أعيان الكوافي وهي القبيلة التي ينتمي إليها مناصرة مصراته عموماً ، وأهداه عند تهنئته سجادة فاخرة للذكرى وليقوم بالصلاة عليها ، وبندقية إشارة إلى فروسيته ، وعلي الماني عدا ذلك كان يشغل في متصرفية الخمس ، رئاسة الريجي وهي مؤسسة حكومية للتبغ ، وكان أيضاً في الوقت نفسه عضواً بمجلس الإدارة لقائمقامية مصراته .

وبهذا القدوم المبرأ واستقبالاته الحافلة ، ارتفع به قدر رمضان لدى مواطنيه إلى مصاف عظماء الرجال ، الغيورين على كرامة شعبهم ونقاء سمعته ، وإقدام رمضان في رائعة النهار على الفتك بابن أقوى شخصية نافذة الكلمة والجاه بمصراته ، اعتبرته مصراته فارسها الأوحد وبطلها الأشجع ، بل كانت حادثة عين كعام وأوبته بعدها ، بهذه الخطوة الاجتماعية الباهرة ، كأنما جاءتها له بمثابة التوطئة لزعامته الشعبية المطلقة كما سيأتي .

غير أن براءته نزلت كالصاعقة المحرقة ، على قلوب عمر المنتصر وأبنائه ،

---

(١) الشيباني احمد السويحلي .

إذ حسبوها انتقاصاً كبيراً لشأنهم وهيبتهم ، ثم أن أحمد المنتصر بعد أن فشل رغم ما بذله من مال وجهود سراً وعلناً ، لإدانة رمضان على الأقل ولو بحكم غير شديد ، لم يحتمل العودة إلى طرابلس خائباً فرداً ، لاعتبار ونفوذ أسرته ذهب فوراً من رودس إلى روما ، إذ كان هو ووالده في آخر الحكم التركي ، منضمين سراً في طرابلس ، لعملاء إيطاليا المحبذين استعمارها لليبيا ، وكانوا جميعاً على صلة بهذا الخصوص مع قنصلها العام بطرابلس ، ويمدهم بنك روما بالأموال الطائلة تحقيقاً لسياسة دولته في البلاد . وفي روما تفاهم أحمد المنتصر مع إيطاليا ، عن كيفية احتلالها لمصراته ، عند مباشرة غزوها لليبيا ، والدليل على هذا ، أنها حين أخذت مصراته لأول مرة في (٨ يوليو سنة ١٩١١ م) جعلت أخاه سالم بك المنتصر أول قائمقام عليها[١] .

(١) نحب أن نشير إثباتاً للحقائق ، أن مسألة اغتيال بلقاسم ومحاكمات رمضان ، وتأييد عمر المنتصر وأولاده للحكم الايطالي أوردت هذا اخيراً حتى جريدة الثورة (الفجر الجديد) في عدد (٥٧٢) وتاريخ (٦ يوليو سنة ١٩٧٤م) لمناسبة الندوة التاريخية التي عقدتها رسمياً (المؤسسة العامة للصحافة) يوم ذكرى معركة القرضابية .

الفصل الخامس

التعريف بإيطاليا لمناسبة غزوها

وتنويراً لذهن القارىء عن ايطاليا . التي غزت ليبيا ، رأينا من المناسب قبل الدخول في حوادثها الحربية مع الليبيين ، أن نعرفه بتاريخها الحديث ، وبالخطط والأسباب الدولية والسياسية ، التي اتخذتها فاحتلت بها ليبيا .

فإيطاليا عبارة عن الشعب الذي يسكن شبه الجزيرة المعروفة باسمه ، وهو أصلاً من ذرية الرومان ، وبعد أن اضمحل في آخر القرون الوسطى ، الرومان البيزنطيون سنة ١٤٥٣ م على يد السلطان العثماني محمد الفاتح ، تكاثرت على ايطاليا غزوات الدول الأوروبية القوية ، فأخذت النمسا من بلادها طرفاً من الشمال ، واستولت فرنسا على بعض من أراضيها الغربية ، وسيطر البابوات على روما والمناطق المجاورة لها ، وانشأوا فيها حكومات خاضعة لنفوذهم الديني ، وتكونت في جينوا والبندقية ونابلي وصقلية وسردينيا دويلات جمهورية صغيرة .

ولكن ايطاليا استطاعت أخيراً بزعمائها الوطنيين ، امثال كافور وميزني وغاربلدي وأسرة عمانويل ، استطاعت بهؤلاء أن تتغلب على جميع مشاكلها السياسية والاجتماعية ، وأن تتحد إرادة أبنائها على التخلص ، من الدول التي تحتل أجزاءها، وظفرت بعد نضالها بالاستقلال التام ، ثم اجتهدت في ميادين الحضارة الحديثة حتى توصلت إلى مجاراة الشعوب الأوروبية الراقية ، في ميادين الصناعة الآلية والعلوم والفنون العصرية ، وساهم أبناؤها في رقي الإنسانية مساهمة لفتت إليهم انظار العالم ، من ذلك مثلاً أنـــه ظهر فيهم العالم الفلكي الجغرافي العظيم (غاليلو) ، وظهر منهم (المخترع الشهير (ماركوني) مخترع جهاز الراديو .

غير أن تلك العصور التي خضعت فيها إيطاليا للنفوذ الأجنبي أخرتها عن التوسع الاستعماري ، اسوة بالدول الكبيرة في غرب أوروبا ، فلمـا ازدحمت بلادها بالسكان ، وأتمت أسباب نهضتهـا على الوصف المذكور ، حاولت هي أيضاً أن تأخذ من الشرق المغزو ، جهة في احدى قارتيـه آسيا أو افريقيا ، فوجدت أبناء جنسها الأوروبي ، الذين سبقوهـا في النهوض والاستكشافات الجغرافية ، قد تقاسموا استعمارياً أخصب أراضي القارتين بقاعاً ، ولم يبق فيها موضع للاستغلال الاقتصادي ، سوى البلدان التابعة شرقاً لتركيا ، وهي لا تتجرأ عليها لكثرة شعوبها وتقدمها نوعاً وقوة تركيا العسكرية فيها . وارضاء لغرورها الاستعماري استولت في الجنوب الشرقي من افريقيا على بلاد قاحلة ، هي الصومال الكائن على شاطىء المحيط الهندي ، وأخذت بعده أرتيريا الممتدة على ساحل البحر الأحمر ، ومع كل هذا فالقطران كلاهما ليس فيهما ، أنهار عظيمة ولا غابات خضر ولا فضة ولا تبر ، ووجدت أن نفقات استعمارهما دائماً أزيد كثيراً من منافعهما .

ولما شعرت الدول الاستعمارية الكبرى ، أنها حقاً لم تترك لايطاليا

الناهضة نصيباً من أرض القارتين «آسيا وأفريقيا» ذا قيمة ، استرضت استياءها وغضبها ، بالتنازل لها عن اخذ ليبيا ، ففي سنة ١٩٠٨ م تفاهمت سراً مع فرنسا وبعلم بريطانيا ، فسمحت ايطاليا لفرنسا أن تمد نفوذها بعد تونس على المغرب الاقصى «مراكش» ، وفي مقابل هذا السماح ، سمحت فرنسا أيضاً لإيطاليا أن تحتل ليبيا من الرجل المريض ، وكان الأوربيون يعنون بهذا تركيا لضعف قوتها وتأخر حياتها .

واعتباراً من التاريخ المذكور أخذت تسعى إلى تحقيق غايتها بشتى الخطط الاستعمارية من ذلك :

أولا – إنها قبل مجيئها إلى ليبيا تقربت لأهاليها ففتحت فيها لهم «بنك روما» وابتدأ يقرض الأموال للفلاحين بسخاء ، ويشتري منهم الأرض .

ثانيا – جعلت سراً مرتبات شهرية لفريق من الوجهاء الضالعين معها لكي يروجوا في البلاد الدعاية الحسنة لاختيار حكمها بدلاً من الدولة العثمانية .

ثالثا – فتحت في طرابلس وبنغازي مدارس لتعليم اللغة الإيطاليـــة ونشرها بليبيا .

رابعا – أكثرت من نزوح أبنائها إلى ليبيا ، وتشجيعهم سياسياً ومـــالياً على القيام فيها بأعمال اقتصادية حيوية .

خامسا – وكانت كلما عينت تركيا والياً على ليبيا من القادة العسكريين العظام المعروفين بالجدارة الحربية لتحصين البلاد وإعداد الشعب للدفاع عن وطنه وتقويته بأنواع الأسلحة الحديثة كابراهيم أدهم باشا ، وهو آخر الولاة ، تسعى بواسطة الخونة من عملائها في استانبول لنقله ، وهكذا نقل أيضاً أدهم باشا قبل احتلالها بمدة وجيزة .

ومن الدوافع الحربية والسياسية التي شجعتها على أخذ ليبيا :

أولا – تكاثر سكانها واحتياجها إلى أرض يهاجرون إليها ، ليستخدموا فيها نشاطهم العلمي والاقتصادي .

ثانيا – كبر مساحة ليبيا وقربها بحراً إلى بلادها شبه جزيرة ايطاليا .

ثالثا – ضعف الدولة العثمانية الحربي والبحري ، وعجزها عن صد الغزو الايطالي عسكرياً للسببين المذكورين .

رابعا – اطمئنانها إلى تأييد الدول الأوربية الكبرى لها في هذا الموضوع ولا سيما منها فرنسا وانجلترا أي بريطانيا .

الفصل السادس

قيادته لمحلة مصراته بمعركة الهاني

وفي (٥) خمسة اكتوبر سنة ١٩١١ ، نفذت ايطاليا غزوهـا لليبيا بقوات بحرية وبرية هائلة ، قدرت بنحو مائة (١٠٠) ألف جندي ، وعلى أثر ذلـك دوت في قبائل مصراته بعد براءة رمضان طبول الحرب والجهـاد ، كما دوت أمثالها في جميع أنحاء طرابلس وفزان ، معلنة الاسراع للكفاح الباسل ، ضد عدو البلاد والإسلام ، الذي نزلت جحافله بمدينة طرابلس ، وذوداً له عن حمى الأعراض والوطن .

وجاءت خفافاً لملاقاته بالحماس الملتهب ، عشرات الألوف من المتطوعـين ، جاءوا إليه من مرزق وغات جنوباً ، إلى جبل نفوسه وزوارة شمالاً ، وكانوا فرساناً ومشاة ، وعتادهم أنواع شتى من البنادق والأسلحة البيضاء ، من السيوف والخناجر والفؤوس ، ومدفعان أو ثلاث من طراز قديم يديرها بعض الأتراك ، إذ أن الخائن لدينه وأمته ، رئيس الوزارة التركية (حقي باشا) ، كان وهو

سفير لتركيا في روما ، متواطئاً مع ايطاليا باستعمارها لليبيا ، فسحب فيها من أمامها الجيش التركي الكبير ، وأجهزته ومعداته الحربية ، وبعث به لمحاربة الثورة اليمنية ، ويقول شكيب أرسلان في كتاب « حاضر العالم الإسلامي » ، انه عندما غزت ايطاليا ليبيا ، لم يكن فيها من القوات التركية ، سوى ثلاثة آلاف جندي متوزعين بين فزان وطرابلس وبرقة .

أصدق وطنية لرمضان :

وكان من بين أولئك القادمين للجهاد ، مئات من متطوعي مصراتـه وفيهم الفارس رمضان السويحلي ، رئيساً على محلة « يعني جماعة » الزاوية المحجوبية ، وبهذا التطوع الفوري منه ، وبعد مضي ثلاثـة أشهر فقط عن خروجه من السجن ، تتضح لنا غيرته الصادقة على دينه ووطنه وكرامة أمته ، فإنه يوم دخل منازل أسرته عقب براءته ، وجدها بسبب مكائد أعدائهم وفقدانها أثناء غيبتهم ، من يقوم بشئونها ورعاية مصالحها ، قد تأخرت حاصلاتهـا الفلاحية ، ونفق الكثير من مواشيها ، ولم تتوفر لأفرادها المؤنة كسابق عهدهم بها ، ولولا شجاعة « منى » في إدارة أمور العائلة ، بعد وفاة الشتيوي وسجن أبنائهـا ، لكان حالها ادعى أسفاً . ومع كل هذا فقد رأى رمضان ، أن مناداة الوطن لرجاله الأحرار ، المبـادرة ليصدوا عنه عدوه الغاشم ، أولى وأحق من أي اعتبارات وعواطف عائلية ، مهما تكن محتاجة إلى إعالته إياها وأمورها السيئة تفرض عليه معالجتها قبل الاهتمام بغيرها ، ولكنه ترك وراءه كل شيء من أمور الأسرة الضرورية ، واندمج فوراً مع اخوانه المتطوعين للحرب من أبناء مصراته .

ولما وصلوا إلى طرابلس جعلوا رئيساً عاماً لمحلاتهم ، المجاهد الباسل « أحمد المنقوش » وإذا رمضان لوحدة الصف واحترام إرادة الجماعة ، يتدرج تحت رآسته أيضاً ، عن رضى وسرور وإطاعة ، أسوة بسيدنا خالد بن الوليد بعد عزله « في اليرموك » عن القيادة العامة ، ارتضى أن يكون جندياً تحت إمرة



هـــذه صورة المشير ابراهيم أدهم باشا آخر الولاة الأتراك العظام على ليبيا ، وكان مهتماً بتقوية البلاد حربيـاً ، ومن ألد أعداء ايطاليا ، فعملت سياسياً وتآمرياً على عزله .

أبي عبيدة عامر بن الجراح ، لأن خالد كان يحارب لله لا للتفـاخر بالمنصب القيادي الكبير .

معركة الهاني الخالدة :

وفي يوم ٢٣ اكتوبر سنة ١٩١١ م ، جرت حول مدينة طرابلس في ضاحية الهاني أولى الملاحم الكبرى الفاصلة ، بـين فرق الجيش الإيطالي الزاحفة على خطوط المجاهدين ، وانحاز المصراتيون أثناءها في قتال العدو ، إلى جهة شارع الشط المطل « إلى الشرق من ضريح سيدي الشعاب » على البحر الراسية فيه بواخر الأسطول ، وعلى الميناء المليء بسفن الجند والمهمات الحربية .

تركزها بشارع الشط :

والظاهر أن القيادة الإيطالية ، خافت أن يكون بيـد متطوعي مصراته مدافع يقذفون بها البوارج والسفن ، فيسببون لها بذلك كارثة حربية فظيعة ، واحتياطاً لعدم تمكينهم ممـا توهمته ، ركزت هجومها الرئيسي نحو شارع الشط ، قاصدة زحزحة المصراتيين عن مواقعهم تلك أو إبادتهم ، عندئذ دارت بين الطرفين معركة دموية هائلة ، سقط بأولها شهيداً رئيس مجاهديهم البطـل أحمد المنقوش ، وقبل أن تصدر روحه الطاهرة إلى خالقها ، سئل من تقترح أن نضع على محلات مصراته مكانك ، فأجاب بلا إبطاء ضعوا (رمضان الشتيوي) وكأنّ هذا التعيين من قبل سلفه المجاهـد الأمثل ، ثم رضاء اخوانه جميعاً به ، جاء كأنه إجازة قدرية له ، ليغدو فيما يلي من الأيام ، زعيماً وقائـداً عظيماً للشطر الغربي والجنوب من ليبيا .

قيادة رمضان لأخوانه :

وأخذ ابن الشتيوي مكان أخيه في الله الشهيد « أحمد المنقوش » وبايع هو

ورفاقه الأشاوس أنفسهم على الموت في سبيل الله على الاستشهـاد أو النصر ، وإذا هم يظهرون لعدوهم المتكاثف عليهم ، براعتهم في إصابات واتقان الرماية لجنده ، وخفة حركاتهم في الاقدام والاحجام ، مراوغة وتحايـل لإرباكه في القتال ، ما أدهشه وأرعبته خسائره منهم ، ولم تخطر له بسالتهم الفدائية هذه على بال .

وفيما كانت المعركة متأججة نيرانها أرضاً وسماء وبينما كان رمضان يشجع ويوجه رفاقه للأهداف ، أصيب بجرح عميق في فخذه سلم منه العظم ، فتحايل على نفسه وضمده بما تيسر من وصفات وأقمشة نظيفة ، واستمر على قيادته الجهادية لاخوانه .

وصول النجدات لهم :

وجاء نبأ تصميم العدو في شارع الشط على سحق فدائي مصراتـه ، إلى جموع المجاهدين في الهاني والنوفلية ، الذين كانوا أيضاً متلاحمين ، مع فرقـه الزاحفة بالأسلحة النارية والبيضاء ، فخفّ قسم عظيم منهم لنجدة زملائهم في شارع الشط ، مندفعين على الجند الإيطالي ، اندفاع السيل العرم ، ومنقضين عليه انقضاض النسور على فريستها الغافلة ، وساعتئذ تفاقم النزال والقتال ، واختلط هذا الاشتباك الأهوج بمعركة الهاني الرئيسية ، فدار بـين الطرفين صراع هائل ، أزهق الأرواح وعمق الجراح ، وتفجرت دمـاؤه فوق الثرى كأفواه القرب .

وتطورت معركة الهاني لصالح العرب ، ولما شعرت قيـادة الجنرال (كانيفا) ، ما نكبت به جيوشها في شارع الشط والهاني ، من الخسائر الفادحة في الجند والمعدات ، ضربت لفرقها الذاهلة المذعورة أبواق الانسحاب الفوري نحو المدينة ، فتقهقرت إليها متزاحمة من غير نظام .

ولاحت بذلك للمجاهدين بوادر النصر ، فقويت عزائمهم واشتد ساعدهم في النضال ، ولاحقوا جيش العدو المنهزم بالحرب العنيف والالتفـاف به من كل جانب وخاصة من ميمنته وميسرته ، وما زالوا يتقدمون بألوية الظفر اللائح ، ودنو الفوز المبين ، حتى انهارت مقاوماته تماماً ، واقتحموا عليه آخر خط لدفـاعه .

الهلع والاضطراب بالمدينة :

وهنا نترك قليلاً الصحفي الانجليزي المؤرخ ، (فرنسيس ماكولاج) [1] يصف لنا تأثيرات الهلع والاضطراب اللذين انتابا سكان المدينـة يوم معركة الهاني وذلك في كتابه (حرب الصحراء أو الغزو الإيطالي الاستعماري لليبيا) ، إذ رأى حالاتها عياناً قائلاً عنها بالنص :

« ومنذ اقترب المجاهدون البواسل إلى المدينة ، وانتشار انتصارهم وهزائم الجيش الإيطالي أمامهم ، اضطرب السكان داخلها واكتظت شوارعها بالجموع التي أصابها الذعر ، من الإيطاليين والعرب والأرمن واليهود ، وكان اليهود الذين عرفوا بولائهم للايطاليين أكثر الناس رعباً ، عندما تطرق إلى أذهانهم أن الترك سيعودون وظن عدد من النسوة اليهوديات ، انني ايطالي فرموا بأنفسهن على أقدامي طالبات أن أحميهن . وكان في الإمكان منع هذا الاضطراب وتلك الفوضى لو أن رئيس أركان الجيش ، اهتم بحراسة المدينة عندما دخلها ، فقد وضع جميع رجال حاميته على خطوط النار ، ولم يبق لديه أي احتياطي داخل المدينة ، وقد كنت أسير ساعات في شوارع طرابلس دون أن أرى جندياً ايطالياً .. وفي أثناء معظم ساعات نهار الثالث والعشرين من اكتوبر (١٩١١م)

---

(١) هذا الوصف لفرنسيس ماكولاج نشرته له صحيفة الفجر الجديد بتاريخ ٢٩ ابريل سنة ١٩٧٣ وذلك من سلسلة مقالاتها المترجمة لكتابه المذكور .

كان من الممكن أن يكون للرعب الذي انتشر في المدينة ، أخطر النتائج لو أن الجنود الإيطاليين ، في الجهة اليسرى من خط القتال ، ظنوا أن المدينة خلفهم قد ثارت وأصبحت في قبضة الأعداء ، وليس من الحكمة أن نفرض ما كان سيحدث لو حصل ذلك ليـلاً واقترن هذا بهجوم يائس متهور ، يقوم به (الوطنيون خارج المدينة) .

النيران توقف احتلالها :

وفي اللحظات التي كادت أفواج الأبطال المجاهدين تتسرب إلى داخـــل المدينة ، فوجئوا بمدافع الأسطول والأبراج والاستحكامات ، تنهال نيرانها المحرقة فوق رءوسهم بلا انقطاع ، وتتناثر شظايا قذائفها كلهيب الجحيم ، حماية للمدينة من أن تقع في قبضة العرب الفائزين ، ولو تمكنوا من هـــذا لفقدت ايطاليا في يوم واحد ، ما دبرته وأنفقته في سنين طوال لاستعمار ليبيا ، عندئذ ارتدوا عن المدينة ، بعدما كان بينهم وبينها قاب قوسين أو أدنى ، إذ يستحيل استيلاؤهم عليهـــا ، بهذه الكيفية الجهنمية التي غمرتهم شظاياها بنطاق لا يخترق ، ورحم الله حافظ ابراهيم القائل :

لا تلم كفي إذا السيف نبا   صح مني العزم والدهر أبا

وكان من نتائج الظفر الخالد لمعركة الهاني :

أولاً ــ تقوية إيمـان المجاهدين بأنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .

ثانياً ــ انهيار معنويات الجيش الايطالي وتحطيم غروره باستطاعته قهر العرب .

ثالثاً ــ ثبت له أن الذين يناضلون حقاً هم أبناء الشعب الطرابلسي الأبي وحدهم ، لا الأتراك كما كان يشيع عدوهم ذلك انتقاصاً لشجاعتهم

البطولية وتضحياتهم في قتاله .

رابعاً – وثّق صلة الأخوة الوطنية وتوحيد الهدف والكلمة بين جميع أفراد وزعماء البلاد (والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) .

ولقد استشهد في معركتي شارع الشط والهاني من متطوعي مصراته خاصة ومن غيرهم بصفة عامة ، أعداد كبيرة من الأنفس الطاهرة ، وتعتبران أولى معارك الغزو الايطالي الخالدة بتضحياتها ومظاهرها بالنسبة للشعب الطرابلسي ، على الرغم من الفارق القياسي العظيم بين الطرفين في العَدد والعُدد .

الفصل السابع

كفاحه لنزول العدو بمصراته

وبعد الهاني لما اشتد على رمضان آلام جرحه ترك اخوانه في طرابلس مع باقي الأفواج المتطوعة ، ورجع هو لمصراته لاتمام المعالجة لاصابته .

وكان الطليان قد لاحظوا أهمية مصراته ، للمجاهدين المرابطين قرب مدينة طرابلس ، بالنسبة لأثرها في الامدادات الكبيرة لهم من الجهات الشرقية والجنوبية ، لذلك قرروا العمل لاحتلالها ، وتحقيقاً لفكرتهم هذه أعدوا لها سراً حملة بحرية قوية ، وفي يوم ١٦ يونيه سنة ١٩١٢ م غافلوا حراس شطوطها ونزلوا بميناء قصر حمد ، عند ضريح سيدي بوشعيفة وانتشر خبرهم في قبائل مصراته كوميض البرق .

فبادر الموجودون من رجالها ، ومن بينهم رمضان السويحلي ، والشيخ محمد التريكي الشحومي[1] إلى لقائهم وباشروا بسرعة مجابهتهم وقتالهم

---

(١) وكان الشيخ التريكي من كبار المجاهدين في سبيل الله والوطن حضر أهم المعارك النضالية في عهد كل من رمضان وسعدون وابراهيم ، وقد نشرت مجلة الوحدة=

بمنتهى الشجاعة والحماس ، لا سيما وان حضور رمضان معهم ، قوى معنويات المدافعين وزادهم اقداماً ، وبذلك افشلوا خطة العدو المبيّتة من قبل، لاحتلال المواطين بالتاريخ المذكور .

ولما سمع بنزوله أبناء مصراته المقيمون حول طرابلس ، اضطروا للعودة إلى بلدتهم ، ليشتركوا هم ومواطنوهم في كفاحه والذود مثلهم عن الأعراض والكرامة ، ولم يلبثوا أن انضموا اليهم في جبهة قصر أحمد ، وبمجيئهم من طرابلس توصل الطليان إلى هدفه السياسي بهذا النزول ، وهو تخفيف الضغط الجهادي عنه بضواحي طرابلس .

غير أن المقاومات العنيفة التي جابهته ضحوة (يوم ١٦ يونيه) واستمرارها في وجهه بنفس الشدة في الأيام التالية ، جعلته محاصراً بميناء قصر حمـــد مدة شهر تقريباً ، إلى أن وصلته بحراً قوات ضخمة تفوق بكثير قدرة مصراته الاحتمالية لصدها عن الزحف غرباً ، فاستطاع بها يوم ٨ يوليــو سنة ١٩١٢ م أن يحتل (المواطين) ، وقبل دخوله إليها كان السكان والحكومة المحلية ، وأهالي القرى المجاورة لها قد تنازحوا إلى جهات الغيران والزاويــة وبئر فلاجة .

معركة الرميلة الفاصلة :

واستفزت الطليان نشوة انتصارهم (يوم ٨ يوليو) واستضعفوا شأن العرب ، فحسبوا أن الفرصة قد سنحت لهم لاتمام السيطرة على جميـــع

=العربية الطرابلسية بتاريخ أول يوليو سنة ١٩٧٤ نبذة من حياته البطولية وتضحياته بقلم حفيده محمد عبد السلام التريكي .

أراضي مصراته ، ففي يوم ٢٠ يوليو سنة ١٩١٢ م خرجوا بجيش كبير من أبنائهم البيض ومن مرتزقة الاحباش النصارى ، يريدون أخذ الغيران ومراكز المجاهدين فيها ، ولما وصلت قواتهم إلى حمادة الصوالح وأرض الرميله ، وتبعدان عن غرب المواطين حوالي (٥) خمسة كيلومترات ، فوجئوا بكفاح ضار من المجاهدين الذين كانوا ينتظرون لقاءهم ، ليأخذوا منهم ثأر يوم ٨ يوليو ، وكان أيضاً من جملة هؤلاء الأبطال الفدائيين رمضان السويحلي .

ودارت معركة الرميلة الرهيبة في القيظ الكاوي بصهره للأبدان ، وكانت على المتصارعين فيها كوهج الأفران المشتعلة بالنار الحامية . ونظراً لإصابة الكثير من الجند الإيطالي بضربة الشمس ، لعدم تعودهم على هذا الجو القائظ ، وداهمهم العرب بغتة بالهجوم ، فقد تساقط منهم الكثير من القتلى والجرحى ، كما استشهد وجرح أيضاً عشرات من المجاهدين ، وفي أثناء المعركة أصيب رمضان بجرح آخر في بطنه .

ووجد الطليان أن خسائرهم كانت جسيمة ، وأيقنوا استحالة صمودهم أمام ضراوة العرب في الكفاح ، فلاذوا بالفرار والتقهقر نحو (المواطين) وعلى الرغم من حرصهم على نقل جثث قتلاهم ولا سيما من البيض ، لكي لا ترتفع برؤيتها معنويات المجاهدين ، فإنه مع ذلك لسرعة انسحابهم ، قد تركوا قسماً عظيماً منها ، وخاصة من جثث المرتزقة الأحباش ، التي كانت تغطي حمادة الصوالح ، وطرابيشهم الطويلة الحمراء منتشرة هنا وهناك .

الفصل الثامن

صلح أوشي ونتائجه ومعركة جندوبة

وبعد معركة الرميلة في ١٨ اكتوبر سنة ١٩١٢ م عقدت بين تركيا وإيطاليا معاهدة أوشي ، وبموجبها صالحت الدولة التركية إيطاليا لسببين **أولهما** : لعجزها الحربي عن التغلب على إيطاليا في ليبيا ، **وثانيهما** : لقيام الشعوب البلقانية المحكومة لها في أوربا ، بثورة ضدها مطالبة باستقلالها عنها ، حتى كادت في ثورتها عليها ، أن تأخذ منها عاصمتها استانبول ، وعند اقرار الصلح انسحبت تركيا من البلاد هي وجنودها بقيادة نشأت بك ، زاعمة تضليلاً لأهاليها ، أنها راعت في المعاهدة آمالهم القومية ، فاشترطت على إيطاليا أن تمنحهم الاستقلال الداخلي .

وقبل أن يغادر العقيد نشأت بك طرابلس ، كان قد ترك لأعيان وشيوخ المجاهدين في شمال البلاد ، جميع ما كان تحت تصرفه من الذخائر والأسلحة والأموال والمهمات ، وبسفره لتركيا انشطر الأعيان إلى قسمين من الوجهة السياسية فريق كان يرى أن يسالم الناس لعدم مقدرتهم الاستعدادية لاستمرار القتال ،

وفريق كان يحبذ الاستمرار على القتال حتى الاستشهاد ، وانتصر أصحاب الرأي الأخير ، فانضم إليهم باقي إخوانهم ، وتغلب العدو عليهم بعد الهاني ، فاستولى على كل من مناطق العزيزية وابن غشير وجنزور ، واحتل صلحاً مدينة غريان ، وارتد المجاهدون من أمامه إلى(يفرن) ، ثم عقدوا فيها اجتماعا حربياً كبيراً ، وبمقتضى قراراته اتخذوا لهم خط دفاع جديداً من الرابطة الشرقية ،إلى جندوبة بأرض الأصابة غرب مدينة غريان وابتدأوا يشنون غاراتهم ليلاً ونهـــاراً على القوات الإيطالية ، حول المدن الساحلية وما جاورها ، مكبدين العدو الخسائر الفادحة في الأرواح والأموال والعتاد الحربي ، واكتساب الغنائم الوافرة منه ، وقد استمروا على هذه الحال نحو خمسة أشهر .

فارتبكت بهجوماتهم أوضاع الجيوش الايطاليـــة المواجهة للخطوط الأمامية ، وتأكد قادتهم أنه إذا لم يتخلصوا من تلك المغامرات العنيفـــة فستزداد عليهم ضراوة واستعداداً ، وربمـــا ردوهم إلى أسوار المدينة كيوم الهاني ، وبناء على هذا التقدير ، صمموا القضاء على غارات المجاهدين ، بكل ما لديهم من الأجهزة الحربية وبقوات عسكرية من البيض والمرتزقة ، بلغ عددها أربعين (٤٠) ألف جندي .

معركة جندوبة المثلى بتضحياتها :

وفي أرض الأصابة أو جندوبة جرت بين الطرفين (يوم ٢٣ مارس سنة ١٩١٣ م) أعظم معركة فدائية حاسمة ، في الفترة الأولى من الغزو الايطالي ، كانت كالمرآة الصافية ، لمن يريد التعرف على حقيقة البطولات الليبية في ساحات الوغى ، وصمودهم أمام جحافل الغزاة حتى الموت .

معركة شرسة الطعان والنيران ، كانت حاسمة بفوز العدو فيها ، إذ طالمـا تغلبت الكثرة على الشجاعة ، والمسلحون على العزل من مقومـــات النضال ،

وكانت الدلالة الصادقة على مدى تفاني الإنسان الحر الأبي ، في سبيل العزة والكرامة ، وحماية وطنه من الإذلال واعراضه من الامتهان ، وإن من لم يقرأ في التاريخ قديمه وحديثه ، أن ثلاثمائة (٣٠٠) مجاهد ، قيدوا أرجلهم وثبتوا في مواقعهم أمام العدو الكثيف حتى استشهدوا جميعاً فليقرأ الآن هذا في معركة جندوبة الخالدة ، كما حضرها ووصفها[1] أحد الضباط المجاهدين فيها وإليك ما قاله عنها نصاً :

« ففي فجر ذلك اليوم وعند الساعة الثالثة صباحاً بالضبط ، بدأت مدفعية العدو تصلي مواقعنا بنيران شديدة متواصلة على طول الجبهة ، من العجيلات والعزيزية وأبي غيلان وغريان . وقبل شروق الشمس بقليل شرعت القوات الإيطالية في هجوم عنيف على خطوطنا ، وكانت قواتنا على استعداد تام للدفاع ، عن المواقع التي أعدت لصد الهجوم ومرتبة على الوجه الآتي :

الشيخ أحمد السني ، والشيخ خليفة بن عسكر ، والشيخ أحمد البدوي ، على رأس ألفي (٢٠٠٠) مسلح يرابطون في هنشير أبي زيد .

والشيخ سليمان بن ساسي ، والشيخ محمد الوحيشي ، والشيخ عريبي قرادة ، والشيخ محمد بيري ، وصالح الخضراوي ،والشيخ محمد بن سعيد ، وتقدر القوات التي تحت قيادتهم بـ (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف مقاتل ، يرابطون في الحوض .

وكان سيدي محمد بن عامر القرحي ، والشيخ محمد بن الحاج حسن المشاي ،

---

(١) هذا الوصف الدقيق للمعركة ، من الضابط المذكور وهو (خليفة خالد الغيرماني) ، كان قد رواه أصلا لزميلنا المؤرخ الطرابلسي (الحاج محمد الأسطى) المتقدم ذكره في أول الكتاب ، ثم إنه لمناسبة إحياء ثورة الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩ ، لذكرى معركة جندوبة الخالدة ، أو معركة الأصابعة ، نشر الحاج محمد الأسطى لمناسبة ذكراها ، النص المروي له عنها في جريدة البلاغ الطرابلسية الصادرة يوم ١٦ ابريل سنة ١٩٧٣ ، ونقلناه هنا حرفياً لأهميته الوطنية والتاريخية .

والشيخ محمد الوفاتي ، وتقدر قواتهم بألفي (٢٠٠٠) مسلح ، قد اتخذوا أماكنهم قبر زائد وبئر مداكم .

وهناك قوة احتياطية أخرى لا تتعدى الألف (١٠٠٠) تحت قيادة الشيخ أحمد الشرع .

وأما الفرسان فكانت مركبة من (٢٥٠) فارساً تحت قيادة الشيخ محمد ابن عمر البوسيفي ، وكلهم من صناديد القوم وممن لهم دراية وخبرة في الحروب الماضية ، وممن أبلوا البلاء الحسن ، وشهدوا الحروب في أكثر من موقع منذ الأيام الأولى من الاحتلال الايطالي .

وأما الرابطة الشرقية ومنطروس ، فكانت بها قوات قوامها ألفا (٢٠٠٠) مسلح تحت قيادة سليمان الباروني ، وكان الشيخ سوف المحمودي يرابط في بئر الغنم على رأس ألف وخمسمائة (١٥٠٠) من المجاهدين .

وتقدمت قوات العدو بقيادة الجنرال « لوكيو » وكان رئيس أركان حربه الكولونيل « دي بونو » الذي صار فيما بعد والياً على ليبيا باسم مرشال إيطاليا ، تقدمت تحت حماية المدفعية والطائرات من غريان إلى أرض الأصابعة ومن أبي غيلان إلى منطروس والرابطة الشرقية ، ومن العزيزية نحو بئر مداكم وقبر زايد ، ومن الزاوية نحو بئر الغنم ، ومن العجيلات في اتجاه الحوض .

واشتبكت بقواتنا في هذه المواقع اشتباكاً مريعاً طاحناً ، أظهر فيه المجاهدون من البطولة والتضحية ، ما لا يتصوره إلا من شاهد هذه المعارك وخاضها .

وهكذا استمرت معركة جندوبة ، حتى الخامسة مساء أي حوالي

وكانت المعركة بأرض الأصابعة (لا أرض الاصابة خطأ) كما وردت في صفحة ٦٤ .



منظر يمثل أحد محلات (كتائب) المجاهدين يستمعون إلى خطاب حماسي من قائدهم قبيل بدء الهجوم على العدو

أربع عشرة (١٤) ساعة ، وقد هزم العدو أثناءها مراراً ، وألقت كتائب الفرسان الرعب في صفوفه ، ولكن الذخيرة بدأت تنفد من المجاهدين .

وعندما رأى رئيس الفرسان سيدي محمد بن عمر البوسيفي ، أنه بسبب نفاد الذخيرة ، لم يبق له ميدان للكر والفر ، ودع حصانه الادهم الذي شهد معه المعارك كلها قائلاً : لا ركوب بعد اليوم ، وحذا حذوه ثلاثمائة (٣٠٠) من الفرسان والرجال ، فكبلوا أرجلهم ، وأقسموا جميعا أن لا يتركوا مواقعهم ، وقاتلوا قتالاً شديداً حتى استشهدوا جميعا .

وتحت جناح الليل رجعنا بالجرحى والتقينا مع الشيخ سليمان الباروني في صبيحة يوم ٢٤ مارس ١٩١٣ م ، راجعاً من الرابطة ، وقد نفدت الذخيرة التي في يد قواته ، وبهذه الصورة انتهت الواقعة الشهيرة بمعركة الأصابعة أو جندوبة في تاريخ الجهاد .

أما خسائر العدو التي تكبدها ، فكانت جسيمة جداً وقد لقي حتفه كثير من كبار ضباطه ، منهم « الجنرال لوكيو نفسه » وغيره من ذوي الرتب ، وهكذا انتهت إحدى المعارك الليبية التي كاد يشيب من هولها الطفل الرضيع » . انتهى .

ولما فقد المجاهدون في هذه المعركة الكبرى خيرة أبطالهم وزهرة شبابهم ، ولم يبق لهم شيء من العتاد والسلاح لقتال العدو ، أدرك الباروني وسوف والكثير من الرجال الأحرار ، أن البلاد حتماً سيعم احتلال الطليان لها فهاجروا إلى تونس ومنها ذهب سليمان الباروني لتركيا ، وذهب محمد سوف وأتباعه إلى سوريا وأقام في حلب ، وانحدر أولاد

أبو سيف جنوباً إلى فزان .

وحين لم يجد الطرابلسيون بعد معركة جندوبة ، أية صفة لاعتبارهم السياسي أو الدولي ، ولا موارد عتاد وتموين ، تمكنهم من الاستمرار على كفاح العدو ، فاجبروا بسبب هذه الأحوال على مسالمة الطليان ظاهرياً ، ومترقبين سراً الظروف الملائمة لمعاودة كفاحهم له .

الفصل التاسع

رمضان بعد الصلح وعوامل زعامته

وبعدما أبرم صلح أوشي ودخول الطليان لمصراته على الوصف المتقدم بيانه ، لازم رمضان السويحلي أملاكه في الزاوية المحجوبية ، واستأنف أعماله الفلاحية والزراعية بسوانيهم ، وتربية الماشية في البر ، وأخذ يجتهد هو وأخواه في اصلاح ما تعطل وفسد من أملاكهم ومزارعهم مدة حبسهم عامين في قضيتهم المشهورة .

غير أن عمر المنتصر وابناءه ، وقد تمكنوا في هذا العهد الاستعماري من استعادة نفوذهم أقوى مما كان لهم ، لم يفتروا لدي الطليان عن الالحاح عليهم طالبين منهم لقاء تعاونهم معهم أن يعدموا لهم رمضان السويحلي ، لما في نفوسهم من الغل الدفين له ، فأبوا عليهم ما طلبوا ، واسترضوهم من ناحية أخرى ، فأعدموا لهم فيما بعد (عقيبة القفصية) وابن اخته (ابراهام بو تركية) ، انتقاماً منهما لصلتهما السابقة القوية برمضان .

وقبل انعقاد الصلح بمعاهدة أوشي ، كان احتلال الطليان لفزان لم يمتد

عليها ، ولكنها فيما بعد بين تاريخي (٦ ديسمبر سنة ١٩١٣ و ٢٧ يناير سنة ١٩١٤ م) استطاعت ، أن تستولي على جميع أطراف فزان ، من غات ومرزق جنوباً إلى سوكنة وهون شمالاً ، ثم بعد سنتين ارتدت عنه مهزومة ، لانتصارات مجاهدي فزان عليها ، في معارك كثيرة أهمها ، معركة القاهرة (بجانب مدينة بها) ، ومعركة المحروقة وبراك ، ولعجزه في هذا الارتداد عن حماية مراكزه هناك ، بسبب صعوبة المواصلات إليها .

أما اخواننا في برقة ، فإنهم لانفتاح حدودهم ، على عدة بلدان وجهات إسلامية ، كنيجيريا وتشاد والسودان ومصر ، التي كانت تتزود منها احتياجاتها الضرورية ، من الأغذية والثياب والأسلحة ، مضافاً إلى هذا ان ايطاليا بأول احتلالها لبرقة ، لم تتمكن من التوغل إلى جنوبها ، لبعده الشاسع عن المدن الساحلية ، ولهذه الأسباب مجتمعة ، استمر البرقاويون عقب معاهدة أوشي على محاربتها بلا هوادة بقيادة السيد أحمد الشريف(١) حفيد محمد بن علي السنوسي ، واتخذ مدينة أجدابية عاصمة له ، وخوفاً من أن تهجم عليه ايطاليا من الغرب ، بعث جيشاً استولى به على شرق سرت ، وعين لقيادته أخاه صفي الدين ، ولكن هذا أناب عنه في عمله مستشاره المسمى (الشيخ أحمد التواتي) .

ومع أنه جاء سراً لأحمد التواتي من مصراته ، وفود كثيرة مؤيدة

---

(١) محمد بن علي السنوسي ، هو صاحب الطريقة الصوفية ، المقول لاتباعها سابقاً ، السنوسيون نسبة إليه ، ولد سنة ١٢٠٢ ه بمستغانم في الجزائر ، ونشر طريقته ببرقة أيام الحكم العثماني الأخير حوالي سنة ١٨٣٩ م ، بولاية علي باشا عسكر ، وتوفي في واحة الجغبوب جنوب ليبيا سنة ١٢٧٦ ه ، وأحفاده كل من السيد أحمد الشريف ومحمد عابد وصفي الدين ، ومحمد ادريس الذي صار ملكاً على ليبيا سنة ١٩٥٢ م ثم عزل بقيام ثورة الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩ .

لحركته الجهادية ، وأخبرته أن رمضان السويحلي ومئات من اخوانه ، سوف ينضمون إليهم في الوقت المناسب ، فعلى الرغم من هـذا الاشعار ، فإن التواتي أبى إلا أن يعتبر أهالي مصراته ، الذين هم تحت الحكـم الايطالي ، بمثابة الأعداء الجائز شرعاً في رأيه الاستيلاء على أموالهم ، فأباح لرجاله غزو مواشيهم السارحة ترعى في البر .

وفي بعض الغارات لرجال التواتي ، اتفق أن غزوا قطيعاً من الإبل لرمضان السويحلي وحين وصله النبأ ، بدلاً من أن ينفعل غاضباً ، ممـا جرى لمواشيه ، تهلل وجهه فرحـاً وسروراً ، إذ حسب الحـادثة فـألاً حسناً ، وبارقة بشرى لتحقيق أهدافه الوطنية ، لتوحيـد الشعب الليبي بأطرافه الثلاثة ، طرابلس وبرقة وفزان ، في كفاحه لغريمه الذي جاء لإذلال كرامته ، وابتزاز خيراته ، لا سيما وان فتيان مصراته ، منذ حضوره معهم ملحمة شارع الشط والرميلة ، وما عرفوه عن فروسيته بحادثة عين كعام ، وهم يشيرون إليه باستعدادهم ، أن يستجيبوا له أي عمل وطني يناديهم إليه ، وراحوا يترقبون منه في المستقبل أمـوراً ، عظيمة النتائج لعزة دينهم ولصيانة تراث آبائهم وأجدادهم .

وكان هو عند الظن الحسن به كما سيأتي ، إذ حسب غزو مواشيه وغزو مواشي اخوانه المصراتيين ، ساقت إليه العناية الإلهية سلبها ، ليتخذهـا ذريعة خادعة للطليان ، تسهل وصوله إلى المجاهدين بشرق سرت ، والتفاهم معهم حول التضامن في الكفاح المشترك للطليان ، وفعلاً ذهب[1] في شهر

---

(١) الكلام الاتي أخذاً من التقرير التاريخي الايطالي عن رمضان DANSCTEUI - RAMA - المودع بعنوان لغته الايطالية في دار المحفوظات التاريخية والأثرية بقلعة طرابلس .

فبراير سنة ١٩١٥ ، فقابل في المواطنين متصرف مصراته ، وتحدث معه بالإصالة عن نفسه ، وبالنيابة عن المنهوبة حيواناتهم قائلاً له ، إما أن تحمي الدولة أموالنا السارحة في البر ، من الغزو البرقاوي المستمر عليها ؛ أو تعطينا سلاحاً نسترد به ما نهب منا ، ونحمي بذلك أرزاقنا من الضياع ، وزين له الخدعة بأن له هناك معارف ، يأمل وساطتهم مع التواتي ، لاسترجاع ما بقي عندهم من الحيوانات المغزوة من مصراته ، ويأتيهم بحقيقة الوضع في محلة صفي الدين .

وانطلت الحيلة على المتصرف ، بتأثير عبارة رمضان الأخيرة ، فسرعان ما سلحوا رمضان هو وأربعون فارساً ، كان من بينهم أخوه أحمد السويحلي ، وذهبوا مباشرة إلى سرت ، وحنق ضابط المخابرات الإيطالي ، (الملازم جيا نيترو) على المتصرف ، لأنه لم يأخذ رأيه ، قبل أن يسمح لرمضان ورفاقه بالتوجه إلى المجاهدين في شرق سرت بأرض بو هادي ، إذ كانت لديه عنه معلومات سرية خطيرة ، تفيد تواطؤه مع اتباع صفي الدين للعمل الخثيث ضد الاحتلال الايطالي .

واقتنع المتصرف بما أفضى إليه به (جيا نيترو) ، فللاحتياط من رمضان ، وكشف حقيقة نياته نحوهم ، أرسلوا في أثره إلى سرت قوة عسكرية ، وبينما كان رمضان عند التواتي في قصر بوهادي ، يتفاوض هو ومجاهدي برقة ، بالعمل لخير الوطن فوجئوا بهجوم القوة العسكرية على مجاهدي سرت ، ونشبت بينهم معركة كبيرة دامت عدة ساعات من النهار ، واشترك فيها رمضان وأصحابه سراً إلى جانب اخوانهم البرقاويين ، وعبروا بهذا الاشتراك المبدئي ، عن وحدة أبناء ليبيا التضامنية ، تجاه عدوهم الغاصب لأرضهم وحرياتهم ، وممن جرحوا أثناء هذه المعركة ، شقيق رمضان أحمد السويحلي ، كما استشهد فيها البعض ممن



صورة رمضان السويحلي الفارس الفذ، وبطل القرضابية الخالدة وزعيم مصراته وحليفاتها الستة لمناسبة ذكر الأوصاف الشخصية التي ذكرها له التقرير الإيطالي .

أتوا معه[1] وقد اعترف بهذه الحقيقة حتى كتاب (برقة العربية صفحة ٢٩٧) لصاحبه المرحوم الطيب الأشهب ، من أتباع جماعة صفي الدين ، وزاد عليها أن رمضان كان في مصراته ، يمد المجاهدين بسرت ، بكل ما يحتاجون إليه من أسواقها من المواد الغذائية ، والأشياء الضرورية بنقودهم .

ثم عاد رمضان بعد معركة بو هادي إلى مصراته ، يسوق جماله التي استرجعها ، وكان خبر قتاله في صف اخوانه البرقاويين ، قد أبلغه الجواسيس للطليان ، فما كاد يصل لمنزله حتى ألقي عليه القبض وسجن في المواطين ، وسئل لماذا جئت دون رفاقك ، وهل حضرت معركة بو هادي ، فأجاب رفاقي تأخروا لجمع الإبل التي اختلطت مع الإبل التابعة لجهات أخرى ، ولم أحضر المعركة لأنها جرت وأنا راجع لمصراته ، وتظاهروا بالاقتناع من كلامه ، فأطلقوا سراحه ، وبعد أيام رجع شقيقه أحمد ورفاقه بالإبل المنهوبة .

ولمناسبة معرفة الطليان لرمضان في هذه الظروف السياسية وصفوا ملامح شخصه بكل دقة علمية ونفسية ، في التقرير التاريخي الإيطالي، المشار إليه كأحد مراجعنا قائلين عنه ما نص ترجمته : « أن قامته حوالي ١٧٥ سم تقريباً ، وهو صحيح البنية قوي الجسم ، وجهه بيضوي وعيونه كبيرة سوداء ، متقد ذكاء ، ولحيته قليلة التجاعيد ، ومقصوصة على

---

(١) يتفق الاشهب في هذه الرواية مع نفس الكلام الذي كنا استقيناه من المرحوم التهامي قليصه .

الطريقة العربية ، الشارب أسود طويل ، وشعر الرأس قليل التجاعيد ، ويلبس دائماً الحولى (أي الجرد) ؛ على الطريقة العربية الليبيـة ، وهـو فارس شجاع ، ماهر في إصابة المرمى ، وتدل ملامحه على حب السلطة ، ونظرته نظرة النسر ، قوي العزيمة ، شديد الاندفاع ، قاس شجاع ، وميال للاعمال الحربية » .

الفصل العاشر

مياني ورمضان والمحلات العربية

ثم من مفاجآت الأقدار الربانية ، أنها بعد حادثة قصر بو هادي المارة بنا أخبارها ، أخذت تهيىء لابن الشتيوي أسباب رفعته وقيام عظمته تدرجياً إلى أن ارتقى كما سيأتي ذروة مجده الحربي وعزه القومي ، إذ دفعت خصمه البغيض ، أن يناديه ليكون عوناً له على أغراضه الاستعمارية ، وهو لا يدري أنه بهذا النداء ، سيكون عما قريب (كالباحث على حتفه بظلفه) ، وما هيأته الأقدار لرمضان (قبل معركة بوهادي) ، هو أنه في ١٢ أغسطس سنة ١٩١٤ ، وقعت في أوروبا الحرب العالمية الأولى ، ودخلتها ايطاليا ضد النمسا وألمانيا وتركيا ، متحالفة فيها مـــع بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة (أمريكا) ، ولكي تتفرغ ايطاليا في بلادها لحرب النمسا ، أرادت تمهيداً لهذا التفرغ ، القضاء على معسكر صفي الدين بسرت ، ثم احتـلال فزان مرة ثانية ، وتطويق مجاهدي سرت من الغرب والشرق والاستيلاء تماماً على برقة من جميع أطرافها ، وأسندت تنفيذ هـــذه الخطة للكولونيل

(مياني) نفسه رداً لاعتباره وشرفه العسكري ، اللذين انتقصتهما هزيمته السابقة بالجنوب .

وفي مدينة طرابلس ابتدأ (مياني) ، يستشير معارفه وأحبابه من العرب ، عن الطريقة المثلى لإعداد حملة قوية ، تحقق لهم تلك السياسة الحربية الجديدة في ليبيا المتقدم ذكرها ، وهي زحزحة صفي الدين من سرت واسترجاع فزان ، وذات ليلة زار (مياني) مربوعة (أي بهو استقبال) سليمان بك القره مانلي ابن حسونة باشا ، الذي اعتاد أن يقضي سهرته فيها ، مع لفيف من وجهاء العرب الموالين لايطاليا ، وكان من بينهم مستشارها (عبد النبي بك بن الخير) الورفلي وكبير بني وليد ، فأحسنوا استقبال (مياني) ، نظراً لمكانته المرموقة عند حكومته ، واستغربوا قدومه غير المعتاد ، وأدرك هو استغرابهم فبادر باعتبارهم من أصدقاء حكومته ، يشرح لهم فكرة القيادة العسكرية ، بالنسبة للحرب العالمية الأولى وعلاقتها باسترجاع فزان والتخلص من معسكر صفي الدين بسرت .

وأفهمهم أن هناك اقتراحاً ، بأن تكون الحملة المزمع توجيهها لفزان وسرت ، تشتمل من غير جنودهم على محلات (كتائب) عربية ، تؤخذ من البلدان الكائنة جنوب طرابلس بصفة الإلزام ، وأن يجعل على كل محلة رئيس منها ، وطلب ملاحظاتهم على هذا الاقتراح ، فلم يرد عليه أحد منهم بشيء ، سوى عبد النبي بلخير ، مشيراً إلى أهمية تعيين رمضان السويحلي في الحملة ، وأن يجعل رئيساً على محلة مصراته .

وترجع صلة عبد النبي مع رمضان منذ العهد التركي ، فقد كان الأول مديراً لمال وأعشار ورفلة ، وكان الثاني يزاول بأرضها فلاحة واسعة أيام الشتاء المطير ، عند معارفه من قبيلتي المعلة والمناصير ، وكان بعد أن يجني محصولاته يؤدي له في بني وليد ، كمية الأعشار المفروضة عليه ، وقد

تعرفا على بعضهما وتصادقا فيما بعد ، بواسطة أحد أحباب الطرفين ، من عائلة اكسوم الورفلية ، إذ كانت أسرة هذا الشخص النابه ، دهمتها نكبة عظيمة في أرزاقها ، بسبب حريق كبير أصابها في منتجعها ، وكان رمضان تعرف عليها بواسطة الحاج مفتاح الشريري المصراتي ، فأنجدها هو مروءة منه بقطيع من الماشية ، وقافلة من الحبوب وأشياء متنوعة ، جرياً على الروح التعاونية ، التي كانت سائدة وقتئذ ، بين أثرياء وكرماء الرجال في الأغراض الحيوية ، وقدر عبد النبي تلك المروءة من رمضان ، فكانت على ما قيل سبباً لتوطيد صداقتهما .

وبناء على ما أشار به عبد النبي بالخير على (مياني) ليلة زيارته لمربوعة سليمان بك القره مانلي ، بعثت برقية إلى متصرف مصراته باستدعاء رمضان إلى مدينة طرابلس فوراً ، وكان عند المتصرف بالتصادف (الحاج السني المنتصر)[1] يترجم عليهما اليهودي (السنيور باباني مغناجي) ، وكأن المتصرف كان يعلم مسبقاً سبب الاستدعاء ، ففاتح به الحاج السني ، واستطلع رأيه في رمضان للغرض الذي سيكلف به ، فحذرهم بأن لا يطمئنوا إليه ، وحسب رواية مغناجي ، أن مياني جاء لمصراته شخصياً واستطلع الآراء في رمضان ، غير أنه لم يأخذ بانتقادات الجهات المختلفة لرمضان ، (وإذا جاء القدر عمي البصر) .

وحين أتى رمضان لطرابلس ، فوتح بتعيينه رئيساً لمحلة مصراته ، المزمع إعدادها في محلة مياني ، وأعطيت له الحرية في الاختيار لرجال محلته ،

---

(١) الحديث من زيارة مياني لمربوعة سليمان بك إلى ذهاب مياني لمصراته للاستطلاع عن رمضان ، هو رواية اليهودي مغناجي للمؤلف ، مشافهة ، وكان مغناجي في آخر أيام حياته في مدينة طرابلس موظفاً بمحكمة الربيين اليهود المرتبطة وقتئذ بوزارة العدل ومات حوالي ١٩٦٨ م .

وأفهموه إما أن يقبل هذا التعيين ، ويقوم بمفاوضة صفي الدين ، لاتصاله به وباتباعه من قبل ، ليجري مع ايطاليا الصلح ، أو ينفى إلى ايطاليا إذا رفض إجابة مطالبهم منه ، ولماذا يرفض ما كلفوه أن يقوم به ، مـا دامت الأقدار هيأت له السبل لتحرير أبناء وطنـه من نير العبودية ، وليجعل صحراء القرضابية مقبرة كبرى لجنود عدوه ، ولهذه الأمور قبل الاشتراك في الحملة كما قبل بها غيره من الزعماء .

الفصل الحادي عشر

بطولته الفذة بالقرضابية الخالدة

وكانت حملة مياني الزاحفة شرقاً ضخمة جداً في حجمها البشري والآلي ، بالنسبة إلى مجاهدي سرت البالغ عددهم نحو (١٥٠٠) ألف وخمسمائة [١] فقد تألفت حسب البيانات الايطالية من (٢٠٨٩) جندياً مزيجاً من الحبشة وأرتيريا ، و (٩٠٠) جندي إيطالي ، و (٣٠٠٠) رجل طرابلسي المأخوذين جبراً ، و (٢٥٠) فارساً و (٨٤) ضابطاً ، وكان من تجهيزاتها الآلية (١٢) مدفع ميدان ، وأعداد كثيرة من المدافع الرشاشة ، ومن نقلياتها (٢٠٠٠) من الإبل والبغال والعربات .

وكان من رؤساء محلاتها ، رمضان السويحلي لمحلة مصراته ، ومبروك المنتصر والسعدي بن سلطان لمحلة ترهونة ، ومحمد بن مسعود لمحلة قماطة ، ومحمد القاضي

---

(١) المرجع عن بيانات العددية لحملة مياني هو كتاب (معجم معارك الجهاد بليبيا صفحة ٥٠٤) للأستاذ خليفة التليسي وذلك فيما يتعلق بتكوين الحملة الايطالية .

لمحلة مسلاته ، ومحمود عزيز لمحلة زليتن ، وعمر العوراني لمحلة ساحل آل حامد ، وعبد النبي بالخير لمحلة ورفلة ، غير أنه قبل ابتداء معركة القرضابية ، رجع إلى بني وليد بطريق (بو نجيم) زاعماً أنه خائف عليها من أن يغزوها عمر سيف النصر ، أحد زعماء المجاهدين مع صفي الدين ، واتخذت الحملة (يوم ١٤ ابريل سنة ١٩١٥ م « بئر بوقرين » قاعدة لتجمعاتها ، ثم يممت أرض القرضابية ، وفي أثناء سيرها كان التفاهم للعمل المنتظر يزداد تصميماً في السر ، بين رمضان والبعض من رؤساء المحلات ورجالها البواسل ، لا سيا منهم المبروك المنتصر الترهوني ، كما أنه توالى التحذير (لمياني) من عملائه في الحملة ، بأن رمضان يضمر في نفسه هو ورفاقه نيات سيئة للحملة ويريدون لها شراً مستطيراً .

فلما وصلوا أرض القرضابية ، نظمت الجيوش بأوضاع القتال البري ، فكان الجنود الأحباش والأرتريون في المقدمة ، ومن ورائهم مياني وأبناء جلدته البيض ، ومحلة مصراته في الميمنة ، والمحلات الأخرى في الميسرة ، وابتدأ [١] الشك في إخلاص رمضان يساور أفكار مياني ، فطلب إليه أن يبقى دائماً إلى جانبه ، بحجة تبادل الرأي معه في شئون وتحركات الحملة ، وأشار عليه أن يعمل بسرعة ، لمعرفة رأي البرقاويين في الصلح ، ونزولاً عند رغبته ، بعث رمضان رسالة بهذا الخصوص إلى صفي الدين ، مع صديقه الوفي « عمر أبو دبوس » ، فلما قابله عمر وفاتحه بالموضوع ، أجاب بالرفض للصلح والإصرار على قتالهم ، فأفهمه أن رمضان كان في سره متوقعاً منكم هذا الرد ، غير أنه نظراً لقوة العدو الضخمة ، يرى أن تنسحبوا قليلاً إلى الشرق ، لنستطيع الإجهاز على

---

(١) من ابتداء شك مياني في إخلاص رمضان ، إلى دخوله في المعركة هو ومن معه ، أخذاً من رواية المرحوم « التهامي بك قليصة » ، وغيره من المجاهدين عند اتصالي بهم وأنا طالب علم ومن غريب الاتفاق أنني عندما زرت التهامي بك قليصة في الفيوم قال لي إننا نتمنى أن ترجع للوطن وتكتب لنا تاريخه ، وحقاً إن المؤمن لينظر بنور قلبه .

الحملة برمتها ، بعيدة عن مركز إمداداتها في مدينة سرت ، وحتى هذه الفكرة لم يقبلها صفي الدين بتأثيرات التواتي عليه ، الذي كان يشك أيضاً في إخلاص رمضان لهم .

ورجع أبو دبوس فأخبر رمضان بالنتيجة السلبية لرسالته ، وبينما كان رمضان يبلغ مياني فشل المفاوضة بالصلح ، إذا المجاهدون البرقاويون يباغتون الحملة بالهجوم السريع ، وبذلك نشبت بين الطرفين معركة القرضابية (على اسم بئر شرق مدينة سرت) وذلك (في يوم الخميس ١٥ جمادي الثانية سنة ١٣٣٣ هـ الموافق ٢٩ ابريل سنة ١٩١٥ م) ، وفي أولها سقط من المهاجمين البرقاويين أزيد من مائة شهيد ، لعدم التكافؤ بين الطرفين بالعَدد والعُدد ، وفي أثناء هذا الاصطدام تظاهرت المحلات الطرابلسية بمساعدة الطليان ،فصارت تطلق رماياتها بالفضاء ، غير صائبة لأحد من إخوانهم المسلمين .

وأما محلة مصراته فلم تبد أي حركة ، ولم تطلق ولا رصاصة واحدة بخلاف غيرها ولاحظ مياني هذا الموقف المستغرب منها ، فالتفت إلى رمضان سائلاً إياه عن السبب في امتناع رجال محلته ، عن الاشتراك في القتال بنية صافية ، وفي رد رمضان الفوري عليه ، يتجلى لنا ذكاؤه الفطري وحضور بديهته ، وثبات قلبه في أحرج اللحظات الحاسمة خطورة ، إذ أجابه بهدوء اعتيادي : كما لا يخفى عليك أنك محتفظ بي إلى جانبك ، ومن عادة العرب أن فارسهم الأول ، ينبغي أن يكون في الطليعة ، ليسيروا على طريقته في توجيه الرماية . وانطلت الحيلة عليه فسمح أن يركب جواده ، واندمج به مسرعاً في صفوف محلته ، ورآه اخوانه الرؤساء الآخرون المتضامنون معه ، يومىء لهم بالإشارة الرمزية ، لبذل الأرواح في سبيل الله والوطن فلبوا الإشارة .

وارتد معه الجميع بالانقلاب على الجيش الايطالي كلمح البصر ، وباشروا هم وإخوانهم البرقاويون قتاله ، متساندين كالبنيان المرصوص ، متدافعين بكل

شجاعة وإقـــدام ، وكان زملاؤه الرؤساء ولا سيما مبروك المنتصر الترهوني ، يتنقلون بين الصفوف يوجهون إلى النواحي الهامة لتحطيم العدو ، ويقوون العزائم على الصبر والثبات ، وطوقوا مياني وجنده بنيران مستعرة من رصاص البنادق المنهالة عليهم شهباً مميتة .

وتصدى الطليان للعرب ، بقصف المدافع والرشاشات كأزيز الرعد ودوي الصواعق ، وتعاظم في المعركة الهول والويل ، بما لم يأت الزمان بمثله ، وصارت فيها الأجسام البشرية من الطرفين ، تتهاوى على الأرض ، كتساقط الشجر بالرياح العاتية أيام الخريف .

ولقد راح فيها شهيداً من الحلات الطرابلسية المنقضة على العدو أزيد من (٥٠٠) خمسمائة مجاهد ، وكان الجرحى من الجميع لا يحصون عدداً ، ولكن خسائر الطليان في الموتى والجرحى ، تفاقمت بصفة كارثة رهيبة ، وبصرف النظر عما ذكروه من خسائرهم في الجند ، الذين تتكاتم عادة بلاغاتهم الرسمية حقيقتها ، لأسباب سياسية ، غير أن ما ذكروه عن خسائرهم ، من ذوي الرتب العسكرية بصفة عامة ، قد يكون قريباً من الصحة ، فقد كان الموتى منهم (١٨) ثمانية عشر ضابطاً ، والجرحى (٢٥) خمسة وعشرين ضابطـــاً ، وكان بين هؤلاء الكولونيل مياني نفسه .

ومع أن العرب في المعركة كانوا مسلحين بالبنادق وحدها ، وأن عدد الطليان ومرتزقتهم من الأحباش ، كان متفوقاً عليهم تفوقاً كبيراً ، بأجهزة الأسلحة الآلية والفنية ، فإن مفاجأة الحلات العربية بالانقضاض عليهم ، قد أشلت لهم بذلك حركة الدفاع عن نفسهم كما ينبغي ، فعظم بذلك ارتباكهم وسرى إلى أفئدتهم الهلع والرعب ، مما رأوه من تفاقم موتاهم وجرحاهم ، فلاذ الأحيـــاء منهم بالفرار إلى سرت وفي طليعتهم (الكولونيل مياني) ، ولما دخلها ألف محكمة عسكرية صورية ، قتل فيهـا الكثير من العرب الذين

التجأوا معه إلى سرت، ومن بين هؤلاء أبو بكر النعـاس من ترهونة ، والحاج محمد بن مسعود من قماطة ، والحاج محمد القاضي من مسلاته ، ومن غيرهم أزيد من خمسمائة نفس .

وبينما كانت عاقبة هذه الحملة نصراً مبيناً لعموم الليبيين، لبطولة رمضان السويحلي والذين أيدوا غارته المظفرة ، وإذا الطليان في نفس الوقت يصابون أثناء المعركة بهزيمة ساحقة ، نتيجة للانقلاب الحربي الخطير عليهم ، الذي قام به الفدائيون العرب ضدهم بغتـة ، ممن عرفوا أسرارهم وامتلكوا أسلحتهم وذخائرهم ، وابتعدوا بهم كثيراً عن أماكن الإمداد العاجل لهم، تاركين وراءهم للعرب بأرض القرضابية ، جميع ما كان في الحملة من المهمات العسكرية والمؤن والأجهزة الحربية الآلية ووسائل النقل .

وحسب الروايات العربية أنهم غنموا في القرضابية آلاف البنادق ومجموعـة كبيرة من مدافع الميدان والرشاشات وعتادها الناري الهام ، والكثير من هـذه الغنائم استولى عليها البرقاويون ، نظراً لقربهم من محل نقلها إلى جهتهم ، وأمـا المصادر الايطالية فتقول أنها خسرت في المعركة من الأسلحة (١٠٠٠) ألف بندقية و (١١) وأحد عشر رشاشاً ، ومن الواضح أنها أخفت بيان ما فقدته في المعركة من أنواع الآلات الحربية ، كإخفائها حقيقة خسائرها البشرية من الجند والضباط ، لتخفف بذلك على شعبها فظاعة الكارثة التي مني بها جيشهـا في القرضابية ، ولتصون من انتقاص سمعتها العسكرية في العالم .

ومما لا شك فيه أن انتصار العرب الساحق فيها ، يرجع الفضل الأول فيه إلى التضحية البطولية لرمضان ، وبراعة تخطيطه السري لذلك ، مع المخلصين البواسل من أحرار وفدائيي المحلات الأخرى ، على أن غرسياني في كتابه المعروف باسم « نحو فزان ص ٣٥ » يعزو كارثتهم في القرضابية بالدرجة الأولى

إلى رمضان الشتيوي قائلاً عنه بالنص (وفي ٢٩ ابريل سنة ١٩١٥ غدر بنا رمضان الشتيوي هو وجميع أفراد الفرقة ، التي كنا قد قمنا بتسليحها إبان المعركة ، التي نشبت بين آلاي الكولونيل مياني وبين الثوار في معركة قصر[١] بوهادي ، وذلك بأن انقض على الحملة وصب نيرانه على جنودنا) .

---

(١) يعني غرسياني بقصر بو هادي أرض القرضابية ، وبكلمة الثوار رجال المحلات العربية الذين انقلبوا عليهم .

ملاحظة : قد مرت وستمر بنا كثير من أسماء الأعلام للأشخاص والأمكنة لم نذكرها بحسب لفظها بالإعراب النحوي مثل (قصر بو هادي) أو اللغوي كأرفلة بدلاً على ورفلة ، وإنما ذكرناها ونذكرها حسب استعمالها الدارج على ألسنة الشعب ، وعلى قاعدة (الحكاية)في علم النحو.

بطل القرضابية

وإليك قصيدة بليغة للأستاذ الشاعر محمد عبدالله معتوق المصراتي ،جادت بها قريحته الفيـاضة بالعنوان المذكور ، يصف فيها شجاعة رمضان المثلى وبسالة إخوانه المجاهدين في القرضابية وخذلان عدوهم أمامهم قال :

وَقَفْتَ وَقْفَةَ أَبْطَـــالٍ وشُجْعانِ
تُجَابِهُ الْغَزْوَ في صَبْرٍ وإيمَـــانِ
وْمَ الْخَلِيجِ [1] وَمَا سَدَّدْتَ مِنْ خُطَطٍ
كانَتَ دَماراً لِمَنْ عَنْ أرْضِنا جَانِ
لَمَّا وَضَعْتُمْ حُشُودَ الْخَصْمِ في قَفَصٍ
مَـا بَيْنَ بَحْرٍ وصحراءٍ [2] وَنِيرانِ
حَمِيَ الْوَطِيسُ وَطِيسُ الحَرْبِ مُلْتَهِباً
وَالنَّـــارُ تَلْفَحُ مِنْ قَاصٍ وَمِنْ دَانِ
وَلِلْعَزَائِمِ مِنْ آلامِهَـــا خَوَرٌ
سِوَى عَزائِمِ أَبْطَـــالٍ وَشُجْعَانِ

---

(١) يقصد من الخليج منطقة خليج سرت التي منها أرض القرضابية .
(٢) ونوّن كلمتي صحراء ومصراته وهما غير منصرفتين لضرورة الشعر .

خَاضُوا الْمَعارِكَ في صَبْرٍ وفي جَلَدٍ
وَقَاوَمُوا في حَمَاسٍ كُلَّ طُغْيَــانِ
سَدُّوا الْمَنَافِــذَ عَنْ أَعْدَاءِ أُمَّتِهِمْ
فَصَيَّرُوهُم حَيَــارَى شِبْهَ قُطْعَانِ
اَلْبَحْرُ يَحْجُزُهُمْ وَالنَّــارُ تَلْفَحُهُمْ
وَالْخَصْمُ يَطْحَنُهُمْ في غَيْرِ إِمْعَانِ
خَرَّتْ جَحَافِلُهُمْ في مَأْزِقٍ خَطِرٍ
لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ سِوَى أَشْبَــاحِ إِنْسَانِ
نَامُوا عَلَى جُثَثِ الْأَمْوَاتِ يَدْفَعُهُمْ
حُبُّ الْحَيَــاةِ إِلَى خِزْيٍ وخُذْلانِ
عَادُوا (لِمِصْرَاتَةٍ) وَالْحِقْدُ يَدْفَعُهُمْ
شَنُّوا عَلَيْهَــا هُجُوماً غَيْرَ إِنْسانِ
كَمْ أَحْرَقُوا مِنْ ضِعافٍ مِنْ مَلَاجِئِهِمْ
وَيَوْمَ مَاطُوسَ [1] عَنْهَا خَيْرُ بُرْهَانِ

---

(١) وماطوس اسم رجل مصراتي أحرقه الطليان بأول غزوهم هو وأفراد أسرته .

كَمْ عَلَّقُوا مِنْ بَريءٍ فَوْقَ مَشْنَقَةٍ
وَقَتَّلوا مِنْ شَهِيدٍ فَوْقَ كُثْبَـانِ

وَفي السجُونِ رِجالٌ مَـا لَهُمْ عَدَدٌ
وَالشَّعْبُ يَرْزَحُ مِنْ ظُلْمٍ وَعُدْوَانِ

كَـذَاكَ تاريخُهُمْ يَا مَنْ لَهُ جَهِلوا
وَذَاكَ تاريخُ لَيْثُ الحَرْبِ (رَمَضانِ)

الفصل الثاني عشر

فتحه مصراته وفتوحات الزعماء الآخرين

وعلى أثر انتهاء المعركة على تلك الصورة الظافرة المجيدة ، بقي رمضان مدة بأرض القرضابية ، يواري هو واخوانه المصراتيون جثث الشهداء منهم ، ويعالجون ويهتمون بالجرحى ، وجمعوا جزءاً من الغنائم وهي كميات من الأسلحة الخفيفة ، ومدفعان رشاشان ، حفظوا بعضها في سيدي عبد الرءوف (وهو مكان بأرض مصراته الخلوية اتخذوه مخزناً للعتاد والذخيرة) ثم عجل بالعودة إلى مصراته يصحبه رجال محلته ، لينقذ ناسها من انتقامات الطليان ، لا سيما وأن هؤلاء بسبب كارثتهم بالقرضابية ، القوا القبض على كثير من أعيان مصراته ، وفيهم أخواه أحمد السويحلي وسعدون السويحلي وصديقه التهامي قليصة ، وساقوهم أسرى إلى طرابلس ثم إلى إيطاليا ، وبدلاً من أن يمشي رمضان رأساً إلى مصراته ، انعطف في سيره نحو (تاورغا) ، إذ كانت فيها قوة إيطالية فأراد القضاء عليها وتطهير البلدة منها ، لكي يحمي ظهره منها في حصاره لمصراته ، واستبقى معه لهذا

الغرض الأقوياء ، وسمح للضعاف صحة وغيرهم متابعة التوجه لها .

وشعر الإيطاليون بتاورغا ان المجاهدين يحاصرونهم ، فطلبوا من مصراته الإسراع بنجدتهم ، وكان من سوء حظهم أن تاورغا ، محاطة بسبخة ملحية سطحها أبيض كالثلج ، وتحتها أرض طينية رخوة تغوص بالماشي فوقها بلا قرار ، ويسميها أبناء تاورغا (أم المظام) ، ويقطعونها بممرات خاصة يقولون عنها (السراويل) ، وأدرك رمضان أن الوقوف على مداخل الممرات الخاصة ، يمكنهم من اقتناص المطوقين ، الذين سيحاولون الفرار من البلدة ، أو للقوة التي ستأتي من مصراته ، لنجدتهم ، وكان تقدير رمضان واخوانه لذلك صائباً في الرأي والعمل .

فلما جاءت قوة مصراته لتنقذ من في تاورغا ، وجدت مقاومة شديدة من المجاهدين المتربصين لها عند ممرات (السراويل) فولت هاربة ، وخرج المطوقون حسب الاتفاق السري للاتصال بالقادمين إليهم ، وإذا هم أيضاً يجدون الممرات مليئة بالمجاهدين ، وأخذ رصاص هؤلاء تحصدهم نيرانه ، فمن لم يموتوا به . فروا طالبين النجاة نحو السبخة ، حاسبين إياها أرضاً صلبة ، ولكنهم صاروا يرسبون فيها بالتدريج إلى أن ابتلعت أكثرهم[1]،ومن سلم أخذ

---

(١) ومن غريب ابتلاع الأرض للناس الاحياء ، أن جريدة البلاغ الطرابلسية نشرت في عددها (٣٠٢) من سنتها العاشرة وتاريخ (٢٩ / ٣ / ١٩٧٣) بصفحتها الأخيرة بعنوان (الأرض تبتلع عروسة في الاسكندرية) ، أن العروسة الشابة (ميرفت أحمد شحاته) قد ابتلعتها الأرض أول أمس بينما كانت تسير مع زوجها في احد شوارع الاسكندرية وجاء رجال الانقاذ إلى محل فقدها ، فعثروا فقط على سوار معصمها ، وبهذه المناسبة التاريخية فإن المرشال الألماني العظيم (هندنبرغ) أغرق في الحرب العالمية الأولى نحو ربع مليون جندي روسي في مستنقعات مدينة (ريغا) الكائنة على بحر البلطيق بأوروبا الشرقية التي طبيعة أرضها مستنقعاتها ، كطبيعة سبخة تاورغا ذات القاع الرخو الغائص بمن فوقه ، وذلك بحيلة حربية من المرشال (هندنبرغ) ألجأت الجنود الروس لخوض مستنقعات ريغا فراراً من الهجوم الألماني الكاسح وهم لا يدرون طبيعة أرضها .

أسيراً أو هام على وجهه نحو البر .

وباستيلاء رمضان على تاورغا تركها وباشر محاصرة مصراته يوم ١٨ مايو سنة ١٩١٥ . فنزل بناحيتها الشرقية المسماة (كرزاز) واتخذها مقره ، في بناء غرفة ومرافقها كانت لأحد الأتراك ، وأحاط حصاره الشديد للطليان في المواطين من جميع جهاتها ، ولمحاولتهم فك الحصار عنهم ، بفتح الطريق إلى ميناء قصر حمد لتنقذهم البواخر البحرية ، وعدم تمكين رمضان من تحقيق هدفه بأخذهم ، وقعت بسبب ذلك بين الطرفين عدة معارك دامية ، وكانت على طريق قصر حمد وحول المواطين ، ومن أشهرها معركة رأس الطوبة ، وكانت يوم الثلاثاء ١١ رجب سنة ١٣٣٣ هـ الموافق ٢٥ مايو سنة ١٩١٥م ، فخرج فيها الطليان للهرب ولكن لم ينجوا من الحصار ، وسقط في المعركة من المجاهدين حوالي مائة (١٠٠) شهيد ، ومن بينهم البطل (عمر شقلوف السويحلي) أحد أقرباء رمضان ، وبعد ثلاثة أيام من ملحمة رأس الطوبة ، وقعت معركة أخرى بمكان يقال له (سبخة بوفار) ، ألحق المجاهدون فيها للطليان أفدح الخسائر العتادية والبشرية ، من ذلك أسروا فيها ضابطاً وهو الكبتن (ڤيكي) واعتبروا انتصارهم في هذه المعركة ، أخذاً لثأرهم ليوم رأس الطوبة ، وجرت بعد بوفار معركة أخرى هي معركة (جرف المقاصبة) ، شرق المواطين بنحو ثلاثة كيلومترات .

وتأكد العدو في طرابلس ، أنه لا ينجي جنوده المحاصرين في مصراته سوى المجازفة اليائسة ، فبعث لهم بواخر رست بميناء قصر حمد ، وأمرهم بالخروج الفوري من المواطين مهما كلفهم الانسحاب منها ، واستجابة لهذا الأمر ، ففي ليلة يوم الخميس ٢٤ رمضان سنة ١٣٣٣ هـ و٥ أغسطس سنة ١٩١٥ م ، خرجت جميع قواتهم من عاصمة مصراته مستترة بالظلام قاصدة سفنهم بالميناء المذكور .

وما كادوا يتجاوزون المواطين ، حتى اصطدموا في طريقهم بقتال ضار مع المجاهدين الذين كانوا متربصين لهم ، واستمرت المقاتلة بينهم من تلك الليلة إلى عصر نهارها تقريبا ، وفي هذا الوقت تمكن الطليان السالمون من الموت من الوصول إلى السفن وراح أثناء الصراع من المجاهدين نحو مائة شهيد .

وترك الطليان الذين أقلعت السفن بهم وراءهم في المواطين ، مخازنهم وثكناتهم ومعاملهم ، وهي مكتظة بالمؤن والملابس والأسلحة الآلية المتنوعة ، ومنها الخفيفة والثقيلة ، ولا سيما البنادق والرشاشات ، وأجهزة المواصلات السلكية ، والمهمات العسكرية ، والأموال النقدية ، مما لا يحصى له عدد ولا تقدير لقيمة فوائده .

وفي اليوم التالي دخل رمضان إلى المواطين ، هو ورفاقه الأبطال وأفراح الشعب بمقدمهم الظافر تملأ أجواء السماء ، وتبادلوا التهاني والتبريك الحارين ، لحصولهم على الحرية التامة بعد فقدها ، ولاغتنامهم الاستقلال الناجز الذي لم تره مصراته من قبل على يد أبنائها أباة الضيم .

وفي أثناء محاصرة رمضان للطليان بمصراته ، فأسوة به قد رجع زعماء ورجال المحلات الأخرى إلى بلدانهم مسرعين ، تخليصاً لها من انتقام الطليان الذين تحصنوا بها ، إذ وصلتهم أخبار الكارثة التي حلت بجيش غرسياني ، فصاروا هم أيضاً يترقبون في مراكزهم مصيرهم السيء ، ولم يطل بهم الانتظار لهذا المصير ، فنتيجة لانتصارات العرب اندلعت عليهم الثورات التحررية ، من ورفلة وزليتن وساحل آل حامد وترهونة جنوباً ، إلى فندق ابن غشير وجنزور والعزيزية والزاوية شمالاً ، وفي مدة شهرين تقريباً استطاع أولئك المجاهدون البواسل ، أن يجلوا الطليان عن جميع البلدان المذكورة ، تاركين لهم فيها نظير مصراته ، كل ما لديهم من المواد الغذائية والمعدات العسكرية ، وأنواع الأسلحة والمهمات الحربية .

ولقد ذكر غرسياني في كتابه (نحو فزان صفحة ١٩) . أن سرعة جلائهم عن المواقع التي قامت فيها الثورات ضدهم بعد القرضابية ، أجبرتهم على ترك جميع أسلحتهم الضخمة فيها ، ويقول أخذ المجاهدون منهم بسببها أربعون(٤٠) ألف بندقية ، ومائة (١٠٠)مدفع رشاش(مترليوز) وثلاثين(٣٠)مدفعاً للميدان ، ولقد ساق الله سبحانه وتعالى للمجاهدين هذه الغنائم الحربية الوافرة ، ليقاتلوا بها عدوهم بنفس سلاحه .

ولما سمع رمضان بهذه الانتصارات الشمالية وغنائمها ، وذلك قبل أن يجلي هو العدو عن مصراته ، فرح بها كثيراً واعتبرها سنداً له في إضعاف قوة ومعنويات الذين كان يحاصرهم ، وبعد ذلك لم يبق للطليان من مكان يحتلونه في طرابلس سوى مدينتي طرابلس والخمس ، وقد اعترف بهذه الحقيقة غرسياني في كتابه صفحة (١٩) قائلاً « وفي أول عام ١٩١٦ م ، كان احتلالنا لطرابلس مقصوراً على قاعدتي طرابلس والخمس البحريتين ، وفي هذه الأماكن تكدست قواتنا في حلقة الأسلاك الشائكة الضيقة » .

الفصل الثالث عشر

نزاعه والسنوسيون وأسبابه وأثره

غير أن فرحة رمضان الكبرى ، بإنقاذ مصراته من العدو ، وازدياد سروره بفوز الجهات الغربية بتحرير وطرده منها ، فإن قدوم صفي الدين من ورفلة إلى مصراته هو وأتباعه ، قد نغص عليه كل تلك المباهج السارة ، وأوجد في نفسه منه كمداً أليماً وأسفاً شديداً ، لعدم إشفاقهم على متاعب الناس ، ولا اعترافهم بالتضحيات الكبرى التي بذلت سابقاً من أجلهم في سبيل الله والوطن .

والسبب في إيجاد هذا التأثر العميق ، والإحساس بالغبن وعدم التقدير هو أنه بعد أن استقبل أهل مصراته مجيء صفي الدين وأتباعه ، بالحفاوة البالغة والترحاب الجزيل ، وأكرموا ضيافتهم بوسائل الراحة والاطمئنان لنفوسهم ، والتقديم لهم يومياً قصاع الأطعمة الفاخرة ، وبالغوا في تقدير زعامتهم الروحية لحسن الظن بهم ، ولاعتقادهم أنهم يعملون لوحدة الصف الليبي تجاه الغزو الايطالي ، وإذا هم بعد

كل هذه الحفاوات البريئة من الزيف ، يكشفون عن نياتهم السيئـة ، وأغراضهم الانتهازية من هـذا المجيء ، فيطلبون بلسان صفي الدين من رمضان ، بصفته متولياً أمور البلد ، يطلبون منه ثلاثة مسائل مثيرة للدهشة والعجب ، وهي :

أولاً : أن يسلم لهم رمضان جميع الغنـائم على اختلاف أنواعها التي تركها الطليان بمصراته ، بعد انسحابهم منها يوم ٥ أغسطس سنة ١٩١٥ م وسبق [١] أن أخذوا مثلها من عبد النبي بالخير بورفله .

ثانياً : الأمر فوراً بجباية الضرائب المستحقة على الأفراد .

ثالثاً : جمـع زكاة الأموال الشرعية من المكلفين ، وأمـا مجيئهم للاهتمام الحيوي بالأسر المنكوبة بفقدها في الحرب من كان يعولها ، وأما برهم للفقراء والمحتاجين ، الذين انتزعوا من دورهم أقواتهم وتبرعوا بها للمجاهدين ، فهذا الشيء لم يأتوا للقيام به في مصراته .

ووجه الاستغراب في عدم الموافقـة على مطالبهم ، أن المصراتيين دحروا الطليان من بلدتهم وحدهم ، ولم ينـاضله معهم من السنوسيين ولا نفر واحد ، حتى بقراءة الفاتحة للتبرك والتشجع بأنفاسهم ، وان مطالبهم

---

(١) بعد القرضابية لما أجلا عبد النبي بالخير الطليان عن بني وليد ، جاء أحمد سيف النصر والتواتي فانتزعوا من عبد النبي نفوذه، وجمعوا ما تركه الطليان في بني وليد من غنائم وأموال، وكان صفي الدين في مصراته،فذهب إليه عبد النبي ليشكو له ما عامله به التواتي وسيفالنصر ، فلما وجد رمضان حاله مثله مع صفي رجـع لبني وليد خائباً .

الثلاثة قد تكون منطقية لو كانوا سيبقون دائماً في مصراته ، وسيتولون مسئوليات الحكم فيها رسمياً ، وينفقون مواردها على مصالحهـا الاقتصادية والحربية ، أما وإنهم يريدون نقل غنائمها وأموالها إلى اجدابية والجغبوب ، ثم يتركون الديار تنعى من بناها ، فهذا هو الذي دهش له رمضان والناس واستفزهم الغضب المزيد منه .

وعارضهم رمضان في مطالبهم الثلاث بكل شدة وحزم ، قائلاً في مخاطبة صفي الدين وحاشيته بهذا الخصوص ، إذا جاز أخذ الزكاة الشرعية لمستحقيها المبينين في كتاب الله ، فإنه لا يمكن بأي حـــال من الأحوال ، التفريط أو التسليم بإعطاء الغنائم ونقلها من مصراته إلى محل آخر ، ما دمنا معرضين ههنا لهجمات العدو علينا من البر والبحر في أي يوم ، لهـذه الأسباب فنحن في أشد الحاجة الملحة للاحتفاظ بجميع الغنائم من الأسلحة وغيرها من المهمات الحربية والعسكرية ، لنذود بهـــا عن أرضنا وأعراضنا وديننا ، وفعلاً قد سلمت الغنائم للجان المعينة لها ، فأحصتها ضبطاً وتسجيلاً ، وأوكل بهـــا لأشخاص مسئولين عن التفريط منها ولو بخرطوشة واحدة ، والأمر بجباية الضرائب من الأفراد فيه التكليف لهم ما لا يطيقون تحمله في هذه الظروف العصيبة ، لكونهم جميعاً قائمين بالجهاد على نفقتهم الشخصية ، والباقون من غير المحاربين من الشيوخ والنساء والصبية ، يشتغلون آناء الليل وأطراف النهار للتعبئة العامـة ، في الفلاحة والزراعة وتربية الحيوان ونسج الأصواف وغير ذلك ، لا انهم يحاربون على نفقة الدولة ، كما هو الحال في البلدان الراقية وعند الأمم الثرية .

واستشاط صفي الدين وأعوانه غضباً من ردود رمضان المنطقية المفحمـة إذ اعتادوا في جهات نفوذهم الروحي ، أن يستجيب لهم هنـــاك أتباعهم السذج ، ما يأمرونهم به ، بلا جـــدال ولا اعتراض ، وخافوا إن رضخوا

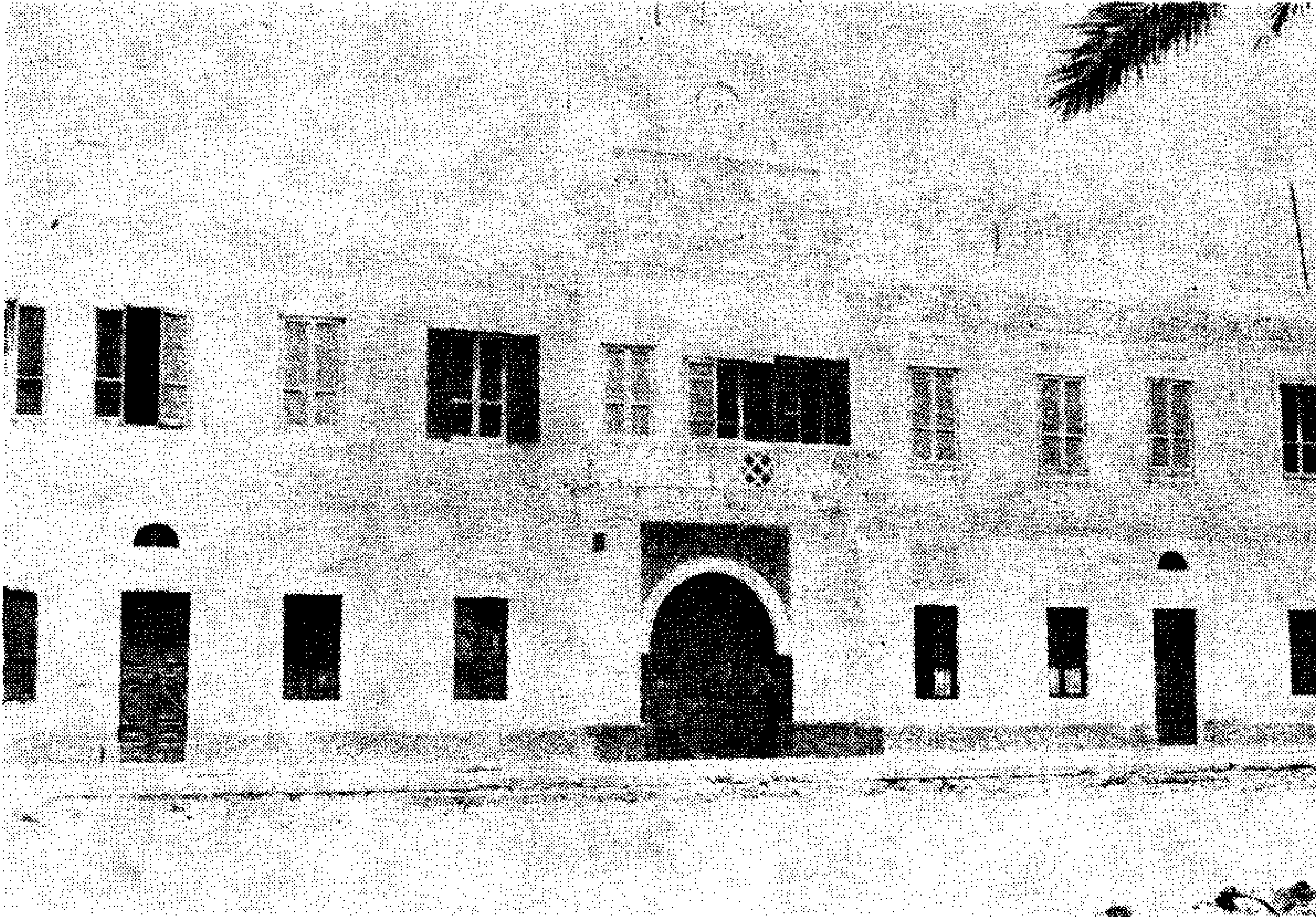
لإرادة رمضان ، أن يشاع أمره في أنحاء طرابلس ، فلا يجدون فيها بعد ذلك من زعمائها من ينقاد لرغباتهم ، وكلف صفي الدين رمضان أن يجمع له الناس لتعرض عليهم مسائل الخلاف وأخذ رأيهم ، فلم يمانع في هـــذا الطلب ونفذه .

وحين جاء الناس للمواطين من جميع القبائـــل بمصراته ، وكانوا عالمين بالأسباب اجتمعوا أمام قصر الحكومة ، فلما أطل عليهم صفي الدين من شرفة غرفته بالقصر ، أعلن لهم أن رمضان السويحلي معزول من وظيفته ، لأنه أصبح مهجوراً من طرفهم وهذه الكلمة عند السنوسية معناها منبوذ ، وهاج الناس وماجوا لدى سماعهم هذه الكلمة ، معلنين رفضهم ما نطق به صفي الدين ، وان رمضان كان قائدهم وزعيمهم ، منذ أن تكلم باسمهم مع المتصرف الايطالي بخصوص مواشيهم المغزوة ، وذهابـــه إلى شرق سرت لاسترجاعها منهم ، ومشاركته إياهم في قتال الطليان في بئر بو هــادي وهو فارس القرضابية والفاتح بعدها لبلدة مصراته .

وحسم [1] رمضان هذا الموقف الحرج الخطير ، معلناً أنه من كان على رأي صفي الدين فليبق مكانه ، ومن كان على رأيي فليتبعني ، وإذا تلك الجموع الزاخرة تقتفي أثر فارسها الهمام ، ولم يبق أمام القصر سوى أفراد قليلين ، ممن لم يكونوا على وفاق مع رمضان من قبل ، وأشهر هؤلاء الشيخ محمد بن عبد الملك وأخوتـه عمر وحسين ، ومحمد بك باش آغا وأولاده ، ومحمد المهرك ، فجاهروا بانتمائهم للسنوسية وتأييدهم لصفي الدين ، ولكنهم

---

(١) الحوادث المذكورة منذ فتح مصراته ، إلى موقف صفي الدين ورمضان مع الناس أمام القصر ، مستقاة معلوماتها من المهاجرين إلى مصر وهم التهامي بك قليصة ، والسنوسي الضراط ، ومحمد الفقي ومن غيرهم .



صورة قصر مصراته الذي اجتمع أمامه وقتئذ الناس ، وأطل عليهم من شرفته المرئيـة صفي الدين فأعلن لهم عزل رمضان وهجره .

عندما شعروا بسفر صفي الدين إلى ورفله لانضمام أكثر المصراتيين لرمضان ، خافوا أن ينكل بهم لعدم تأييده ، ففروا ليلاً ناجين بأرواحهم إلى سرت ، التي كان الطليان قد جلا عنها بعد القرضابية فاحتلها السنوسيون ، ووصلوا إليها قبل أن يدركهم رجال رمضان للقبض عليهم .

الفصل الرابع عشر

عادة السنوسيين في الحرب والسلم

ولكي لا نرمي في هـذه المناسبة بالتجني على السنوسيين في سلوكهم المنحرف عن جادة الصواب ، مع الفزازنة والطرابلسيين ، في أوائل العهد الإيطالي ، وخاصة ما قام به محمد العابـد وخادمه هاشم الزوى ، الملقب نفسه بكلب السيد ، من استيلائه على غنائم سبها ودرج وغدامس ، نسوق بهذا الصدد اقتباسات ، مما قال عنهم الأديب المؤرخ (محمد سعيد القشاط) ، في جريدة الثورة التي كانت تصدر بمدينة طرابلس ، وذلك في عددها المؤرخ يوم (١٦ نوفمبر سنة ١٩٧٠ م) وفي هذا النقل الحرفي العبر التاريخية لمن كانوا يحسنون الظن بدعاة الزهد في الدنيا والتجرد للعبادة ، وانصافاً لرمضان في نزاعه مع صفي الدين وأعوانه ، ودلالة على نزاهتنا بعدم التحيز لطرف دون آخر فيما نكتب .

وتحت عنوان (السنوسيون يحبسون خليفـــة بن عسكر) نشر الأديب القشاط في عدد الجريدة المذكور ما يلي بالنص الحرفي قائلاً : « كان من عادة

السنوسيين في الحرب والسلم – وهذا ليس تحاملاً مني – يجلسون في المؤخرة ، ويأخذون الجد في القتال ، فإذا انهزم المجاهدون ، كانوا أول النازحين ، وإذا انتصروا تقدموا للاستيلاء على الغنائم ، انهم أولياء بيت المال ، وعلى هـــذا الأساس عندما استولى سالم عبد النبي الزنتاني على قلعة سبها، جاء عابد السنوسي الذي كان يقطن (وادي واو) ، ويبعد أكثر من (٥٠٠) كيلومتر عن محــل الواقعة ، يطالبه بإرسال جميع الغنائم التي وجدت في القلعة ، وفعلاً بعث سالم ابن عبد النبي ، على ظهر ثلاثمائة بعير إلى عابد في (وادي واو) ، جميــع ما استولى عليه من الغنائم ، عابد هذا الذي لم يطلق ولا رصاصة واحدة في الحرب الليبية الايطالية ولا غيرها .

وعثرت على الرسائل المتبادلة بين عابد [١] وسالم ، يعتذر في احداها عن عدم إرسال الصابون ، لأنه توزع على المجاهدين ، فيرد عليه عابد أن لا بد من إرسال الصابون أو ثمنه ، ولا أدري ماذا فعل سالم .

وعلى هذا المنوال فعل صفي الدين أو أنه أراد أن يفعل ، إذ طلب من رمضان السويحلي أن يسلمه جميع الأسلحة المغنومة لإرسالهـا إلى الجغبوب ، وقد حاوره رمضان كثيراً لإقناعه ببقاء الأسلحة في مصراته لمواصلة الجهاد ، لأن المجاهدين في أشد الحاجة إليها ، وقال له إذا لم أكن محل ثقة عليهــا ، فلنعين أربعة أشخاص يتولون مهمة حراستها وتسليمها للمجـاهدين الأحوج إليها والمباشرون للحرب ، فلم يرض هـــذا صفي الدين ، ودخل أتباعــه مصراته يسلبون الناس بسطهم وأوانيهم بحجة أنها ترضي السيد ، وهنا ثار رمضان في وجوههم ، وطرد صفي الدين من مصراتــه ، فأصدر السنوسيون عليه حكم المنبوذ .

---

(١) عابد هذا اسمه الكامل (محمد عابد السنوسي)، وهو أخ لكل من السيد أحمد الشريف وصفي الدين ووالد عبد الله عابد السنوسي الشهير في العهد الملكي الغابر بليبيا .

وعندما سمع عابد بمعركة (أم زمزم) وانتصار المجاهدين في سناون ودِرْج وخروج الطليان من غدامس ، بعث بتابعه (هاشم الزوي) ، الذي كان يوقع باسم (كلب السيد) إلى غدامس ليستولي على الغنائم باسمه ويرسلها له ، ولما لم يجد غنائم صار يستولي على أموال الناس بالقوة ، وقد حدثنا كبار السن في غدامس ، أنه خرج منها بحمولة ثلاثة من الإبل ذهباً ، وقد فعل من قبل هذا ، أن مر بالمقارحة فقتل احد رجالها لأنه رفض أن يزوجه إبنته ، وتزوجها غصباً بعد قتل والدها وساق له إبله » .

ويقول الأخ (القشاط) عن مسألة حبس البطل خليفة بن عسكر ، في مقال الجريدة المتقدم ذكرها ما يأتي بالنص « ووصل هاشم الزوي الملقب بكلب السيد إلى نالوت ، ليستولي على غنائمها ، وأكرمه ابن عسكر ، وجلس هاشم في السوق يطلب من الناس أن يجمعوا كل ما أخذ من الطليان ، ومن يخف شيئاً على قوله (يدقه سيده) وصدق بسطاء الناس دجله ، وجمعوا ما أخذوه من أسلحة وعتاد ، وبعد جمعها أخذها ابن عسكر ووضعها في قصر نالوت ، على أساس ان الحرب في الساحل لا في الصحراء ، فخرج كلب السيد غاضباً ، ومعه خليفة ابن عسكر مشيعاً له ، ولما وصل (الحرابة) أمر هاشم أتباعه بالقبض على خليفة ابن عسكر وأرسله مقيداً إلى الزنتان في حراسة اثنين من أتباعه ، حيث أودع السجن في منزل الحاج أحمد المختوش ، ونزل هاشم واستولى على جميع ما في القصر ، وقبض على بالقاسم خبشة المعين على الجوش من الشيخ سوف ، كما قبض على الخنجاري وربطه في فوهة مدفع » .

وإلى هنا نكتفي بما ذكر الأخ القشاط عن عادة السنوسيين في الحرب والسلم ، وابتزاز عابد لغنائم الجهاد من كل جهة ، ونقلها إلى (وادي واو)

بواسطة جرائم كلبه هاشم الزوي باسمه هو ، وقد ظل بطل الجبل خليفة ابن عسكر سجيناً إلى أن أطلق سراحه الحاج أحمد المحتوش ، بتدخل من الشيخ سوف المحمودي ، وأخيراً تفاقمت سيئات ومظالم (هاشم الزوي) ، فألقي عليه القبض في الزنتان وأرسلوه مقيـداً إلى مزدة لأحد السنوسيين الكبار فيها ، وهو أحمد السني ، الذي بعثه إلى محمد العابد في (واو) .

الفصل الخامس عشر

فتنة التواتي ضد رمضان ونتائجها

وما مر بنا عن السنوسيين وأعوانهم ، في محاولاتهم التعسفية ، أن يستأثروا وحدهم بكل الغنائم المكتسبة من الطليان ، في مصراته وفزان ونالوت وغيرها، وإساءتهم بسببها عن طريق رجالهم ، إلى أبطـال وزعماء البلاد ، يدل ذلك دلالة واضحة ، على أن تصوفهم وتظاهرهم للعامة ، بالزهد في الدنيا وخدماتهم للدين والوطن ، إنما هو رياء للناس وتضليل للبسطاء السذج ، ولم يكونوا في حقيقة أنفسهم بهذه الصفات الذميمة ، أهلاً لأن يتولوا أمر وقيادة الشعب الليبي في أوقات محنته بالغزو الإيطالي .

ولو كانوا قد عملوا بإصالة الرأي في مسألة الغنائم ، التي لم يضحّ كبراؤهم فيها بشيء ، لحرصوا في مطالبتهم بها، على احترام الناس لمكانتهم الدينية ،وفاوضوهم بأمرها بالتي هي أحسن قائلين لهم مثلاً ، خذوا ما ترون أنكم في أمس الحاجة إليه لظروفكم الحربية ، وأعطونا نحن منها كذلك ، ما لا غنى لنا عنه ، إذ كلنا مجاهدون لعدو واحد ، وليس بيدنا ما نقاتله به في شرق وجنوب ليبيا ،

سوى تحصلنا على نصيب مما أفاض الله به عليكم من أسلحته ومعداته ، ولكنهم جاءوا وألسنة أحوالهم تردد العبد وما ملكت يداه لسيده ، فاستحقوا بهذا القصد الكراهية من الجميع .

ومما لا شك فيه أن عدم تسليمهم في مصراته ، بوجهة نظر رمضان في جباية الضرائب والاحتفاظ بالغنائم ، وممانعة نقلها إلى برقة ، قد جعلوا برفض رأيه بهذا الخصوص وإعلان هجره في عقر داره ، جعلوا بهذا تصدعاً كبيراً في وحدة الصف الليبي ، وأنكروا عليه ما بذل من التضحيات والمغامرات في سبيلهم وللوطن بمعركتي بوهادي والقرضابية ، ولو أنهم جادلوه في الموضوع المتنازع عليه بالتي هي أحسن ، على ضوء مصلحة الطرفين لفازوا منه بكثير من مطالبهم .

لذلك ما كاد صفي الدين وأتباعه ، يوم اجتماع الناس أمام القصر ، يرون انحيازهم الساحق إلى جانب رمضان ، حتى أدركوا أن بقاءهم في مصراته بعد الذي جرى لهم فيها ،أصبح لا معنى ولا فائدة له ومحفوفاً بالخطر ،فعجلوا بالذهاب إلى ورفلة ، وقلوبهم مليئة بالحنق على رمضان ، ولما وصلوا إلى بني وليد وقابلهم أحمد التواتي ، عرّفوه عن الأسباب التي أرجعتهم بلا شيء مما كانوا يأملون الحصول عليه من مصراته ، وعرفوه عن موقف رمضان المانع لمطالبهم الثلاثة ، وتأييد أهل بلده له في معارضته إياهم .

وعلى ضوء هذه الحوادث الخطيرة ، تدارسوا ما قد ينشأ عن رضوخهم لرمضان من المضاعفات السلبية في بقية المناطق ، فقرروا كما سيأتي اتخاذ الوسائل الفعالة للتخلص من رمضان ، حتى يكون ذلك تحذيراً وعظة ، لمن تحدثه نفسه في المستقبل من الرؤساء المحليين ، أن يقتدوا به في الخروج عن طاعة السنوسية .

وتفتق ذهن التواتي ، المتسيطرة إرادته دائماً ، على صفي الدين لصغر سنه

وقتئذ وقلة تجاربه، عن تدبير خطة إجرامية لزحزحة رمضان ليس من مصراته بل من الدنيا بتاتاً . ولو تمكن من تنفيذ خطته الجهنمية ، لأوقع ليبيا كلها في حرب أهلية ، وتقديمها لقمة سائغة لعدوها الطليان .

فقد ذهب هو وصفي الدين وحاشيتهما إلى ترهونة . وكان زعيمها أحمد بك المريض[1]،قد احتجزه الطليان فيمدينة طرابلس،رهينة لضمان الهدوء من ناسه، وكان قائمقام ترهونة في غيابه هو أخوه محمد بك الصغير ، فتلقى هذا صفي الدين والذين معه بالحفاوة الكبيرة ، وشمله مع أتباعه بحسن الضيافة والإكرام ، ومن ترهونة بعث التواتي باسم صفي الدين ، لزعماء وأعيان الجهات الغربية رسائل تدعوهم في الظاهر للتشرف بالزيارة والتعرف بالسيد صفي الدين، وفي سر التواتي يريد بقدومهم ، أن يستعين بهم على أمر دبر بليل لرمضان، ظاناً أنهم سيكونون أطوع له من بنانة فيما يأمل منهم تحقيقه له .

ثم انتقل[2] هو وصفي الدين وحاشيتهما إلى مسلاته وعيّن لها صفي الدين قائمقاماً من طرفه محمد بك الصغير المريض ، كما عيَّن بعد تركه مصراته قائمقاماً على زليتن أحد أعيانها من أولاد الشيخ ، وهو السيد عبد الله بن أحمد بن ادريس الأشهب ، وفي مسلاته جاءه الذين تلقوا رسائل التواتي ، وكان من بينهم الشيخ محمد بك سوف زعيم المحاميد ، والشيخ العالم المنصوري عن جنزور ، وسلطان ابن شعبان عن زوارة وغيرهم من مختلف الجهات .

وقد أظهرت هذه الوفود ، لصفي الدين عند التعرف عليه ، كل الإجلال والترحيب اللائقين بمنزلته الدينية . وفي هذا الاجتماع الحاشد بينما كانوا ينتظرون

---

(١) عن رواية الحاج سالم بن محمد بك الصغير المريض للمؤلف مشافهة بخصوص علاقة والده بصفي الدين في استقباله وتعيينه وحجز الطليان لعمه رهينة .

(٢) راجع تاريخ ليبيا العام الجزء الثاني (ص ١١٥) الطبعة الأولى .

التناقش في أحوال الجهاد والبلاد بصفة عامة ، فوّت عليهم التواتي هذا الأمل ، بأن قام يسمعهم ويذكرهم ببيت شعر ، طالما يردده دعاة التفاني بحب آل البيت ، كلما رأوا قوماً ليسوا على نحلتهم المذهبية بالتشيع لسيدنا علي وأبنائه ، وإشارة إلى أن هؤلاء المخالفين لهم بذلك الحب ، ليسوا بمستحقين يوم القيامة ، أن ينادوا على الرسول الكريم ، بأن ينقذهم بجاهه عند الله من عذاب النار ، ونص البيت هو :

أترْجُو أمّةٌ قَتَلَتْ حُسَيْناً شفَاعَةَ جَدِّهِ يَوْمَ الحِسابِ

وكان التواتي يهدف بهذه المقدمة الخبيثة ، الإيحاء باعتبار رمضان في تمرده على إطاعة الأوامر السنوسية ، بمثابة زيد بن أبيه أو عبد الله بن زيد الذي قتل الحسين في واقعة كربلاء ، وأن المصراتيين المؤيدين لرمضان ، كالأمويين في الشام المقلدين لزياد وابنه في ولاية العراق .

واستغرب مجتمع الوفود الغربية ، من تقديم الكلام معهم بهذا اللغز الشعري ، ولم يلبث أن أسمعهم ما هو أشد غرابة بسؤاله إياهم ، وهو بحالة غير طبيعية ، ماذا تقولون عن رجل أهان أشراف آل البيت السنوسي ، وخرج عن طاعة حكومتهم ، أيحارب حتى يقتل أم لا .

وأدرك الجمع من قرائن الأحوال والظروف المتأزمة ، ما يعنيه بهذا التلميح المغني عن التصريح ، أنه يقصد به رمضان ، الذي قاتل الطليان معهم هو وأخوه في قصر بوهادي ، وبتضحياته الكبرى كان النصر المبين لعموم المجاهدين في القرضابية ، وجزاؤه الآن على كل ذلك أن يستحق القتل من إخوانه الطرابلسيين .

وتقدم الشيخ العالم عمر المنصوري للتواتي مخاطباً إياه ، إننا لم نعرف من هو الشخص المراد أن نجيب عنه بلا أو نعم ، ولما أخبروا أنه رمضان السويحلي ، قال أنتم طلبتمونا للزيارة ، ولو ذكرتم في الرسائل مضمون السؤال الآن

وحقيقة المعني به ، فاما أن لا نوافق ونبقى في ديارنا ، وإما أن نأتي بسلاحنا واستعدادنا الحربي .

وإذ رأى التواتي أن فكرته الخبيثة لم تفز بالقبول ، غلى دم الحنق والغيظ في عروقه وأصر على ضرورة حربه ، فأخـــذ كل من الشيخ سوف والشيخ المنصوري وبعض الحاضرين ، يهدئونه بالكلام اللين اللبق ، وأخيراً استأذنوا صفي الدين ، بمقابلة رمضان ومعرفة وجهة نظره ، ثم بعد ذلك يعرضونهـــا عليه ، ويقول هو رأيه في المسألة .

الفصل السادس عشر

فشل مكيدة التواتي وإعدامه بمصراته

وعند فندق الزدام غرب زليتن ، اجتمع برمضان كل من الشيخ محمد بك سوف والشيخ العالم عمر المنصوري ، وزعيم زواره سلطان بن شعبان ، فتحدثوا إليه عن الدوافع التي جاءوا من أجلها إلى مسلاتة ، وعن نيات التواتي السيئة لاشتراكهم معه في أمور ، يرجون الله أن يقي البلاد من شرها ، وان قصدهم من مقابلته هو لفهم الحقيقة عن اختلافه مع السنوسيين ، ليحكموا برأيهم في هذا النزاع الأسيف .

فاطلعهم رمضان بالتفصيل على مطالبهم منه ، وعن أسباب عدم استجابتهم فيها ، وانه إذا كان صفي الدين يقصد بطلبه منه ، هو للقيام بواجبات الجهاد مهنا ، فليأخذ له هو وأصحابه جبهة قتال في طرابلس ، عندئذ يكون مستعداً ليقدم إليه ، جميع ما يحتاجه من تلك الغنائم ، وانه بغير هذا القصد فلن يعطيه شيئاً .

فودعوه ورجعوا إلى مسلاتة ، مقتنعين بصواب ما قاله رمضان ، وأفادوا صفي الدين أنهم لم يجدوا في كلام رمضان ، ما يستحق أن يؤخذ عليه

وأخبروه فكرته المشروطة بمنحهم من الغنائم ، ولكن التواتي أصر على ضرورة حربه ، مما يدل على أن صفي الدين كان معه صفراً على الشمال ، فما كان من الوفود الغربية إلا أن عاتبت صفي الدين ، لتركه التواتي يوغل في سياسته الخاطئة ، التي يريد بها جر البلاد إلى هاوية التناحر الدموي، شفاء لغليله الشخصي من رجل عظيم باسل . ولم يرد لشعبه سوى الخير والصلاح والسؤدد .

ثم غادرت الوفود مسلاتة إلى ديارها ، وكلها مقدرة لشهامة رمضان وحرصه على مصلحة وطنه وأهله ، وانطبعت في أذهانهم أسوأ فكرة عن مآرب السنوسية من دخولهم إلى طرابلس ، ومرة أخرى بعد يوم مصراته أمام قصرها ، وجد صفي الدين نفسه في مسلاته ، انفض الناس من حوله أيضاً ، وليس له فيها من قرين سوى نائبه قرين الشؤم والنكد ، وقد اضطرب الاثنان هلعاً ، مما ستفاجئهما به الأيام ، وصدق حدسهما فقد أعلما أن رمضان ، بعد أن ذهبت الوفود من مسلاتة ، يريد المجيء إليها لأخذها بقوة حربية ، ففر صفي الدين والتواتي من وجهه إلى ترهونة .

ولما شعرا أن البلدة غير مرتاحة لوجودهما فيها بعد أن فشل مؤتمر مسلاته ، ارتدا عنها مع اتباعهما إلى ورفلة ، وأرفقهم محمد بك الصغير المريض ، بحراسة قوية من الفرسان ، كما تقضي بذلك الشهامة العربية ، بصفتهم كانوا من ضيوفه واحتراماً لمكانتهم الدينية .

وعندما دخلوا ورفلة وبني وليد ، أخبروا أن أحمد سيف النصر قد غادرها إلى سرت محملاً مما استطاع نقله من الغنائم ، ووجدوا أمامهم عبد النبي بالخير غاضباً ، من تصرفات التواتي المهينة له سابقاً ، فأصابهم الخوف من عدم استنادهم للبقاء بورفلة على حماية كافية لهم ، لا

سيما وقد عرفوا أن رمضان سيطاردهما ، ففر صفي الدين إلى برقة ، ولكن التواتي القى عليه القبض ، عبد النبي بالخير وأرسله لرمضان في مصراته .

وعقب [1] رحيل صفي الدين إلى المشرق ، كان رمضان قد أرسل قوة إلى زليتن لتنحية قائمقامها السنوسي المتقدم ذكره في (ص ١١٠) ، فعارض عزله أنصاره من أولاد الشيخ ، بينما وقف الفواتير يؤيدون رمضان في عزله .

وبسبب هذا الاختلاف لجأ كل منهما لتنفيذ رأيه بالعنف والإرغام ، فنشبت بين الطرفين من أجله معركة بالسلاح الناري ، وسقط فيها بعض القتلى والجرحى من كلا الحزبين ، وانتهى الحرب بتغلب الفواتير ، وقيل حقناً للدماء أرسل رمضان إلى زليتن شخصين أحدهما من عائلة المناقشة ، والآخر من عائلة بيت المال ، أمنا القائمقام السيد عبد الله ابن إدريس الأشهب على نفسه ، فتنازل عن وظيفته حسماً للنزاع ورجعا به لمصراته ، وفيها عقد له وللتواتي مجلس من علماء المحكمة الشرعية العليا ، وبعدما حاكمتهما بتهمة إثارة الفتنة والفرقة بين المسلمين أبناء الوطن الواحد ، قررت جواز إعدامهما فأعدم الاثنان بالمواطين أمام قصر الحكومة شنقاً ، ولئن صح ما قيل من أن السيد عبد الله الأشهب ، قد منح الأمان على نفسه فاستسلم ، فإن إعدامه بعد ذلك يعتبر نقضاً للعهد الذي يجب أن يفي له به .

وأما إعدام أحمد التواتي فهو جزاء ما حاول أن يجعل طرابلس من

---

(١) اخذاً من كتاب برقة العربية ، ومن رواية فضيلة القاضي الشيخ السنوسي الأشهب الزلتيني ومن غيره .

أدناها إلى أقصاها تحترق أرضها بنيران الحرب الأهلية الطاحنة ، بدلاً من أن تكون صامدة في نضالها للعدو كصمودها له أيام الهاني والقرضابية والتواتي منذ مجيئه إلى مؤتمر مسلاتة كانت حركاته وسياسته تنم على أنه يطمع ، في أن يصبح باسم السنوسيين الحاكم المطلق في القطر الطرابلسي ، وانه يتخذ صفي الدين درئاً وعوناً لمآربه الاشعبية ، بدليل أن الوفود استنكرت من صفي الدين ، مطاوعته وموافقته للتواتي في كل ما يشير إليه ويأمر .

وأنه لما سمع وهو في سرت عن نفوذ رمضان الأدبي والشعبي في مصراته وقوة شكيمته ، عمل لأن يستفزه لاضعاف شأنه ، فغزا مواشيه من بادية مصراته وعارض فكرته على لسان (عمر بو دبوس) بأن ينسحب البرقاويون قليلاً إلى شرق بو هادي ، لإبعاد حملة مياني عن مدينته سرت ، وعمد إلى بث الشكوك بين اتباعه البرقاويين ، عن عدم اخلاصه لهم ضد الطليان ، وهو صاحب الرأي النافذ في الطلب بانتزاع جميع الغنائم من بني وليد ومصراته ، وعندما عارض رمضان صفي الدين في مطالبه بالمنطق السليم ، فما كان من التواتي إلا أن أعد خطة القضاء عليه ، كما رأينا مما حصل في اجتماع مسلاته ، وهكذا لا يحيط المكر السيىء إلا بأهله .

الفصل السابع عشر

خصام رمضان وترهونة ومضاعفاته

وما كاد رمضان يتنفس الصعداء ، من نزاعه مع السنوسيين على الكيفية التي علمناها ، حتى جدت له حوادث داخلية خطيرة مع أسرة المريض ، أدت إلى الاشتباك المسلح بين البلدين (مصراته وترهونة) ، دام نحو أربعة أشهر بحالة غير متواصلة في القتال ، وليست ذات دماء غزيرة ، ولم يشترك فيها غير الجهتين ، وكان هذا الخصام راجعاً لأسباب عاطفية وسياسية . منشأه التنازع على السلطة في إحدى المراكز الهامة ، وما تولد عنها من مضاعفات وحوادث أخرى .

فمن المعروف عاطفياً أن آل المريض زعماء ترهونة ، هم اخوال بالقاسم المنتصر الذي اغتاله رمضان ، ولهذا السبب وجدناهم قبلوا أن يكون قائمقاماً عليهم بترهونة ، أحمد بن عمر المنتصر ، باعتباره حفيد ابنتهم المسماة (دبلج) [1] ، المتزوج بها في مصراته (مصطفى الأدغم) اليدري ، ووجه

---

(١) هناك قصتان غريبتان عن زواج الأدغم بالفتاة (دبلج) من جهة شرط مهرها وعن =

القرابة في هذا الكلام ، فإن دبلج لما جاءتها بنت من الأدغم وكبرت تزوجها عمر المنتصر وكان اسمها (فاطمة) وهي أم أولاده الأربعة المذكورين في أول الكتاب وبسبب صلة آل المريض بابن حفيدتهم المغتال ، لم يكونوا يحملون في قلوبهم لرمضان ، أدنى عاطفة من المحبة والتقدير ، ويحسون بالغضاضة والألم المبرح لعدم أخذ الثأر منه .

وأما الأسباب السياسية الناشئة من الخصام ، فمن الأمور التي جرت بعد القرضابية ، وجلاء الطليان عن مصراته ، أن انضمت لحكم رمضان جميع البلدان والمناطق ، التي كانت تشمل في العهد التركي متصرفية الخمس . من شرق سرت جنوباً ، إلى القربوللي وقصر خيار وقماطة شمالاً ، بما في ذلك زليتن ومسلاته وساحل آل حامد (ما عدا مدينة الخمس ، المتحصن فيها الطليان) ، وبناء على هذا الانضمام ، عين رمضان في أواخر سنة ١٩١٥ الحاج فرحات بن ابراهيم القاضي ، نائباً عنه في مسلاته .

وباقتراب نفوذ السويحلي في مسلاته إلى ترهونة ، تحركت في نفوس آل المريض أسباب تلك العواطف السيئة نحوه ، والكراهية الشديدة له ، ومع انه قيل وحسب المفهوم ، أن هذه الكراهية قد تناقصت أو زالت من قلوبهم ، لتأكدهم من سيرة بالقاسم المعوجة ، ولتآخي أبناء الوطن جميعاً ، على كفاح عدوهم الطليان ، فإن مسلاته من الناحية الحيوية لا غنى لترهونة عنها ، لارتباط البلدين في كثير من الأمور الاجتماعية والاقتصادية ، ولتجاور أراضيها في الحدود العقارية ، فلما جاء صفي الدين لترهونة ، عين محمد بك الصغير المريض قائمقاماً على مسلاته ، فجعل فيها مندوباً عنه

= كيفية زواج عمر المنتصر بابنتها (فاطمة) ، لم نتعرض لها لخروجها عن مجال هذا البحث ، غير ان الحاج سالم المريض ، قال لنا أن حكاية شرط المهر لدبلج قصة خرافية لا أساس لها من الحقيقة ، والسر في تزويج جدهم إبنته (دبلج) لمصطفى الأدغم انهما كانا صديقين ، وشريكين لعبد الجليل سيف النصر في حربه للترك .

كما تقدم ، واضطر فرحات القاضي النائب عن رمضان أن يترك مسلاته حتى تنجلي الأمور .

ولما فشلت مكيدة التواتي في المؤتمر ، وقضى عليه رمضان في مصراته ، وترك صفى الدين ورفلة إلى برقة ، بعد ذلك أعد رمضان قوة استرجع بها مسلاتة إلى حكمه مرة أخرى ، وفر نائب آل المريض منها إلى ترهونة ، ولهذا التطور وقعت الحرب بين الطرفين ، لتخاصمها على تولي السلطة ، وكان وقوعها في شهر أغسطس سنة ١٩١٦ م[١] ولكن لم يتجاوز القتال فيها حدود بعضها ، وترجع أهمية مسلاته لرمضان ، كونهـا تبعد عن مدينة الخمس المتحصن فيها الطليان بمسافة (٢٥) كيلومتراً ، وهي مركز متوسط للمواصلات ، بين الجهات الشرقية « زليتن ومصراتـه وسرت » ، والجهات الشمالية الغربية « ساحل آل حامد وقماطة والقربوللي » ، ولذلك اتخذ رمضان قرب مسلاته ، في « المقازه » بأرض شقران ، مركزاً جهادياً

(١) وفي هذه السنة (١٩١٦ م) وقعت أيضاً مع الأسف الشديد في الجبل الغربي ، حرب قبلية وعنصرية طاحنة ، بين الزنتان والرجبان من جهة ، وبربر جادو ونالوت وتوابعهما من جهة أخرى ، أزهقت أرواح المئات ، وخربت البنيان والعمران ، ونحن نشير اليهـا بهذه المناسبة ، إذ ذكرها قبلنا بعض المؤرخين الطرابلسيين في كتاب له مشهور ، كما تحدث عنها غرسياني في كتابه (نحو فزان) ، وقيل أن سببها تعيينات جهوية ، في إحدى المناصب الادارية ، قام بها أحد زعماء الرجبان المكلف لذلك ، من الحكم الوطني في غرب طرابلس ، فآثر في التعيين أحد أصدقائه من البربر ، دون شخص آخر من جنسه يفضله هؤلاء عنه ، ولما تغلب الزنتان والرجبان على البلدان المذكورة هاجر منها أبناؤها إلى اخوانهم في الجنس في زوارة ، ثم في سنة ١٩١٩ م حسبوا أن احوال الفتنة قد هدأت بتغير الظروف فرجعوا الى أوطانهم ، ولم يرض خصومهم بعودتهم فقامت بينهم بدسائس الطليان حرب ثانية ، اضطر معها خليفة بن عسكر مروءة وشهامة ، أن يشترك بجانب اخوانه النالوتيين ، وانتهت بين الطرفين سنة ١٩٢١ م . هذا والحروب الداخلية بين ابناء الشعب الواحد مملوء بهـا التاريخ العالمي ، واحفاد الطرابلسيين من ذرية أولئك المتخاصمين في الجبل هم الآن اخوة متحابون ومتساندون في الوطن بالعلم والعمل ، وهم حريصون على أن لا ينتقل تجافي الآباء الغابرين ، إلى ابنائهم واحفادهم الحاضرين لأن الفتنة نائمة ولعن الله من يحاول ايقاظها بين المسلمين وابناء الوطن الواحد .

قوياً ، لحماية خطوط مواصلاته ، وصد هجمات العدو عنها ، وكان هو يتردد على مسلاته باستمرار واعتبار مدينة القصبات العاصمة الثانية لحكمه بعد المواطين بمصراته .

والشيء الجدير بالملاحظة والذكر ، أن مناوشات مصراته وترهونـــة الحربية لم يمت ويجرح فيها من الطرفين أعداد كبيرة ، وأكبر الخسائر في الأرواح ، كان من أهل مسلاته ، بسبب كون فريق منهم يريد ترهونه وفريق منحاز لمصراته ، وقيل كان التراشق فيها ، بالشعر العامي الهجائي بـين الصفوف المتقابلة ، أكثر من التراشق بنيران البنادق .

المضاعفات الناتجة عن التخاصم :

وقد نشأت عن التخاصم الترهوني المصراتي ، بعض المضاعفات القتالية والسياسية ، كان من أهمها أن مغامراً ترهونيـــاً شهيراً ، وفارساً نهاباً بمنزلة الشتيوي السويحلي اسمه (عمر فحيج الفرجاني) ، وهو والد (علي فحيج) الشقي الذي ذاع صيته جنوب طرابلس ، زمن الإدارة البريطانية فيها سنة ١٩٤٩ م (١) ، فانتهز عمر فرصة خصام البلدين ، وجمع نحو تسعين فارساً من قبيلته ، واعد بهم غزوة كبيرة على إبل مصراته ، السارحـة قريباً من أرض زليتن .

ووصل الخبر لفرجان زليتن اقرباء الأولين في الأصل والدم ، فانذروا اخوانهم المصراتيين بصفتهم متحالفين معهم على حكم رمضان ، ولم يلبثوا إلا وقتاً قليلاً حتى فوجئوا بالغزو الفحيجي بقيادة رئيسه عمر ، ودارت بين الطرفين في مكان يسمى (قرارة الحصحاص) معركة حامية الوطيس ،

---

(١) الرواية عن السيد سالم بن محمد بك الصغير المريض المتقدم ذكره ، وعن المجاهد الفيتوري الزليتني الحاج محمد بن مفتاح شماعة وقد حضر غزوة فحيج .

ألهب نيرانها التباغض الجهوي ، وشراهة مكاسب الغزو ، وقوة الدفاع عن الإبل ، التي نفق أكثرها برصاص المتلاحمين في المعركة ، لأن المقاومين للغزو ابركوها وتحصنوا وراءهـا في الرماية ، ولم ينج فيها سوى بضع جمال .

ولما تكاثر المحاربون المصراتيون وانصارهم على جماعة (عمر فحيج) ، وظهر تفوقهم على رجاله ، أراد أحمد فحيج بن عمر ، أن يفر من المعركة لتأكده أنها لم تبق في صالحهم ، فما كان من والده إلا أن بادر فقتله ، خوفاً من أن يلحق فراره باسرته العار بالجبن والخوف وعدم الثبات في أصعب الأوقات ، واستمر هو وبقية رجـاله يناضل خصومه كالأسد الهائج .

وحين شعر أن رجاله لاحت على وجوههم ، دلائل الوهن في القتال والميل إلى الانسحاب ، صار يشجعهم قائلاً : « اتقوا بيه ما حاجة بيه ، اتقوا بيه ما حاجة به » يقصد إذا كنتم خائفين على أرواحكم أيهـا الجبناء اتقوا بي في قتالكم من الرصاص ، لأنني لم يبق لي مآرب في الحياة ، وظل يكافح إلى أن قتل أيضاً في هـذه المعركة الفاشلة بالنسبة للغزاة الفرجان .

والشائع أن هذا الغزو منسوب إلى أهل ترهونة ، بتأييد وتشجيع آل المريض في حين أنه لما بلغ أحمـد بك المريض ، ما فعله عمر فحيج ورجاله تكدر من ذلك جداً ، وقبل انتهاء المعركة دعا الله أن لا يردهم منها سالمين ، ويظهر أن دعوته كانت خالصة النية ، فلم يرجع منها عمر فحيج حياً ، ولا أصاب رجاله من الغزو ما كانوا يرجون منه وفقدوا الكثير من صناديدهم ، ومن فرسان الزليتيين الفرجان المتحالفين مع مصراته كان الرجل الشجاع المسمى (علي غماس) .

ومن المضاعفات السياسية ، التي نشأت عـن هذا النزاع (المصراتي الترهوني) ، أن رمضان بعد أن تغلب على السنوسيين فرجعوا إلى برقة ، كان قد احتل منهم سرت ووضع السيد حسن الشريف قائمقاماً عليها ، ولما سمع السنوسيون بحربه مع ترهونة ، انتهزوا فرصة انشغاله مـع خصومه ، فاحتلوا سرت مرة أخرى بقيادة (صالح الاطيوش) ، وفر حسن الشريف لمصراته .

الفصل الثامن عشر

عودة الباروني والترك وأثرها

وفي أثناء الخصام الترهوني ومضاعفاته ، وقيامه على الوصف السابق ، فوجىء رمضان وهو في مسلاته بعودة الترك والباروني ، على أثر استماعهم فوز الطرابلسيين الباهر ، في معركة القرضابية ، قادمين من استانبول في غواصة المانية ، ونزلوا منها في مصراته في ابريل سنة ١٩١٦ م ، وكان من أثر هذا القدوم واتصال الباروني برمضان ، أن توسط له مع السنوسيين فتركوا سرت وعاد حكمها لرمضان كما بذل الباروني مساعيه الحميدة مع طرفي النزاع الترهوني حتى تم بينهما التصالح .

وكان في نفس العام المذكور ، قد اتصل في برقة بالسيد أحمد الشريف كل من عبد الرحمن عزام ، ونوري باشا شقيق أنور باشا ، وزير الحربية التركية ، في الحرب العالمية الأولى ، وأحضر نوري للسيد أحمد أموالاً ذهبية غزيرة وأوسمة وفرماناً (مرسوماً) من السلطان محمد رشاد ، بأنه وكيله السلطاني بليبيا ، ثم ما زال هو وعزام يحرضانه على إعلان الحرب على الإنجليز ، حتى

انقاد لهما ، فلما هجم عليهم في السلوم وفشل لهزيمتهم إياه عنـدئذ صالح الإنجليز ابن عمه السيد محمد ادريس ، والتجأ هو مرغماً للرحيل فذهب إلى استانبول بإحدى الغواصات ، وترك بعده نوري وعزام برقة ، وقدم الاثنان إلى مصراته في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩١٦ م ، وجاء إليها فيما بعد البرنس (الأمير) عثمان فؤاد نائباً عن سلطان تركيا في طرابلس ، ليمنع اختلاف الزعماء فيها على النفوذ القبلي ، وأتى معه بمرسوم (فرمان) ، معين به رمضان السويحلي متصرفاً للخمس وكانت تشمل جميع المناطق التابعة لها من قبل في العهـد التركي ، والتي كنا أشرنا إليها عن أسباب الخصام الترهوني .

وفي الحقيقة لم يكن القصد من رجوع الترك ، إلى برقة وطرابلس أثنـاء الحرب العالمية الأولى ، سوى اتخاذ الليبيين وسيلة ، ليشغلوا عنهم دفاع الإنجليز عن قناة السويس ، أمام الجيش التركي الزاحف على مصر من الشرق بطريق فلسطين ، وليخففوا ضغط القوات الايطالية في أوربا عن حليفتهم النمسا .

وبوصول الباروني وأولئك الأتراك وعزام إلى مصراته بواسطة الغواصات ، تلقاهم رمضان بالحفاوة البالغة والفرح والإكرام ، مع فهمه بذكائه الحاد غايتهم السياسية التي يرجونها لأنفسهم من وراء هذا المجيء ، وهيأ لهم جميعاً في مصراته أسباب الراحة والطمأنينة في كل شيء ، فقد اعتبر حضورهم إليه تأييداً له ولأبناء شعبه في أقسى وأحرج أيامه النضالية ، ووجد في توارد الغواصات الألمانية ، وفيما يدفعه جوفها من القطع والمهمات الحربية وغيرها ، كذلك قد ساقته إليه العناية الربانية ، جزاء ما ضحى في سبيل الله والوطن بالنفس والنفيس .

وكانت (١) الغواصات وهي آتية إلى مصراته من استانبول ومن النمسا

---

(١) هذا عن كتاب (حياة سليمان باشا الباروني) الطبعة الثانية (ص ٨٧ و٨٩) وذلك فيما يختص بتنقلات الغواصات ذهاباً وإياباً .



صورة السيد أحمد الشريف السنوسي ، القائد العام لمجاهدي برقة
والذي حاول الاستيلاء على السلوم ولكنه فشل

بطريق البحر الأدرياتيكي ، تحمل أنواعاً شتى من الأسلحة الخفيفة والعتاد الحربي وصناديق الذهب والنقود المعدنية ، ولوازم الطب والصحة ، وأجهزة المخابرات البرقية ، ومعها الضباط الترك والألمان ، وفي سفرها عائدة للنمسا تحمل بالشراء من الأهالي ، التمر والبلح ، وأوبار وأصواف الإبل والماعز والغنم ، والزيت والبيض واللحوم والفواكه .

ومن البديهي أن هذه المحمولات الواردة بالغواصات ، لم تكن خاصة بحكم السويحلي وحده ، بل أنه كان لكل جهة طرابلسية محاربة نصيب منها ، حسب عدد نفوسها وأهميتها الموقعية بالجهاد ، وكان توزيعهـا بجداول معينة قائم بها موظفون أتراك وعرب ، أما الأموال فكانت الغواصات تسلمها إلى نوري باشا ، فيتصرف فيها حسبما يراه بتقديراته وتوجيهاته السياسية .

وبهذه المناسبة فإن السيد أحمد الشريف بعد فشله بحرب الإنجليز كما تقدم بيانه ، لجأ إلى مدينته (هون) ريثما يأتيه نبأ بقدوم الغواصة التي سترحل به إلى تركيا ، فبعث السيد أحمد الشريف إلى نوري باشا بمصراته ، يرجوه أن يسعفه بمبالغ مالية تمكنه من تسديد ديونه ، والإنفاق منها على نفسه وحاشيته ، وفعلاً لبى نوري طلبه وأرسل هذا له من مصراته ، في قافلة من الإبل ، تحمل صناديق صغيرة تشتمل على نقود وافرة ذهبية وفضية ، يحرسها رجال مسلحون من أتباع السيد أحمد .

ونمي خبرها إلى القائد لشرطة رمضان « محمد الحداد » ، وكان مع رمضان بمنزلة هملر رئيس الجستابو مع هتلر ، فعرض على رمضان ما نمي إليه عن الصناديق المالية ، وكان يحدثه بصفة سرية مستعجلة ، ويظهر أن نوري لم يفاتح رمضان بها ، قبل إرسالها حتى يكون على بصيرة منها ، فلما علم بها الحداد أراد أن يتخذ بشأنها ، ما كان قد اتخذه التواتي في غزوه لمواشي رمضان بمصراته ، لا سيما وأن العداوة لا تزال قائمة بينه وبين السيد أحمد الشريف زعيم السنوسيين

وقتئذ ، إذ بعلمه وموافقته جاء أخوه صفي الدين إلى رمضان بمطالبه الثلاثة ، وما يجدي عنه دفاع بعض المؤرخين عن السيد أحمد ، بأنه لم يكن يدري بما فعله ويفعله نوابه وأتباعه للناس في طرابلس ، من الأمور المخالفة للألفة ، والمثيرة للتباغض بين أبناء الوطن الواحد ، فالسكوت على التصرفات الخاطئة ممن يقدر على منعها ، يعتبر في الحقيقة إقراراً من صاحب الشأن لهم ، فيما يتصرفون من أخطاء ومظالم مستنكرة .

وتحصل الحداد من رمضان على الإذن بالعمل لما جاء بإخباره عنه ، فأعد مفرزة [1] من الفرسان المغاوير جروا بخيولهم وراء القافلة إلى أن أدركوها ، ودارت لهم مع حراسها معركة نارية سقط فيها بعض الأفراد ، ثم تغلبت جماعة الحداد وعادوا إلى رمضان بصناديق النقود،وبعض المؤرخين يبرىء علم رمضان بما فعله الحداد ، ولكن الحقيقة أنه بموافقته هو تعرض لها ، وما كان له أن يتعرض للقافلة بسوء لولا استئذانه رمضان بذلك وإجازته إياه بالعمل ، الأمر الذي جعل كما قيل بعض المخلصين له ، أن يلوموه كثيراً لعدم تقديره أسبقيات السيد أحمد الشريف الجهادية للاستعمار الفرنسي بتشاد ، وأول من جابه الغزو الايطالي ببرقة ، فضلاً عن عدم مراعاته أحواله الاقتصادية المتعسرة ، بعد الظروف القاسية التي أرغمته للنزوح عن البلاد .

ومما يؤكد هذه الحادثة ما جاء عنها في كتاب«برقة العربية » (صفحة٣١٨) لمؤلفه المرحوم الطيب الأشهب ، إذ قال عنها ما يأتي بالنص: « كان السيد أحمد الشريف في طريقه إلى الجغبوب، يواصل نوري باشا الذي كان موجوداً بمصراته ، وكان يرسل كل طلبات السيد أحمد الشريف ، وبالطبع أن ذلك لا يرضي

---

(١) ورواها لي أيضاً شخصياً المرحوم « عمر أبو حجر » من قبيلة الجحيرات بمصراته ، فقد كان من ضابطية « الحداد » في المفرزة الفرسانية التي استولت على النقود من القافلة المرسلة للسيد أحمد .

رمضان الشتيوي ؛ الذي أشهر العداء للسنوسيين بلا مبرر [1] ، فكان يرسل من بطانته الخاصة أشخاصاً يختفون في الطريق ، حتى تمر القافلة المرسلة من نوري باشا ، فيقتلون رجالها وينهبون الأموال المرسلة ، وكانت هـذه المؤامرة تدار من المدعو محمد الحداد ، صديق رمضان الخاص ، ومن بين الذين راحوا ضحية هـذه المؤامرات سكرتير السيد أحمد الشريف ، المدعو عبد اللطيف أفندي المزيني ، والسيد ابو ظريف وغيرهما » .

(١) وقوله ان عداء رمضان للسنوسية بلا مبرر ، فهو اما لا يدري مـا جرى لرمضان مع صفي الدين بمصراته ، وفتنة التواتي له ، أو انـه يعلم بذلك وأراد أن يموه على القارىء حقيقة المداوة ، وهذا التمويه مما لا يتفق مع انصاف ونزاهة التاريخ .

استدراك : في قصيدة بطل القرضابية ص ٨٩ الصواب في البيت الثاني (يوم الخليج) وكلمة (تاريخ ليثُ) الصواب ليثِ .

الفصل التاسع عشر

ولاية الباروني على طرابلس وإلحاقها بتركيا

وعودة الباروني لم يقتصر أثرها، على مساعيه الموفقة بصلح ترهونة، وإرجاع سرت لحكم السويحلي مرة ثانية، بل ان أثر العودة الميمونة، كان قد شمل جميع أطراف طرابلس وفزان، وربطا لحوادث التاريخ سابقها بلاحقها، فبعد أن ناضل الباروني ايطاليا سنة ١١٩١ م مع اخوانه المجاهدين في معركة جندوبة بأرض الأصابعة هاجر إلى تركيا عقب معاهدة أوشي سنة ١٩١٢، وظل هناك إلى أن سمع هو والأتراك بانتصار الليبيين الساحق على ايطاليا في معركة القرضابية.

وتنفيذاً للسياسة التي رجع الترك من أجلها وسبق بيانها، عينوا الباروني[1] بمرسوم (فرمان) سلطاني والياً وقائداً عاماً على ولاية طرابلس، وألحقوها بحكم استانبول، ومن أسباب تعيينه في هذا المنصب، كونه

---

(١) عن كتاب حياة سليمان باشا الباروني الطبعة الثانية (صفحة ٧٣).



صورة المجاهد الكبير ، سليمان باشا الباروني ، الذي عينه سلطان تركيا (محمد رشاد) ، والياً على طرابلس ، وكان عضواً في مجلس الشيوخ العثماني .

لا يزال محسوباً عندهم عضواً في مجلس الأعيان (البرلمـان) التركي عن طرابلس ، ولأنه من زعماء البلاد المشهورين بالاخلاص لها .

وفي ١٩ ذي الحجـة سنة ١٣٣٤ هـ الموافق ٢٤ ابريـل سنة ١٩١٦ م أنزلته غواصة ألمانية في مصراته ، مصحوباً بكثير من الأموال المعدنية والورقية التركية ، وكان رمضان في مسلاته ، فأحسن أعيان وأهـالي مصراته وحكومتها استقباله ، وبالغوا في الترحيب به ، وتفاءلوا خيراً بقدومه ، وبعدما ارتاح قليلاً من متاعب السفر ، بعث برسائل إلى جميع المشائخ والزعماء في جهات طرابلس ، يخبرهم فيها بوضعه الرسمي ، الذي رجع به إليهم ، خدمة للبلاد وقياماً بواجبات الجهاد .

وفي مسلاته تلقاه رمضان بأبهج التحيات والأشواق والسرور ، وأعلن بأنه سيكون لإنجاح مهمته العظيمة أطوع له من بنانه ، فأثلج هذا التصريح المخلص من رمضان أثلج صدر الباروني ، وجعله مطمئناً راضياً بنجاح الغاية النبيلة التي يأمل تحقيقها في ولايته .

ثم اتجه إلى غرب طرابلس وما برح يزور مقاطعاتها ويجتمع بأعيانهـا شارحاً لهم ما ينوي القيام به في ولايته ، حتى وصل للزاوية الغربية فاستقر بها ، وجعلها عاصمة لولايته ، لتوسطها بين الجبـل الغربي والشمال الساحلي والجنوب الشرقي ، وفيها أنشأ الحكومة لولايته الجديدة ، ولكنهـا لم تكن على النظم المتعارف عليها في العصر الحديث ، إذ ليس لها تمثيل نيابي يعبّر عن رغبـات الشعب ، ولا سلطة تشريعية ولا تنفيذية ولا حتى إدارات مصلحية ، لها لوائح قانونية رسمية ، للمالية والمعـارف والحربية والقضاء والداخلية والخارجية ، ويتولاها موظفون أكفاء لها ، ومسئولون أمام هيئة الرئاسة الحكومية .

وإنما هي حكومة رمزية في قيامها ، بتنسيقات الأغراض والأعمال

الجهادية ، بمزيج من الأساليب التركيـة والقبلية ، في تسيير أمورهـــا وخدماتها ، نظراً لظروف البلاد الاقتصادية والسياسية والحربية ، وبقي في هذه الحكومة زعماء الجهات هم المتسيطرون فعلاً على الشئون العامة في مناطقهم ، كرمضان ، وعبد النبي ، وأحمد المريض ، وكعبار وفكيني وابن تنتوش ، وكانت تأييدات هؤلاء في الحقيقة لحكومة الباروني الولائية هي في التضامن الجهـــادي معها ، وليظفروا منها بنصيب جهاتهم من المساعدات المالية وغيرها الواردة إليها بالغواصات .

والواقـــع أن تلك المساعدات الغواصية ، كانت تأتي من الأتراك لحكومة الباروني لأغراض دعائية وسياسية لهم فائدتها ، لا مساعدات نزيهة لتشجيع الطرابلسيين على قتالهم لعدوهم ، بدليل أنهم بعد انكسارهم في الحرب العالمية الأولى ، وافقوا الحلفاء في معاهدة جزيرة (موندروس) يوم ٣١ اكتوبر سنة ١٩١٨ م ، في المادة السابع عشرة (١٧) من المعاهدة ، وافقوهم حتى على أن يقطعوا عن جميع الطرابلسيين المساعدات التي كانوا يمدونهم بها بحراً ، إذا لم يرضخوا للحكم الايطالي ، ثم انسحبوا من أنحاء طرابلس بعد هذه المعاهدة ، كما انسحبوا قبلها من البلاد بعد معاهدة أوشي سنة ١٩١٢ م .

وسليمان باشا الباروني الطلعة بأسرار وتقلبات السياسة الدولية ، لم تكن بخافية عليه تلك الحقائق ، من الأتراك وسيطرة حزب الاتحـــاد والترقي على حكمهم ، وخصوصاً ميولهم السيئة نحو العرب ، وإنما دوافعه الوطنية ، حملته في تلك الظروف الطرابلسية أن يستفيد منهم لصالح أبناء قومه ، بما يستطيع إفادتهم به ، من أية جهة تعلن تأييدها المادي والأدبي لهم .

الفصل العشرون

الأوضاع الإدارية لحكم السويحلي

وعلى أثر هزيمة الطليان بالقرضابية ، وانسحابه من الدواخل إلى التحصن بمدينتي طرابلس والخمس ، فإن أحسن الحكومات المحلية ، التي التي قامت بعد ذلك في طرابلس هي حكومة رمضان السويحلي ، التي أسسها بمصراته يوم ٧ أغسطس سنة ١٩١٥ ، بعد أن جلا عنها الطليان وتخلص هو من متاعبه مع السنوسيين وترهونة .

فجعلها حكومة وطنية صحيحة ، في شئونها الشرعية والإدارية والمالية والجهادية والبريد والأمن ، وكانت حكومة مركزية تماماً ، ومرتبطة بها وعلى نسقها ومسئولة أمامها ، كل المناطق التي صارت تابعة للسويحلي ، ونوهنا عنها في (صفحة ١١٨) وكما سيأتي إيضاحه .

(١) وبتوجيهات رمضان كان أول ، ما قامت به الحكومة المركزية بمصراته من الأعمال ، أنها ألفت لجنة من الأشخاص والكتاب الأمناء ، احصوا لها كافة الأسلحة والأجهزة والعتاد والأشياء العسكرية ،

المغنومة قبل وبعد جلاء الطليان عن مصراته يوم ٥ أغسطس سنة ١٩١٥ ، وجعلت رئاستها لأبي بكر بو دبوس ، وكان فيها الناقل لأرقام الأسلحة الإيطالية من أعدادها الفرنجية إلى الأعداد العربية هو المرحوم[١] (السنوسي الضراط) ، وكانت هذه الغنائم جسيمة جداً ، مودعة كلها في مخازن خاصة بها ، ويتولى قبولها والصرف منها ، موظفون بتوقيعاتهم الرسمية ، كما كانوا يأخذون توقيعات مستلميها رفعاً وتحديداً للمسئولية .

(٢) وجعل دستور الحكومة العمل بما جاء في القرآن والسنة ، وعلى مذهب الأمام مالك ، واسند النظر والحكم بما جاء في ذلك ، إلى هيئة من كبار العلماء المتفقهين في التشريع الإسلامي وهم : الشيخ عمر الميساوي، وكان من الزاوية الغربية ، والشيخ رمضان بليبلوا ، والشيخ رمضان بو تركية ، والشيخ عبد الرحمن بن نصر ،والشيخ السنوسي بن عبد العال،

(٣) وتولى رمضان هو وأعوانه القائمقاميون ، تنفيذ أوامر الحكومة ، وما تصدره الهيئة الشرعية من الأحكام ، وكثيراً ما كان رمضان يبت في الأمور الهامة منفرداً فيها برأيه الشخصي ، لشدة حرصه على سريتها أو لاستعجالها . مما جعل بعض الناس غير الراضين عن انفراده برأيه في مسائل عدة ، يصفونه بالدكتاتوري (أي الحاكم المطلق) ، الذي أمره القانون ورأيه الشريعة ، ولكن لم يتهمه أحد في تصرفات حكمه ، بعدم الاخلاص والنزاهة في خدمة وطنه .

---

(١) ومعرفة السنوسي الضراط للأرقام والكتابة الافرنجية ، كونه تعلمها على يد رضوان أفندي التونسي الذي قبيل الغزو الايطالي ، صار مديراً لأول مدرسة ابتدائية حكومية ، وجعل رضوان لتلاميذه الأذكياء دروساً باللغة الفرنسية ، ومما يستحق الذكر أن المؤلف حضر فيها السنة الأولى ، وكان والده مسعود مشرفاً على تلاميذ هذه المدرسة وذلك في أواخر العهد التركي بمصراته قبل ايطاليا .

(٤) وجعل للمالية إدارة خاصة بها ، وكانت إيراداتها من ضرائب العقارات والاعشار ورسوم المكث (الجمارك) والبلديات ، ولم تكن إيراداتها كبيرة المقادير لظروف البلاد الحربية ، ولولا أن الناس كانوا يجاهدون على نفقاتهم الخاصة كما سيأتي تفصيله ، لما سدت إيرادات الحكومة منها ، حتى مرتبات الشرطة والموظفين الرسميين ، وكثيراً ما كانت معاشات هؤلاء تتأخر عنهم شهراً أو شهرين .

(٥) وجعل إدارة للمواصلات الهاتفية والبرقية ، امتدت أسلاكها إلى مراكز القائمقاميات ، وإلى نقاط الأمن الهامة ، وكانت إدارتها ومكاتبها مؤسسة من قبل منذ الاحتلال الإيطالي ، وعند جلائهم عن مصراته وغيرها من توابعها ، تركوا وراءهم كميات وافرة من أجهزتها الفنية المختلفة ، ومن قطع غيارها وإصلاحها ، فاستعملتها واستفادت بها كثيراً حكومة السويحلي .

فكان رمضان مثلاً وهو مقيم في مسلاته أو زليتن ، يتحاور هاتفياً مع مصراته أو سرت ، كأن الشخص الذي يخاطبه واقف أمامه ، ومن حسن حظه بهذا الخصوص ، أنه وجد من أبناء البلاد عمالاً وموظفين ، كانوا أيام الطليان وبعضهم من أيام الترك ، مستخدمين فيها فتدربوا على القيام بتيسير مخابراتها واصلاحات خللها .

(٦) وأوجد رمضان بمساعدة الضباط الأتراك ، مدرسة عسكرية جهة قصر حمد ، لتخريج صفوف الضباط من أبناء البلاد ، وسرعان ما انتمى إليها الكثير من الشبان الأصحاء الأذكياء ، وتولى إدارتها بعض الضباط ، وكان بين هؤلاء الضابط والشخص الاسمر الشهير ، محمد رفعت بك المرغني ، وهو من خريجي المدرسة الحربية باستانبول

وشغل في طرابلس مناصب إدارية كبيرة ، في الزمن الايطالي، وفي العهد الملكي زمن ادريس ، وكان معروفاً بالنزاهة والجدارة وحسن الخلق ، وعلى الرغم من حياة المدرسة غير الطويلة وظروفها الحربية ، فقد أعطت للمجاهدين مجموعات قيمة من خريجها ، افادتهم بكيفية استعمال الأسلحة الخفيفة والثقيلة ، ودربتهم على الكر والفر بأساليب القتال العصري ، والنظم العامة للحياة العسكرية .

الفصل الحادي والعشرون

طرق التعاون السوحلية على القيام بالجهاد

١ — وأقيم نظام تعاوني فريد من نوعه ، لتطوع أبناء المناطق السوحلية للجهاد ، فقد فرض على كل عائلة بواسطة شيخ قبيلتها ، أن تقدم للجهاد عدداً من أفرادها غير المسئولين التزامياً عن معيشتها ، وذلك حسب تعداد نفوسها الذكور ، فإذا كان المطلوبون منها حالهم ميسور ، يجب أن يكلف أحدهم نفسه أثناء تطوعه للجهاد ، بتدبير معيشته وغطائه وسلاح قتاله وخباء نومه .

٢ — وإذا كان الفرد المطلوب فقيراً ، يجب أن تجهز له هذه الأشياء الضرورية المذكورة ، بتفريق أثمانها على بعض الأغنياء لتشترى له ، وفي حالة ما إذا كان الشخص المستدعَى (بفتح العين) للجهاد حالته طيبة ولكن لديه مانع شرعي من الذهاب للقتال ، فعليه أن يجد من ينوب عنه في ذلك ، ويقوم هو بجميع لوازم الذاهب للجهاد بدلاً عنه .

٣ – ويجوز أن يتضامن اثنان مطلوبان للقتال ، وهما غير محتاجين ولكن لا يستطيعان الذهاب للحرب لأعذار مقبولة ، ففي هذه الحالة يجوز أن يقدما عنهما مجـاهداً فقيراً ، بشرط أن يوفرا له على حسابهما الضروريات الجهادية المسبوق بيانها ما عدا الخيل ، من ذلك مثلاً أن المواطن السيد[1] عبد السلام أدهم ، مـع شخص آخر من أولاد غيث ، وكلاهمـــا من زليتن بعثا نيابة عنهما للجهــاد رجلاً اسمه عبد السلام صوان لائقاً للحرب ، وكان القتـــال في قصر حمـد بمصراته ، واشتريا له بندقية بخرطوشها ، وزوداه بكل مـا يلزم لمونته وغيرها .

٤ – ومن غير ما تقدم فقد كان في كثير من الحالات الطارئة ، تفرض على القبائل أن تقدم أيضاً كميات وافرة من الدقيق ومقـادير من الزيت وأعداد من الخراف لضيافة أو إطعـام الواردين للزيارة أو المقاومة ، وذلك مثلاً كالمناسبة التي أكرم بها في مصراته صفي الدين وأتباعه ، وقدوم الأتراك بالغواصات ، واللاجئين إلى مصراتـه من شمال وغرب طرابلس فراراً من الطليان .

٥ – وكان رمضان يفرض أولاً على نفسه وعلى أقاربه ، جميـع الالتزامات الجهادية المكلف بها المواطنون ، من تقديم الأفراد وتموينهم وتجهيزهم على النمط المشار إليه ، بل بما هو أزيد أسهماً مما يقدمه الآخرون في بقية القبائل ، لدرجـــة جعلت كل الناس في مناطق الحكم السويحلي ، يفخرون بزعامته ويقدرون تضحياته بالنفس والمـال في

(١) هو نفس الاستاذ المترجم عن التركية للعربيـة ، الموظف بدار المحفوظات التـــاريخية والأثرية ، والذي كنا أشرنا إليه في مقدمة هذا الكتاب .

سبيل وعزة الوطن . (وعظة الأفعال خير من عظة الأقوال .)

٦ – وحتى النساء والفتيات كن متجاوبات تماماً ، مع ذويهن روحاً وعملاً في القيام بواجبات التعبئة العامة لأغراض الجهاد ، ويقضين أغلب الليل وهن على الرحى يطحن الحبوب دقيقاً ، لفرقيات التموين المطلوبة من الأسرة والقبيلة ، أو يكن خلف المسادي ينسجن غزل الأصواف حوالى وعباءات للمحاربين ، ويخطن الأقمشة قمصاناً وسراويل ملابس لهم ، ثم يقمن من الفجر لتربية البنين وإنجاز المهام العائلية الأخرى ، ولم تتأخر إحداهن عن أن تتبرع لأبنائها وأقربائها بأثمن حليتها الذهبية والفضية لكي يشتروا بها أسلحة وخيولاً للقتال .

٧ – والواقع انه لولا تحمل أبناء الشعب هذه النظم الجهادية القاسية بالتضحية والتقشف ، في سبيل الوطن والعزة والكرامة ، وهم في أسوأ الأيام خصاصة وضيق العيش ، لولا كل ذلك لما استطاعوا بلا أي عون مادي من الخارج ، أن يصمدوا لحرب عدوهم طوال تلك السنين ، ولا سيما وأنهم ليسوا أمة ثرية وكبيرة النفوس ، فتتولى لغناها الانفاق على جيشها المحارب كالأمة الإيطالية مثلاً ، وإنما هم شعب قليل العدد وناقص العُدد وفي أرض جافة التربة معدومة الأنهار .

ودقيق الأتراك الذي كانوا ، في أول الغزو الإيطالي ، يمدون به المجاهدين من ميناء بن قردان ، فعلى الرغم من عدم كفايته للمجاهدين المرابطين بخط النار ، فقد انتهى الامداد به منذ توقيع معاهدة أوشي ، والغواصات التي كانت تتصل بمصراته ، كانت تنقل منها

بعض المؤن كما تقدم ذكره ، بدلاً من أن تأتي إليها بشيء من المواد الغذائية ، **ومن هنا يتضح أن القول وقتئذ وبعده، بمساعدات الأتراك والبلدان العربية المجاورة شرقاً وغرباً ، للطرابلسيين إبان كفاحهم للطليان ، إنما هو في حقيقة الأمر حديث من يحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا** ، وقد سبق وأن أشرنا إلى أن مساعدات الأتراك اليسيرة المتنوعة ، كانت تمويهاً لتنفيذ أغراضهم السياسية من قدومهم إلى طرابلس ، أثناء الحرب العالمية الأولى ، وقد شرحنا هذا من قبل .

٨ - ثم انه مع انهماك الناس في مشاغل الجهاد وتحمل مستلزماته بما قرأنا عنهم ، فإنه لحرصهم القوي على إحياء معالم دينهم الحنيف ، وتثقيف ناشئتهم به ، فقد استمروا كالسابق ، على إرسال أطفالهم وصبيانهم للكتاتيب ، يقرأون ويحفظون فيها القرآن ، على أئمة المساجد والجوامع ، ويتلقون منهم مبادىء الإسلام والسيرة النبوية ، وفرائض وسنن الوضوء والصلاة ، والبعض من قواعد الإيمان والتوحيد ، وبالتعلم الكتابي على الألواح ، ويأخذون الإملاء والخط وأوليات الكتابة ، ومسائل الحساب بقواعده الأربعة .

وكانت هذه الكتاتيب بمنزلة المدارس الأولية ، وبعد ذلك ينتقل الأولاد الأذكياء ، ممن حفظوا القرآن لإحدى الزوايا الدينية الكبيرة ، يدرسون فيها قواعد اللغة العربية وآدابها ، وعلوم الشريعة الإسلامية ، والفقه على مذهب الإمام مالك ، وكانت هذه الزوايا الكبرى في جنوب طرابلس ، وهي زوايا الزروق والمحجوب بمصراته ، وعبد السلام الأسمر بزليتن والدوكالي بمسلاته ، وتخرج في هذه الزوايا ، المئات من العلماء والأدباء

والشعراء ، بفضل ما أوقف الناس عليها من العقارات الكبيرة ، والسواني الفلاحية الشاسعة والعامرة بالنخيل والزيتون وأشجار الفواكه ، وبمثل هذه المبرات خصوا بها أيضاً مساجد وجوامع الكتاتيب القرآنية ، فضلاً عن منح العطايا والهبات لأئمتها وشيوخها .

الفصل الثاني والعشرون

التعيينات والمقومات السياسية والاقتصادية لحكمه

قلنا سابقاً ان المقاطعات التي انضمت إلى مصراته بعد القرضابية ، صارت مرتبطة بها ومسئولة أمامها ، في جميع الأمور الحكومية وعلى نسقها الإداري ونزيد على ذلك هنا :

١ — أنها احتفظت كلها ببعض الاسماء الإدارية المستعملة سابقاً كلفظة القائمقام والمدير وشيخ القبيلة ورئيس البلدية ، وصارت لغتهـا عربية في مكاتباتها وسجلاتها ، واتخذ رمضان لها في التعيينات الإدارية الرئيسية ، سياسة برهنت على ذكائه وتبصره بنفسية الأهالي ومشاعرهم في مختلف البقاع المتحالفة معه .

فقد استبقى لهم الكثير من المسئولين الشرفاء الحائزين على رضاء الناس بهم والامتنان منهم ، ولم ترفع إليه عنهم شكايات بسوء أعمالهم أو سيرتهم ، من ذلك مثلا أنه ثبت الحاج محمد الديب في وظيفته قائمقاماً على ساحل آل حامد ،التي كان يشلغها منذ العهد التركي والايطالي وهو من كبار أعيان الجهة.

ومن طريف ما يروى [1] عنها ، أن رمضان بلغته أخبار عن الديب أن له صلة مع كل من الطليان وآل المريض خصومه ، وكان هو من عادته التريث وإمعان النظر ، قبل أن يبت بأي حكم في بعض الأمور ، وكثيراً ما كان يستخدم مع الناس الأذكياء التورية والتلميح في الكلام الموجه إليهم ، تجنباً لمشافهتهم بما قد يجرح إحساسهم ، ففي إحدى تجولاته بالساحل ، لما زار الحاج محمد الديب ، سأله مازحاً بقوله : يا عمي الحاج كم سكة لك في البر ؟ وأدرك الديب الفطن التورية من الإشاعة التي وصلته عنه ، فأجاب على الفور : عندي ثلاث سكك وأحسنها سكتك يا بك رمضان . والسكة بالمعنى القريب في عرف البلاد آلة الحرث ، وأما بمعناها البعيد في الطريقة التي يسلكها الشخص في سيره أو ميوله العاطفية والسياسية ، وقول الديب هي سكتك يا بك يشير إلى أنه بفرض صحة ما سمعه عنه فإنه قد تحوّل الآن من علاقته بأولئك إلى تأييد ومحبة رمضان مخلصاً له ولدينه ووطنه ، وكان الحاج محمد بك الديب صادقاً في هذا الاتجاه السويحلي ، بدليل أن الطليان لما رجع بعد عهد آل السويحلي ليحكم ساحل آل حامد ، وكان الديب متبصراً ، حبسه وصادر جميع أمواله .

٢ – وممن عينهم رمضان قائمقاميين ، وهم متحلون بالأوصاف الطيبة الحميدة ، الحاج علي بن رحاب لقماطة وقصر خيار ، ومحمد البلوط للقربوللي ، وعبد السلام التومي الفيتوري لزليتن ، وفرحات بن إبراهيم القاضي لمسلاته ، والحاج علي المنقوش لسرت ، وعلي بو حبيل لمصراته ، وكان رمضان كثير التجول والزيارات لهذه المناطق ، متفقداً

---

(١) عن الحاج حسين بن بشير اليسير . المعروف الشخصية حتى الآن بالخمس وساحل آل حامد وهو صاحب مكتبة صغيرة للقرطاسيات في شارع مزران بطرابلس ، وذلك فيما يخص الحاج محمد الديب ورمضان .

أحوالها بنفسه ، ومتداولاً مع رؤسائها وأعيانها ومشايخها ، في مصالحها الضرورية والمستعجلة .

٣ – والمناطق المتحررة ، التي كانت تشملها متصرفية الخمس ، رأت نفسها بحكم الضرورة القومية ، مدفوعة لأن تنضم بإرادتها إلى مصراته ، والانضواء مثلها تحت حكم السويحلي القوي ، إذ لا غنى لها عن ذلك ، نظراً لعدم إمكاناتها البشرية والجهوية للثبوت وحدها تجاه العدو ، ولعدم استطاعة غيرهما (مصراته ورمضان) نجدتهـا ومساعدتها بشيء ، عندما تطرأ عليها أحداث مفاجئة ، وبالتئام تعداد هذه المناطق ، البـالغ نحو (٢٠٠) مائتي ألف نسمة على رأي واحد وبقاع متآلفة ، وزعيم بطل موفور الكرامة ، صار أبناؤها بذلك كتلة بشرية ترهب العدو ويعتز بها الوطن .

٤ – وكانت هذه المجموعات المتماسكة تشكل عطاء اقتصاديـاً كبيراً ، ومتنوعاً في غلاته وأصنافه ، وهو الذي كثيراً ما زودهـا باحتياجاتها الغذائية بدرجة الكفاية أحياناً وأحياناً قريباً منها ، طوال حكم رمضان السويحلي لها ، المقدر بنحو خمس سنوات ، وشرحـاً للموارد الاقتصادية العامة نقول :

(أ) فمصراته وزليتن وساحل آل حامد أرضها مليئة بغابات النخيل المثمر تموراً غذائية عظيمة الإنتاج والمقادير ، وسوانيها خصبة التربة جيدة المناخ ، وعلى رَيِّ الآبار التقليدية بالدلاء والجبادة ، نشأت فيها فلاحة وزراعة فيحاء البساتين والحقول ، كانت صيفاً يجنى منها محاصيل وافرة ، من حبوب القصب (الدخن) والبشنة والذرة (سبول العبيد) وأنواع البقول والخضروات والفواكه والموالح والكروم .

(ب) ومسلاته وقماطة مكتظتان بغابات الزيتون الكثيف بصفة رئيسية ويضاف إليها بصفة ثانوية ، زيتون مصراته وزليتن وساحل آل حامد والقرهبوللي ، فكلها في أعوام المحصول الجيد الممتاز ، تمنح المناطق المتآلفة من الزيت النقي عشرات الآلاف من القناطير والخوابي الضخمة .

(جـ) وزراعة الحبوب في براريها الخصبة الشاسعة ، وعلى ضفاف أوديتها السائلة شتاء ، فإنه في الأعوام المتواصل مطرها القوي بفصلي الخريف والشتاء وأوائل الربيع ، فإنها تفيض عليها كذلك بالغلات العظيمة النادرة لدرجة أن ذريعة (المرطة) الواحدة تنتج أحياناً أزيد من خمسين مرطة ، في كل سنبلة مائة حبة .

(٥) ومراعي البراري الواسعة ولا سيما في سرت وأمثالها ، فإنها في مواسم الأمطار الغزيرة تعطي أيضاً ثروات حيونية جسيمة ، من الأغنام والأبقار والإبل وإنتاجها من السمن واللحوم ، والألبان والأصواف والجلود فضلاً عن حيوانات النقل من الإبل والخيل والحمير .

(٦) ولئن كانت هذه الغلات الزراعية المتنوعة ، قد أعطت المناطق المذكورة معيشتها عند قيام ائتلافها ، مع تقتيرها على نفسها في استهلاك أغذيتها ، وبذلك ساهمت في الإنفاق على أبنائها المجاهدين ، فإنها مع هذه الأحوال المرضية إلى حد ما ، قد اعتراها في حياتها ، أغرب المفارقات الجفافية والمطرية ، وأحداث العسر واليسر في موسم زراعي واحد .

(٧) ففي أواخر [١] عام ١٩١٧ م من فصلي الخريف والشتاء المتداخلين فلكياً ببعضهما ، قد أصاب البلاد السويحلية كلها انحباس عام لنزول الأمطار ، فنتج عنه جفاف المراعي من العشب والكلأ ، وتوقف زراعة الحبوب الغذائية ، وعطش الأشجار الفلاحية ، فلم تعط أثمارها المعتادة ، ونفقت الحيوانات الاقتصادية ، فأصاب الناس من جراء ذلك مجاعة كبرى ، تكاثرت فيها الموتى بحالة مزعجة جداً ، وبقي الأحياء كأنهم هياكل عظمية ، وصارت الحبوب الغذائية نظراً لندورتها بمنزلة الذهب الثمين .

(٨) ولخوف الناس من أن ينتهز الطليان ، أسوأ أيام حياتهم فيباغتهم بالهجوم عليهم من البحر ، أخذوا يتنازحون عن المدن والقرى الساحلية إلى البر الخلوي ، ويسكنون في أكواخ من معدن الزنك (الزنكو) ، المغتنم أصلاً من معسكرات العدو ، ولفقدان الأواني المنزلية المعتادة ، اتخذوا من نفس (الزينكو) القطع للأكل والشرب .

(٩) ولكن منذ أوائل فصل الربيع إلى آخره ، أدركهم الله بفضله ورحمته الواسعة ، إذ صارت فترات الأمطار القوية الغزيرة ، تنهمر على تلك البراري الجافة كأفواه القرب ، وشمل غيثها الوابل جميع الأراضي ذات الفلاحة الشتوية في المناطق السويحلية .

وبمساعدة ولاة الأمور ، وتشجيعات الأعيان والمشايخ ، هب الفلاحون بدافع الحرص على الحياة ، وللقضاء على العوز والفقر ، يكثرون من الحرث في أراضيهم الخلوية على الحمير غالباً ، لأن الخيل كانت ترابط في مواقع الجهاد ،

---

(١) عن تاريخ ليبيا العام للمؤلف الجزء الثاني الطبعة الأولى (صفحة ١١٨) وعن غيره .

والإبل مشغولة بالنقل البعيد ، وما كاد الصيف ينتهي حتى كانت المحاصيل من الحبوب تجاوزت وفرتها المألوف عنها من قبل ، فقد أنتجت المرطة حوالي المائة مرطة وكان هـــذا أغرب ما عرفه الشيوخ الكبار في السن ، من غزارة الإنتاج والعطاء الحراثي مدة فصل الربيع ، وكفل تموين الناس فيما بعد نحو ثلاث سنوات ، وأرخ الأهالي به أيام شقائهم وراحتهم في آن واحد ، فسموه عام الصابة (أي الخصب) ، وسموه عام الزينكو وعام الشر ، وعام (صابة الحمير) .

الفصل الثالث والعشرون

المظاهر الهامة لتصرفاته الاجتماعية

وفي أثناء حكم رمضان القصير ، لم تتسح له الظروف الجهادية ، ولا موارد البلاد الفقيرة ، أن يقوم لها فيه ، بمشروعات عمرانية واقتصادية ، تستحق منا الذكر لشيء عنها ، ولكنه من النواحي الاجتماعية الأخرى ، اشتهر بحرصه الشديد على راحة الناس في حياتهم الخاصة والعامة ، وطمأنتهم على أرواحهم وأموالهم وحقوقهم ، من أن يتعدى عليها أي شخص بالسرقة أو الاغتصاب ، واستطاع أن يقطع دابر العائثين في الأرض فساداً ، من ذوي السلوك الاجرامي والاخلاق السيئة والجوسسة للعدو .

كما عرف عنه امتلاء قلبه الكبير بالعواطف الإنسانية الشفيقة ، وميله للتواضع والتقشف في حياته الخاصة ومع الناس ، وله في ذلك قصص وحكايات لو أردنا أن نسجل ما وصل الينا منها ، لاحتاجت أخبارها إلى مؤلف خاص بها وحدها ، ومع هذا لا يسعنا إلا أن نسرد هنا طائفة منها كدلالة على صحة ما أشرنا إليه .

وفي رأينا أن شخصية الزعيم القائد، ليست منحصرة في كفاحها البطولي للعدو في ساحات الوغى والمواقف السياسية، بل انه مما يزيد في قيمتها اعتباراً وسمو منزلة، أن تكون أيضاً بكل شيء راعية لابناء وطنها كالأم الرءوم والأب الحنون، ومسئولة عن استتباب أمنهم وإشاعة الطمأنينة في نفوسهم وتوفير أسباب الرخاء لهم.

وكان رمضان ينظر في ويعالج أغلب القضايا الاجتماعية الهامة شخصياً، وبسبب هذا التصرف الانفرادي منه، نعته كثيرون ومنهم غرسياني في كتابه «نحو فزان» (ص ٣٥) بالدكتاتوري الصارم، وقد نسي هؤلاء وفي مقدمتهم غرسياني، فيما نعت به رمضان ذاماً حكمه، أن ظروف البلاد العصيبة، في حالات الحرب والفقر والمجاعة، تقتضيه أن يكون حازماً في بت الأمور بنفسه، وتحمل مسئولياتها التي تستوجب منه السرية أو السرعة.

وانه حتى الدول العالمية، كبيرها وصغيرها، إذا وقعت بلدانها في حالات حرب وأزمات داخلية خطيرة، نراها تلجأ إلى ايقاف العمل بالقوانين المدنية، وتعلن بدلاً من ذلك الأحكام العرفية، وشتان ما بين تصرفات رمضان برأيه الخاص في الاحكام الهامة، وبين دكتاتورية موسوليني المطلقة في ايطاليا، التي استمرت نحو خمس وثلاثين (٣٥) سنة (١٩١٩ – ١٩٤٤ م)، كان أثناءها امره القانون ورأيه الشريعة.

قضاؤه على السرقات والجوسسة:

وقد قضى رمضان على اللصوصية والسرقات، بأساليب عملية مختلفة من الوعيد بأشأم المصير لأربابها، وكان في اكتشاف مرتكبيها، لها دخل كبير بذكائه الفطري، المستجلي به خفايا نفسية المشبوهين.

١ – فعند ما كان طالباً يدرس بالزروق ، كان هناك طالب مصراتي من قبيلة السواطي ، عرف بأنه يتسرب ليلاً إلى حظائر الجيران المربوطة فيها أغنامهم ، فيسرق منها المرة بعد المرة خروفاً أو عنزاً ، ويأتي به إلى اخوانه الطلاب المشاركين له في هذا الجرم ، فيذبحونه ويأكلونه خفية ، والظاهر ان السواطي تعود السرقة بعد أن ترك الدراسة ، وسار عليها وهو رجل ، فلما صار رمضان حاكماً استدعاه إليه ، وأخبره بما كان يعلم من سيرته المعوجة وهما طالبان بالزروق ، وأنه الآن وهو مستمر على سرقة ما يغفل عنه الناس ، فصارحه بعبارة قوية حازمة ، أن يختار بين أمرين ، أن يأخذ بندقيته ويتعين في الحكومة واحداً من رجال الضابطية (الشرطة) ، وإلا فسيكون الجب [١] مصيره ، فارتجف من الخوف عندما سمع ذكر الجب ، وبادر فاعلن له توبته الصادقة عن اللصوصية ، وقبل وظيفة الشرطي مثنياً على مروءة رمضان لرأفتها بحاله .

٢ – ونظير هذه الحادثة [٢] كان في قبيلة الشواهدة بمصراته ، مغامر كبير اسمه (علي قليوان) اتخذ على رأس كثيب من الرمل (قوز) غرفة عرفت باسمه ، كان يتلاقى فيها دائماً مع أمثاله لتصريف ما يسرقون ، وليعبثوا فيها بأمزجتهم وميولهم ، ولم ينته عن غيه حتى في أوائل عهد

---

(١) الجب صهريج كبير تحت قصر الحكومة بمصراته ، وكان خزاناً كبيراً لماء المطر المنصب اليه من سطح القصر أيام الشتاء ، نزح منه الماء وسد انصبابه فيه ، فصار بذلك مثل الكهف المتسع ، وله فتحة باب من أعلاه ، فاستعمله رمضان سجناً رهيباً للعتاة المجرمين والجواسيس الأعداء ، وقل من دخله وامضى فيه فترة أن يخرج بعدها منه صحيحاً ، وقد بالغت الناس وقتئذ في رهبة ومخافة هذا الجب ، لدرجة جعلوه أشبه ما يكون بحصن أو سجن الثورة الفرنسية المسمى (الباستيل) ، وحسب رواية الحاج علي الضراط التي افضى بها الينا أنه لم يمت فيه سوى نفرين أو ثلاث من الجواسيس ، وقد ردم الجب فيما بعد .

(٢) الرواية عن السواطي من الحاج الشيباني السويحلي ، وأما الرواية عن قليوان فعن الحاج محمد رحيمة الشويهدي وغيره .

رمضان ، لذلك ناداه ونصحه بأن يستقيم في سلوكه ، بأن يترك مغامراته السيئة ، ولكن مـــن شب على شيء شاب عليه ، فصار كلما سنحت له الفرصة يعمل بنهجه الأول ، عندئذ احضره وخاطبه قائلا : « يا عمي علي لم يبق امامك غير أحد هذه الأمور ، ارسالك شرطياً الى احدى المناطق ، أو خذ بندقية وجاهد ، أو اشتغل بالفلاحة ، وساهم بذلك في تموين البلاد أو الجيش » فاختار ان يكون شرطياً وكان رمضان يختار أكثر رجال الأمن ، من المشهورين في ماضيهم بالفتوة المغـــامرة لسببين **أولاً** لحملهم مسئولية حوادث الاخلال بالأمـــن **وثانيا** لأنهم أدرى الناس بأرباب اللصوصية ومخافي سرقاتهم .

٣ – ومن السرقات التي أدت بصاحبها إلى حبل المشنقة هي الحادثة [١] الآتية ، فإن شاباً من غرب طرابلس سرق ليلاً ، أمتعة ثمينة من دكان تجارة في المواطين ، واخفاها بجبانة سيدي ابي علـيَّة بالدرادفة .

وباشرت ضابطية الحداد مباحثها الخفية عن الجاني ، وكان بين الحداد وفتولة ابن أخت رمضان ، كراهية قوية مجهولة الاسباب ، فلمـا عرف السارق وقبض عليه ، همس في أذنه الحداد أن يقول أثناء التحقيق معه ، أن شريكه في السرقة كان فتولة ، ولما نما الخبر إلى رمضان تملكه الغضب والانفعال وأمر بأن يسجن أيضاً فتولة .

ثم ركب حصانه وذهب فوراً إلى منزل ابن اخته المتهم ، وعلى الرغم من قيامه بالتفتيش فيه عن الأشياء المسروقة ، وسؤال زوجته وخادمتها السوداء عن تغيبه تلك الليلة ، فإنه لم يعثر فيه على شيء من السرقة ، وأكدتا له بأغلظ الأيمان أنه بريء من التهمة ، وأنـــه لم يتغيب عن المبيت في

---

(١) أخذاً من رواية الحاج الفتيوري السويحلي ، قريب كل من رمضان وفتولة .

منزله ولا ليلة واحدة ، إلا في أوقات الجهاد ، لا سيما وأنه لم يكن له أولاد ذكور ولا إناث مؤنسين لهما يطمئنان بهم في بالمنزل .

وكان السارق ادعى أنهما تقاسما البضاعة بينهما ، ولكن فتولة أنكر حتى معرفته للسارق من قبل ، فضلا عن أنه أيسر حالة إقتصادية وأشرف عائلة في المجتمع من أن يلجأ إلى العمل الخبيث ، ولكن رمضان أمر بضرب الاثنين (بالفلقة) إلى أن يقرا ، وأن يشدد الضرب بصفة خاصة على ابن أخته ، وكان الفتى السويحلي يتحمل عصا الفلقة الأليمة بشجاعة ولم تنزل له دمعة ، ويعلن لخاله أنه في هذا الاتهام والله لمظلوم ومكذوب عليه .

وكان ممن يباشرون جلده الصارم ، شرطي من أقرباء فتولة ، فالتفت منفعلا إلى رمضان وقال له : ليس من الإنصاف والعدل أن نقوي الضرب بهذه الحالة على إبن أختك ونخففه على الثاني ، فوافق على المساواة ، وما كاد الشرطة الآخرون ، يشددون الجلد أيضاً بالمثل على الشاب الغربي ، حتى راح يستحلفهم بالله أن يكفوا عنه فسيقر لهم بالحقيقة فكفوا عنه ، واعترف أن فتولة بريء ، ولم يذكر سبب اتهامه ليقينه عدم جدوى ذلك إذ سينكر الحداد ما قـــاله له ، وأرشد بنفسه إلى مكان السرقة ، فاستخرجت وسلمت إلى صاحبها التاجر ولم يفقد منها شيء .

واعتبر رمضان سرقة هذا الشاب واتهامه ابن أخته كذباً وافـتراء ، فعلته هذه من غير شك متعددة الجرائم والجنايات .

أولا : فقد لوث بذلك شرفه الشخصي وأحط من كرامة وسمعة العائلة السويحلية .

ثانيا : وجفّل بسرقته الجريئة الناس من النشاط التجاري المحتاجة إليه

البلاد في هذه الظروف المأزومة ، وذلك خوفاً على سلعهم وأموالهم من اللصوص .

ثالثاً : أشعرت الناس أن الأمن مفقود حتى في المواطين مركز الحكم السويحلي .

رابعاً : سبب لفتولة من الضرب المبرح والتعذيب الغائظ مـا أوشكا أن يقضيا عليه . وتأثر له جميع أفراد أسرته وجميع أفراد الشعب الذين عرفوا أخلاقه الدمثة وصفاته الكريمة .

ولكي تصير حادثة هذه السرقة وآخرة مرتكبها ، عبرة لكل من تسول له نفسه بالسطو على أموال الناس ، واقحامه اسماء بريئـة في ارتكاب جرائمه ، رأى رمضان عملاً بقيام الأحكام العرفية في حـالات الحرب أن يجازي الفتى الغربي السارق بالاعدام شنقاً ، فنفذ فيه الحكم على مشهد كبير من الجمهور .

ولما انتشر خبره ومصيره بين محترفي اللصوصية في جميـع المناطق السويحلية كان كل واحد من هؤلاء حين يلقى زميله يفاجئه بقوله : علينا أن نتوب قبل أن تعلق أجسامنا في الهواء أو على حد المثل القائل (أنج سعد فقد هلك سعيد) .

٤ – ومن السرقات الغامضة ، التي اكتشفها رمضان بذكائه الحاد ، وبقوة فراسته في وجوه المجرمين ، بما يظهر عليها من اصفرار الخوف ، ومن الاضطراب النفسي للفضيحة [١] ، أنه على أثر نزول الطليان بمدينة

---

(١) رواية الحاج مصطفى طريم من قبيلة الصوالح بمصراته ، وكان في سواني بن آدم مجاهداً مع رمضان بصفته رئيساً لمحلة مصراته والرواية منقولة عن أحد أولاده الطالب بالجامعة الاسلامية السابقة بالبيضا في الجبل الأخضر .

طرابلس كان رمضان مقيماً في محلة مصراته في سواني بن آدم ، وكان أحد تجار الإبل ، قد باع في سوقها نصيبا منها ، ووضع نقودها في مخلاة له بجانبه ، وبينما هو جالس شردت منه بعض الابـــل التي لم تبع ، فترك مخلاته وجرى وراء الشاردة إلى أن ردها .

ولما جاء إلى مكانه الأول لم يجد مخلاة نقوده ، وعلى الرغم من سؤال الناس عنها في السوق ، لم يفده أحد بشيء من أمرها ، فلمـــا عرض حادثته على رمضان بإشارة بعض الناس ، استدعى إليه جميع الذين كانوا حول تاجر الإبل أو قريبين منه ، وبحضورهم أمامه أخذ يسأل كل شخص عن اسمه ويكتبه في ورقة بيـده ، وبعدها ينظر في وجهـــه متفرساً حالته النفسية . ثم يأمر بانصرافه ، وتوالى منه هذا العمل إلى أن جاء للشخص الأخير فتفرس فيه جيداً ثم فاجأه قائلا أين مخلاة النقـود ، فأنكر أولاً معرفتها ، ولكن كرر عليـــه نفس السؤال مرة أخرى ، فارتبك وارتجف من الهلع ، وأقر أنه غلبه الشيطان فأخذها ، وأرسل معه أحد رجاله لاحضارها ، وكان قد ردمها تحت نخلة فأخرجها وجاء بها إلى رمضان فسلمها لصاحبها .

٥ – وكان ممن يعد من جملة أولئك المفسدين والمخلين بأمن البـــلاد وراحتها ، ظهور عملاء وجواسيس لايطاليا فيها ، متجردين من الوازع الديني ، وخائنين لوطنهم وشعبهم ، وقد استطاع رمضان بيقظته هو وعيونه حولهم في كل جهة ، أن يكتشف الكثير منهم متلبسين بجرائمهم الكبرى ، فاستحقوا من أجلها التعليق بحبال المشانق .

ولكن لم يدر بفكره ولا بفكر أحد من مواطنيه ، أن شخصية مصراتية يظن فيها الصلاح والطيبة ، تحط بكرامتها وشرفها ، لدرجة ترضى أن تكون عميلة وجاسوسة لإيطاليا ، ضد رمضان وأنصار حكمه ، ولولا العناية الربانية

التي فضحت سره الدفين ، بطريق المصادفة غير المتوقعة ، لما كان أحد يستطيع الاهتداء إلى خيانته العظمى ، ولظل آمناً في عمله الإجرامي من الخوف ، ومقرباً إلى رمضان لاعتقاده فيه الأمانة والاستقامة . ومنتظراً بعد نجاح تضليله له وإنجاز مهمته الذميمة ، أن يغدق عليه الطليان المال الوفير ويمنحوه المنصب الذي يريده .

وتوضيحاً لأسباب ونتائج هذا الموضوع ، ليسمح لنا القارىء أن نرجع به قليلاً إلى الوراء ، فإن الطليان بعد أن أجلاهم رمضان عن مصراته ترك فيها عشرات من الأسرى ، كما أن خليفة بن عسكر وعبد النبي بلخير ، بعثوا له أغلب الأسرى الذين أخذهم الأول في نالوت ، وأخذهم الثاني في بني وليد ، لأنه لم تتوفر للاثنين ببلدتيهما أسباب الإنفاق عليهم والاحتفاظ بهم ، كما هو متوفر في مصراته لدى رمضان . فاستقبلهم من الطرفين كمظهر للتضامن الوطني ، وتخفيفاً لأعبائها الجهادية في تلك الجهات ، وقد استخدم رمضان الأسرى في مصراته بشتى الصناعات الحربية والمدنية ، التي يتقنون معرفتها من قبل في بلادهم . وأحسن معاملتهم الأدبية ، ورتب على الناس معيشتهم في حدود إمكانياتهم .

ولقد غاظ الحكومة الايطالية ، أن يبقى الكثير من جندها أسرى لدى عدوهم الأول وقاهر جيشهم في القرضابية ، وهو يستفيد منهم باستخدامهم في أغراضه الحربية ، لذلك أخذت تسعى بكل الطرق السياسية والمادية والتجسسية لاستخلاصهم من قبضته ، مقابل أي تعويض أو ثمن يطلبه منها ، وظلت تفتش على من يقوم لها بهذه الوساطة إلى أن اهتدت في مدينة طرابلس إلى رجل من أسرة المناصرة المنحازين لصفها ، اسمه (أحمد السني المنتصر) ونظراً لأنه لم يكن معروفاً لدى رمضان ، بميله السري للعدو ، ولم يشتهر سابقاً بريبة في عدم إخلاصه لوطنه ، فلما رجع لمصراته وقابل رمضان ، أفضى إليه بحقيقة الوساطة التي كلفه الطليان للتحدث بها

معه ، فاعتذر إليــه أن الوقت لا يزال غير مناسب لإطلاق سراحهم ، وكان لرمضان فكرة وطنية بهذا الخصوص سيأتي بيانها لارتباطها بمسائل سياسية أخرى .

ولكن[1] (أحمد السنوسي) مع رجل آخر اسمه (العرابي بن عطية) يحترف العمل باقتناء أو تأجير مراكب شراعية ، تحقيقاً لرغبة اللذين باعا ضميريهما ونفسيهما له ، شرعا يعملان لإنقاذ جنوده من مصراته ، إلى أن تمكنا خفية من التهريب مبدئياً للأسرى الكبار رتبة في مركب شراعي ، اتفقا مع صاحبه ليوصلهم بحراً إلى مدينة طرابلس ، ثم جاءا إلى (سمكري) في المواطنين اسمه (محمد بن حسونه) فعمــل لهما ماسورة صفيح وضعا فيها رسالة مطولة للايطالي المختص هناك بالأمر ، وختماها بإمضائهما ، وقد ذكرا فيها بالتفصيل كيفية التهريب لبعض من الجنود الأسرى والضباط ، والأحوال الاجتماعية والحربية والمعيشية للنــاس الواقعين تحت الحكم السويحلي ثم لحم لهما الماسورة على الرسالة السمكري المذكور .

وسافر بهم المراكبي الذي أحضره ابن عطيــة ، ويقدر الله أن يضطرب الجو ويتحرك البحر بأمواج تعلو وتنخفض بلا استقرار ولا انقطــاع ، ولم يحتمل مركب الأسرى الفارين مقاومة هياج البحر في اضطرابه الشديد ، فغاص إلى أعماق اليم وغرق جميع من فيه .

وفي جهة غرب سرت يقال لها (تمد حسان) قذفت الأمواج على الشاطىء جثة ضابط من الأسرى الذين غرقوا معلقة في رقبته تلك الماسورة ، فعثر

---

(١) رواية عن حادثة أحمد السني من اتصاله بابن عطية وابن حسونة إلى الحكم عليهم بالاعدام مأخوذة عن الأحاديث المتواترة عنها بين قدامى المجاهدين مع رمضان وبصفة خاصة عن (الحاج سالم الزبيدي) ضارب النفير (البرزان) في قيادة رمضان وعن الحاج الشيباني السويحلي ورواية في بعض التواريخ الطرابلسية بإيجاز .

عليها بعض المارة على الشاطىء وانتزعها من الجثة ، وبواسطة قائمقام سرت الحاج علي المنقوس ، أرسلت إلى رمضان بمصراته ، فلما فتحت دهش لما تضمنته الرسالة التجسسية من أخبار البلد عامة ، زائداً عليهـا أن أحمد السنوسي يطلب فيها من ايطاليـا ، أن تكافىء بسخاء كلاً من ابن عطية وابن حسونـة والبحـار الذي نقلهم ، لاخلاصهم ومعاونتهم إياه في تهريبهم .

واستدعي الثلاثـة إلى مجلس المحكمـة الشرعية العليا ، وكلف فيـه رمضان أحمد السنوسي قائلاً له بصفتك عارفاً للقراءة والكتابة ، تفضل فاقرأ هذه وأعطاه رسالته المعثور عليهـا في الماسورة ، واضطرب وأدرك مصيره ، فقال لا داعي لقراءتها ، ووجودي في هذا المجلس الشرعي ، أيقنت مما سيحكم علي به ، وأصر رمضان على طلبه ، فقرأها من أولها إلى آخرها ، على مسمع من الحاضرين بالمجلس ، وعلى أثر ذلك أصدرت المحكمة حكمهـا باعدام الثلاثة المشتركين في عملية الخيانة العظمى شنقاً ، في الساحة التي أمام القصر الحكومي بمصراته الموجود للآن وذلك على مشهد من الجمهور الغفـير .

محاربته للفساد الاخلاقي :

وكان رمضـان يرى أن الفساد الاخلاقي ، سواء أكان بالاغتصاب الجنسي ، أو بالتراضي بين الطرفين ، هو من أكبر العوامل في بث الرذيلة بين أفراد المجتمع ذكوراً وإناثاً ، والرذيلة على اختلاف صورها ، مميتة في النفوس الشعور بالمسئولية ، وعدم الغيرة على شرف وسمعة الأسرة ، وتنقص في صاحبها الاعتزاز بالشهامة والكرامة ، وتجعل أبناء الأسرة غير مبالين بصيانة أعراضهم ، لانغماسهم هم في حمأة الدناءة والتبذل .

ونظر رمضان إلى عاقبة هذه الشرور الاخلاقية ، وتأثيرهـا الوخيم على انحطاط الآداب العامة في المجتمع ، فتولى محاربتها والقضاء عليهـا هي وأصحابها بنفس الإجراءات والإزهاق للروح ، ، التي أخذ بها من قبل أولئك ، السراق وقاطعي الطرق والجواسيس ، وبـذلك نظف المجتمع من المنحرفين أخلاقياً ، وأخاف من سوء العاقبة كل من شذ عن جادة الصواب ، ونسوق على ذلك ثلاث حوادث لما تقدمت الإشارة إليه .

١ — فحين بلغه أن امرأة في المواطين ، كانت تخدم وتغسل لبعض الأسرى الإيطاليين ، المشتغلين بأعمال صناعية للحكومة ، سلمت نفسها لأحدهم ، ولما حقق الأمر جيداً صحت عنده الإخبارية عنها ، لم يعارض في قتلها بإجازة الشرع إقامة الحد عليها .

٢ — ومما جرى [1] نظير هذه الحادثة ولكن بصفة أفدح إجراماً ، أن رجلاً في محلة الغيران بلغه خيانة زوجته له مع شخص من جيرانها ، حين يتغيب ويبات أحياناً في البر لأعمال زراعية ، وأنها ترتكب ذلك بمنزله المقيمة فيه وحدها .

وأراد أن يتحقق من التهمة وهي متلبسة بجريمتها ، فأمرها أن تعد له لوازمه للبر كالمعتاد ، فلما أنجزت طلبه خرج قبيل المغرب متظاهراً بالسفر ، ثم عاد متخفياً بالظلام وكمن تحت طابيـة يراقب منزله ، ولم يطل به الوقت حتى شاهد رجلاً يدخله بحذر .

ومن سوء حظ الاثنين أن باب المنزل تركه الرجل مفتوحاً غير مقفل ، وكان الزوج ماسكاً بيده فأساً ، فتمهل قليلاً ولما دخل ووجدهما في

---

(١) الرواية عن الحاج الفيتوري السويحلي المسبوق ذكره في مناسبات عدة ، وأما حادثة المرأة والأسير الايطالي فهي عن بعض المهاجرين بمصر وتأكدت من صحتها هنا .

حجرته متلاحمين ، اعترته ثورة انفعالية لاشعورية لكرامته وشرفه المثلومين ، وبهذه الحالة النفسية اللاشعورية هوى بالفأس على رأسيهما ، فتركهما يعالجان سكرات الموت ، وخرج كالمجنون يركض للمواطين ، وأخبر رمضان بقصته من أولها إلى آخرها ، فأمر بإيقافه للتحقيق ، ولما جاءه تقرير مفصل يثبت سلوك امرأته السيىء مع الرجل الذي وجده عليها تلك الليلة ، استعظم ذنبهما بصفتهما محصنين وارتكبا فعلتهما هذه بدار رجل معروف بالاستقامة والجهاد ، والنشاط الفلاحي والزراعي ، فدنس بيته وتجاوز حرمته ، وأن ما جرى لهما كان عقاباً من الله على ما اجترحا بجانبه من الموبقات ، التي هي من كبائر الآثام والذنوب ، ولهذه الأسباب أطلق سراحه بدلا من سجنه .

٣ — وكان شاب من الضباط المجاهدين ، غرته نفسه الأمارة بالسوء فاغتصب فتاة ، فقيل ان رمضان ليرهب من يتجرأ في المستقبل على مثل فعلته ، ناداه بأرض الفضاء ، وأمره أمام جمع كبير من الشبان الضباط أن يحفر قبره ، ثم أعدمه فيه وأهيل عليه التراب ، وقيل إن الضابط لم يقتل بهذه الصفة ولا بغيرها ، بل أرغم على الزواج بالفتاة ففعل .

اهتمام بنصرة العدالة :

وكما أن رمضان لم يغمض طرفة عين ، عن أولئك اللصوص والسراق والجواسيس ومفسدي الأخلاق ، فنكل بهم واجتث جذورهم ، وطهر الأرض منهم ، بتصرفاته الصارمة التي أوجبتها عليه الظروف الحربية القاسية ، وتحمل مسئولياتها وحده ، كذلك وجه التفاته أيضاً إلى المحاولين ، أن يستولوا على أموال غيرهم العقارية ، لا لأسباب مبررة قانوناً أو شرعاً ، وإنما بتأثيرات النفوذ القبلي أو التعصب العائلي .

فأخضع هؤلاء بشخصيته القوية إلى التزام التمسك فيما يريدون بأحكام الشرع والقانون ، والاعتراف بحقوق الناس وعدم مسها بما يضيرهم ويؤذيهم ، وأفهمهم بسيرته القويمة فيهم ، أنه ليس هناك من سلطة في البلاد ، تجب لها الطاعة والاحترام سوى السلطة التي ارتضى بها الشعب بعد القرضابية ، أن تتولى أموره ومصالحه ، وتحمي دياره ، وتحافظ على أمنه وحريته .

وقبل أن نتعرض للقضية العقارية الآتي بيانها ، كشاهد على هيبة رمضان في النفوس بقبولها في حضوره حكم العدالة صاغرة ، فقد قيل لنا بمناسبتها ، أن النزاع [1] العقاري الكبير في زليتن بصفة عامة ، كان من زمن الترك ، وامتد إلى أيام رمضان السويحلي وإلى ما بعده وليس هو بين فريقين فحسب ، بل هو نزاع متشعب على أراض واسعة ، بعضها لها مستندات من بيت المال ، وبعضها الآخر مستولى عليها بالحيازة ، ووضع اليد بتقادم العهد ، من ذلك مثلاً الأراضي الواقعة في الشمال من رأس وادي ماجر ، تداخل في ملكيتها كل من الفواتير وأولاد الشيخ والعمائم وأقرباء هؤلاء من جرشة مصراته .

وأما القضية التي نحن بصدد التحدث عنها وصلة حلها برمضان فقد كانت [2] في زليتن كذلك من أيام الترك ، بين عائلتين من قبيلة الفواتير ، على أراض زراعية واسعة في البر ، وكان كل فريق منهما يدعي أنها له ، أو يدعي استحقاقه فيها الجزء الأوسع مساحة .

---

(١) هذه الرواية مأخوذة عن الحاج محمد بن مفتاح شعاعة الزليتني الفيتوري وقد عاصر عهد رمضان السويحلي وإخوته وكان وقتئذ من المجاهدين ، ويبلغ من العمر بتاريخ (١٩٧٤/١/٩) نحو تسعين سنة ولا يزال صحيح البدن نشيط الحركة ، وقد نقلنا عنه في هذا الكتاب عدة روايات أخرى في مناسبات مختلفة لثقتنا في أقواله ونزاهته .

(٢) حادثة هذه القضية من أولها إلى نهايتها ، قد رواها لي المرحوم الفقيه العالم الزليتني الشيخ فرج بن عبد السلام الفيتوري الحراري ، عندما كنا طالبين بالأزهر الشريف حوالي سنة ١٩٣٠ ، واستعنت هنا أخيراً على معرفة القاضي المذكور بواسطة الأستاذ الشيخ بشير الصاري.

واستمر النزاع فيها إلى زمن رمضان السويحلي ، ولما تجدد تحريكها بوقته ، أشار على محكمة زليتن الشرعية ، أن تسرع بالبت فيها ليتفرغ المتخاصمون للقيام بشئونهم الحيوية والجهادية .

ويوم حدد القاضي (الشيخ عبد الله بن موسى أبو جحر) الفصل فيها ، فوجىء بساحة المحكمة وأطرافها مكتظة بالمتخاصمين ، فرساناً ومشاة ، وهم متقلدون أسلحتهم النارية ، وأدرك بذهنه اليقظ أن الذين سيكون الحكم في غير مصلحتهم ستثور أعصابهم وتهيج نفوسهم على من ربحوا القضية ، مما قد يؤدي بهم الغيظ ، إلى نشوب عراك مسلح بين الطرفين ، فأعلن تأجيل القرار إلى نهار الغد ، وبادر سراً فخاطب رمضان بمصراته هاتفياً ، أنه إذا لم يحضر بنفسه نهار الغد ، لإصدار الحكم في القضية بوجوده ، فلا يستبعد أن يقع بين الطرفين الناجح والخاسر تصادم ، وفي هذا ما فيه من عواقب وخيمة على الناس الأقرباء لكليهما وعلى البلاد أيضاً .

فطلب منه رمضان أن يتأنى غداً في إعلان الحكم ، إلى حين قدومه إليه ، وبعد العشاء اتجه إلى زليتن مع مرافقيه ، ووصلها عند افتتاح المحكمة ، وانتشر خبر قدومه فتسارع الناس لرؤيته والسلام عليه ، ولما شاهده أرباب النزاع اندهشوا لمجيئه في هذا اليوم ، فتظاهر أمامهم أنه جاء ليزور القاضي في طريقه إلى مسلاته ، وسألهم متعجباً ما الأمر وأنتم بهذا الاستعداد الحربي ، هل سمعتم بخروج العدو من جهة بحرية أو برية قادماً إليكم ، أم هناك أمر آخر ، فارتبكوا أمامه لما كان له من الرهبة ، حتى في قلوب الرجال الصناديد .

ودخل إلى المحكمة فاستقبله القاضي بعبارات رقيقة ، توحي للسامع عدم توقعه رؤيته في هذا اليوم ، فأجابه – وكانت الجلسة علنية – بأنه لمناسبة ذهابه إلى مسلاته ماراً بزليتن ، أحب زيارة المحكمة والتعرف على أحوالها ، وقال له القاضي قدومك نعتبره بارقة خير إن شاء ، إذ في هذه الساعة ستصدر المحكمة

قرارها في قضية الفواتير . ونودي على رؤساء الخصام بحضور رمضان، وشرعت المحكمة في إعداد نسخة القرار ، ثم أخذت بتلاوته على مسمع من الجميع ، وانتهت القضية في صالح أحد الفريقين ، دون أن يبدي رجاله أية حركة تدل على نشوة الفرح استفزازاً لخصومهم ، ورجع من لم يكن الحكم في صالحهم بالهدوء التـــام وبالضبط لانفعالاتهم [1] .

وكان حضور رمضان ساعة الحكم ، هو السبب في إلغاء نار الفتنة بين هؤلاء المتنازعين ، ذلك أنه كما قال سيدنا عثمان بن عفان ، رضي الله عنه : « إن الله يزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن » أي أن كتاب الله المنزل ، يحتاج إلى من ينفذ أحكامه ويعمل بأوامره ونواهيه .

(ب) – وهناك واقعة ثانية نشهد لرمضان بحبه الفطري للعدالة وتمسكه في أن ينصف الإنسان غيره فيما عليه له من حق . ففي [2] أحد الأيام من إقامــة رمضان في سواني بن آدم للعمل الوطني، وكان معه صديقه الوفي عمر أبو دبوس، والفارسان المغواران شقيقه سعدون السويحلي وتابع رمضان الأسمر الأمين « سعيد الهيثي » الذي كان بشجاعتــه وتفانيه بخدمته ألزم له من ظله ، وكان رمضان يحبه ويعتبره بمنزلة ابنه إبراهيم .

ورغب كل من سعدون وسعيد ، أن يتباريا بفروسية السباق على جواديهما ، ووقف رمضان وأبو دبوس يتفرجان ، وانطلقا كوميض البرق في اتجـــاه المتفرجين ، واشتد حماسهما ليحرز أحدهما السبق على الآخر ،وكأنّ جواد سعيد

---

(١) وفي رواية أخرى عن الحاج بالعيد الوسيع ، من قبيلة أولاد بو شعالة الزليتنية ، أن الخصام حول القضية المذكورة ، كان بين قبيلتي أولاد الشيخ والبراهمة ، وانتهى بالمحكمة في ذاك اليوم صلحاً بوجود رمضان السويحلي ، وتوسط فيه بعض أعيان الفواتير وبعض العلماء ، الذين استدعوا لهذا الغرض ونحن ذكرنا الروايتين خدمة للحقيقة والتاريخ .

(٢) الحادثة مروية عن الحاج الشيباني أحمد السويحلي بن شقيق رمضان .

بخفة جريه كاد يسبق ، أو أنه صدم جواد سعدون ، فالتفت هـــذا منفعلاً ، وضرب سعيد بالسوط غاضباً من الصدمة .

ولما رأى رمضان الحادثة وترجـــلا أمامه ، دون أن يظهر الفوز لأحدهما ، ثار على شقيقه ثورة انفعال وغضب لجرأته بالتعدي على قرينـه في السباق ، وقال لسعيد هيّا اضربه بسوطك كما ضربك هو ، وإلا فسأضربنه بدلاً منك .

وحاول سعيد أن يهدىء من غضب رمضان ، وأنه كان يقصد حصانــه الذي ضايقه لا شخصه ، وان السباق كان للتسلية في وقت الفراغ ، وليس للتفاخر بفوز أحدنا على الآخر ، وأنه سامحه على ذلك ، وانه ربما كان الخاطىء في استفزازه لسعدون ، غير أن رمضان أصر على سعيد ، بأن يأخذ ثأره بالمثل من شقيقه ، عندئذ تداخل الحاضرون وأبو دبوس ، فطلبوا من سعيد احترام رغبة مخدومه ، فقبل وضرب سعدون بسوطـه ضربة طفيفة .

ولو لم يقبل سعيد الامتثال ، لكان رمضان قام بضرب سعدون ضربة غائظة قوية قد تحدث له عاهة ، من شدة حنقه عليه ، لعدم اعترافه بالحق على نفسه ، لأن سعيد[1] بالنسبة لرمضان ، هو الصديق الوفي ، والمشارك له في السراء والضراء ، وكان معجباً بفروسيته وشجاعته وإخلاصه له ، بل أنه كان كاتم سره ، والوسيط الخاص لمقابلة الناس له في الرسميات ،

---

(١) وأصل سعيد أنه عندما كان صبياً ، نزح هو وأسرته من الهيشة إلى مصراتـه في إحدى أعوام المجاعة والجفاف ، ونزلوا في سواني الشتيوي بالزاوية ، وقـــام هو ووالده رجب بن علي وأخوه أحمد بخدمة آل السويحلي، ثم اختار رمضان سعيداً ليكون معه ، فكان اختياره موفقاً لذكاء سعيد ونجابة أوصافه ، والهيشة واحـــة صغيرة جنوب شرق تاورغا .

وخاض معه جميع معاركه الحربية .

من أحوال تقشفه وتواضعه فطرياً :

ولئن اشتهر رمضان إبان حكمه ، بمواقفه الصارمة مع الذين ، انحرفوا عن النهج القويم عملاً بقول الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً
فليقس أحيانـــاً على من يرحم

فإنه إلى جانب ذلك ، قد نما صيته في كل ناحية وصوب ، باجتناب المحارم وقيامه بالمواظبـة على فرائضه الدينية ، وانه كان ذا نفس متواضعة وحياة متقشفة :

١ – فقد كان في زيّـــه الوطني ، الدائم ارتداؤه له ، هو طاقية مصراتية بيضاء ، وقميص أبيض فضفاض برقبة مفتوحة قليلاً حول عنقه ، وكان واسعان ، وسروال وطني أبيض ، وحذاؤه بَلـْغَة صفراء (عفّاسي) ، ولباسه الخارجي (حُولى) أبيض أيام الصيف وعباءة حمراء أو شهباء (بشيميّة) في أيام الشتاء ، ويقشط وسطه بحزام من الجلد ، ويعلق على أحد كتفيه (جبيرة) بمثابة المحفظة ، يضع فيها بعض الأوراق للكتابة أو خطابات رسمية ، ولم يعرف عنه أنه ظهر في زي وطني أنيق ، سوى اليوم الذي دخل فيه هو وجيش الجمهورية الطرابلسية لمدينة طرابلس ، في ٦ ذي القعدة سنة ١٣٣٧ هـ الموافق أوائل يونيه سنة ١٩١٩ م وذلك لمناسبة الانعقاد لصلح سواني بن آدم ، فاضطر وقتئذ أن يلبس (حولى سعفة) اللائق بلباس الزعماء والأعيان .

٢ – ولم يكن له طعام خاص به ، فكان يتناوله مع أفراد المجاهدين

الأقرب منهم إلى مكان وجوده ، والغذاء المحبب اليه في السفر والتجول في مناطق حكمه هو الزميتة (السويق) ومن أمثلة هـذا الكلام [١] ، أن الطاهر بك (شلابي) من قبيلة البلا عزة في الزاوية الغربية ، لما عاد من هجرته إلى تونس ، وسمع برمضان وببطولته في القرضابية ، قصد التعرف عليه فزاره في ساحل آل حامد .

وكان يحسب أنه سيجده في سرادق فخم أو في منزل كالقصر ، ولكنه لقيه في خيمة اعتيادية مثل خيمات بقية رجاله ، ومفروشة بكليم (بساط) مصراتي ، فأكبر الطاهر بك في سره شخصية رمضان وتواضعه ، واستقبل رمضان قدومه لزيارته ، بمنتهى الحفاوة والاكرام والتقـدير ، نظراً لمكانته المرموقة في الزاوية الغربية ، ولما حان وقت الغدا قال له رمضان ، يا بك ، انني سأتغدى زميتة ، ورفاقي في المخيمات المجاورة عندهم للغدا خبز وطبيخة ، فايهما شئت فتفضل ، وآثر شلابي بك الزميتة فتناولها معه في خيمته مغتبطاً بمعرفته إياه .

٣ – **ومن تواضعه** أن ابن اخته [٢] فتولة ، حين رآه في بعض المجالس قام يريد الانصراف ، أسرع فقدم له حذاءه ، فنهره بعنف وكاد يصفعه قائلاً له أغرب عن وجهي ، وكان يقصد بهذا التعنيف ، أن تقديم الحذاء له يحط من قدر فتولة أو من غيره إذا عمل مثله ، لأن الرجل الذي يحرص على كرامته وشممه يجب أن يترفع عن ذلك ، ولأن رمضان كان لا يرى لنفسه ميزة استعلاء عن مواطنيه .

---

(١) الرواية عن المرحوم الشيخ عبد الرحمن البشتي ، عندما كنت مقيماً بالزاوية الغربيـة حوالي سنة ١٩٤١ م أثناء الحرب العالمية الثانية .

(٢) عن الحاج الفيتوري السويحلي .

٤ — ومن حكايات تواضعة أيضاً ، انه[١] فيما كان ذات يوم ذاهباً إلى مسلاته مع خمسة فرسان من رفاقه ، مر بمكان اسمه (شعاب الخروب) ، تغطي أرضه أشجار الزيتون المتكاثفة ، ويجلس تحتهـــا تاجر زيت من مصراته اسمه (عبد السلام الشحومي) كان قادماً من مسلاته بتجارته ومعه زميل له ، وبقربهم ثلاثة جمال باركة ، وحولها ست قرب (سليخ) مملوءة زيتاً يريدون الاتجار بها في مصراته .

فلما شاهدا رمضان ماراً بهما ، أسرعا فاعترضا طريقه واستقبلاه مرحبين به ، ودعياه ليتفضل بشرب الشاي معهما ، فأخذ بخاطرهما وترجل مع رفاقه عن خيولهم ، وجلسوا يتبادلون حول الشاي أحاديث المجاملة وغيرهـــا من الأمور الاجتماعية ، وحان وقت الغدا فقال الشحومي معذرة يا بك رمضان ، ليس لدينا من طعام سوى الزميتة ، فأجابه أنها غاية مـــا اشتهيه لخفتها على المعدة ولعدم فسادها بالسفر .

وبعد أن تغدوا قام الرجلان ، يتهيآن لمغادرة المكان ، ولما أرادا أن يشيعا رمضان ، قال لهما لا يمكن أن نغادركما إلا بعد أن نساعدكم ، بوضع القرب فوق الجمال ، إذ أنتما الاثنان وحدكما سيكون العمـــل فيه مشقة عليكما ، وقد ألحـــا عليه أن لا يشاركهما برفع القرب ، خوفاً من أن تتلوث ثيابه بزيتها .

ولكنه أصر على ذلك ، فشمر كمي قميصه الواسعين ، وعقدهما حول رقبته كعادة الفلاحين الطرابلسيين ، أثناء الخدمة الزراعية ، وقاموا معه متعاونين بوضع القرب (السليخ) على الجمال وربطها ، وبعد إتمام العمل

---

(١) عن الحـــاج سالم محمد الزبيبك من قبيلة الشراكسة الخضر بمصراتـه ، وكان من ألزم المجاهدين لرمضان إلى آخر حياة رمضان . والزبيبك هو لقبه الصحيح وسيأتي له ذكر آخر .

اتجه رمضان غرباً نحو مسلاته ، واتجه مضيفاه شرقاً نحو مصراته ، وهما مأخوذان إعجاباً بنفسه المتواضعة غير المتكلفة لهذا السلوك ، وتقديراً لزعامته الشعبية الحقة .

٥ – وكان [١] رمضان مشهوراً بأنه من أبرع البيطريين العرب ، في معالجة قروح وجروح الحيوانات وأمراضها ، ولا سيما منها الخيل ، وكان يعالجها بالحشائش والوصفات الثابتة فائدتها بالتجارب والممارسة ، ولهذا كان يتولى بنفسه معالجة خيول المجاهدين، المصابة بإحدى العلل البيطرية، وربما الأصل في اكتسابه هذا العمل التواضعي، مما كانت تصاب به مواشيهم من الأوبئة الحيوانية، واضطرارهم إلى معرفة أساليب التطبيب النباتي وغيره المجرب النفع لها .

وعلينا أن لا نتعجب من حياة رمضان هذه النشطة المتواضعة ، البعيدة عن الزهو والغرور ، فنشأته بين طلاب العلم في معهدي الزاوية والزروق ، ومع فلاحي سوانيهم ورعاة حيواناتهم في البر ، كل قد هذبت نفسه ، بإحساسها وشعورها كونها لا تمتاز في شيء عن باقي أفراد مجتمعه ، فضلاً عن أثر تربية والديه له ، على المعيشة الاعتيادية كالناس الآخرين من أبناء وطنه ، الخالية حياتهم من التأنق في اللباس والتلذذ والأطعمة الفاخرة .

ولهذه الأسباب كان يأكل هو وعمال أرضهم حول مائدة أو قصعة واحدة ويعزق التربة ويروي الغرس مثلهم ، ويشاركهم في الزرع وعلف الحيوانات وحصاد ودراسة الغلات ، وقطف الثمار ورقاية النخيل ، فهذا النشوء التربوي والسلوك الاجتماعي لرمضان ، هما اللذان جعلاه لين العريكة ، محبباً للنفوس

---

(١) براعة رمضان بمعالجة الحيوانات المريضة ، أخذاً من روايات مجاهدي أيامه المهاجرين إلى مصر ومن غيرهم هنا ، وأخبرني الزميل المؤرخ محمد الأسطى أن المرحوم محمد الحداد نفسه عند مقابلته في مصراته كان مما حدثه به عن رمضان ممارسته بحذق معالجته لخيول المجاهدين المريضة أو المجروحة .

بعيداً عن الخيلاء ولله در القائل :

كن ليناً متواضعاً بين الورى
ترفع وتحمد في جميع الألسن
وانظر إلى الأكحال وهي حجارة
لانت فصار مقرها في الأعين

الفصل الرابع والعشرون

المواقف الإنسانية النبيلة لرمضان

ومن مواقف رمضان الإنسانية النبيلة ، في بذل العطاء والرأفة بالضعاف وتقدير المخلصين ، وإغاثة الملهوف ، ونظافة اليد ، واتقاء الشبهات ، فإن قصصه وأخباره في كل ذلك ، مما يقصر عن تناولها هذا الفصل .

١ ـ ومما يدل على سجية الكرم في نفسه وبره للفقراء ، أنه [١] عندما كان طالباً بزاوية سيدي أحمد الزروق ، كان عنده بخلوته في فصل الشتاء ، عباءة فاخرة من الصوف الأحمر ، التي لا يقتنيها عادة من الطلاب ، سوى أبناء الوجهاء أرباب الثروة الطائلة ومما زيد في قيمتها المعنوية أنها من النسيج المنزلي لأسرته .

وفي أحد الأيام جاء إلى الزاوية بعض الغرباء من شمال افريقيا قاصداً

(١) الرواية عن الحاج الشيباني أحمد السويحلي وهو كما تقدم ابن شقيق رمضان . وعلينا ان لا نستغرب منه تنازله عن عباءته لرجل فالكرم فيه وراثة عن أبيه.

الحج على قدميه ، وصار الطلاب يقدمون إليه مما يأكلون في وجباتهم ، ولكن الرجل اشتد عليه البرد ليلاً ، حتى لم يستطع معه النوم ، على الرغم مما أسعفه به الطلاب من أغطيتهم الخفيفة ، والظاهر أنه كان متقدماً في السن أو ضعيف البنية ، فلم تدفئه أغطيتهم ، وفي الليلة التالية توسل إليهم أن يزيدوه غطاء أثقل ، عندئذ أشار عليه أحد الطلاب أن يذهب إلى خلوة رمضان الشتيوي ، ويرجوه أن يعيره غطاء دافئاً ، وسيرجعه له عندما يسافر ففعل .

ورحب به رمضان وأعطاه نفس العباءة الحمراء الجديدة الفاخرة ، ولما همّ الرجل بالسفر وأخذ العباءة له ، شاكراً إنسانيته ومروءته ، أجابه رمضان عساك أن تكون قد دفئت بها قال نعم ، فرد رمضان عليه العباءة قائلاً خذها مني هدية لك ، فالبرد شديد والسفر طويل ، فأكبر له اخوانه الطلاب هذه الشهامة والنخوة ، واعتبروها منه سمعة طيبة في الخارج لأهل العلم ، ولأبناء وطنه المصراتيين ، أينما سيحل بالعباءة بسفره .

واشتهار رمضان بالبذل والعطاء ، بعد أن صار زعيماً وحاكماً ، له في ذلك أخبار وحكايات جمة ، ولكننا نعتقد أعظمها دلالة على كرمه وإشفاقه وبره على المعوزين ، هي حادثة تبرعه بعباءته الثمينة ، لذاك المغترب الفقير ، وانه ليعلم سرور أبويه بما فعل مع الرجل لاعتبارهم ذلك منه قربة حسنة إلى الله ، وشيمة من شيم ذوي المروءة والإصالة .

ينشأ الوليد على ما كان والده
إن الأصول عليها ينبت الشجر

٢ — ومع ما عرف عن رمضان من الشدة في تنفيذ أفكاره ، التي كان يراها في المصلحة العامة ، فإنه كان عطوفاً على تقدير واحترام الأسر التي

لا ذنب لها ضده ، وحمايتها من انتقام الذين ، الحق رجالها بغيرهم أضراراً فادحة .

ففي حادثة تجمهر الناس بمصراته أمام قصر الحكومة ، كما ذكرناها في صفحة (١٠٠) ، بعد[1] أن وصل الفارون من رمضان إلى سرت ، وكان في مراعيها أغنام وإبل كثيرة ، يمتلكها أنصار رمضان بمصراته ، فكيداً لهم لعدم انضمامهم مثلهم إلى صفي الدين ، نهبوا بالقوه مواشيهم ، ونزحوا بها في هجرتهم إلى مصر وباعوها في طريقهم .

وفي مصراته لما أراد أصحاب المواشي المنهوبة ، أن يجازوهم بالمثل فيستولوا على جميع مـــا تركوا وراءهم في منازلهم ، من الأرزاق والأمتعة والأموال ، مقابل ما خسروه بالنهب من ثرواتهم الحيوانية ، وعلم رمضان بما صمموا عليه ، فأخذته الغيرة والشهامة على نساء وأطفال وشيوخ الهاربين ، ومنعاً من أن يجتاح أولئك حرمات هؤلاء الموفوة في غارة انتقامية من ذويهم ، أسرع وأوفد لهم من طرفه من أنذرهم ، أنه من يحاول منهم أن يدخل إلى عتبة منزل لأحد المغتصبين لحيواناتهم ، فليس له عنده سوى العقاب الصارم ، ولدى تلقيهم هذا الإنذار ، فلم يجرأ ولا واحد منهم على تنفيذ انتقامه بسبب التهديد العنيف الذي وصلهم من رمضان .

ولكنه لاقتناعه أنهم بسبب تأييدهم إياه ، قد غدروا وظلموا كثيراً في أموالهم وأرزاقهم ، وكانت المجاعة حوالي تلك السنة قد لاحت بوادرها ، فتخفيفاً لما في نفوسهم من الغيظ والكدر لمنعهم من أن يأخذوا الثأر من خصومهم الهاربين ، فيما تركوا لأسرهم من خيرات ، لذلك أباح بأذونات رسمية من الحكومة ، أن يقطعوا ويحجموا رؤوس النخيل ، المملوك لناهبي

---

(١) الرواية عن الوجيه الحاج علي الضراط المتقدمة شخصيته وصفته والثقة بـه .

مواشيهم ويشربوه لاقبي [1] حلواً ، كما أباح للفقراء الجائعين بنفس الأذونات لظروف المجاعة ، أن يفعلوا بالمثل في جميع النخيل ، الذي تمتلكه أسرة عمر المنتصر ، أو في نخيل السواني التي أصحابها من عملاء ايطاليا والخوة لوطنهم .

ولرمضان كل العذر والإنصاف في إجازة هذا التقطيع ، وخصوصاً في هذا العام الذي اشتد قحطه ، فإن حياة الأرواح التي جعلتها المسغبة هياكل بشرية جلوداً على عظام ، أولى وألزم بالبقاء والحياة ، من نماء النخيل الذي هجره أصحابه ، الخاذلين لأبناء وطنهم في وحدتهم وكفاحهم ذوداً عن حريتهم وأعراضهم .

جـ – ومن شفقة رمضان على المرضى في صحتهم ، واهتمامه بوسائل شفائهم ، أن أحد [2] المجاهدين الفرسان ، وهو (ع.ف) من قبيلة الجهانات ، أصاب ولده مرض داخلي ببدنه ، فوصف له طبيب عربي ممارس للعلاجات المحلية ، أن يسقيه دائماً اللاقبي الحلو ، فيزول عنه ما يشكو منه .

وكان الفارس المذكور معروفاً كونه مدمناً بشرب اللاقبي القارص المسكر ، وبصفته غير فقير محتاج طلب أن يعطيه أذناً بقطع نخلة لهم لاقبياً حلواً لوالده المريض ، بناء على ما وصفه له الطبيب العربي ، فأعطاه إذناً واشترط عليه أن يكون حلواً ، وفهم (ع.ف) ما قصده رمضان بهذا الشرط ، فأكد له أنه سيحترم شرطه بكل أمانة وصدق .

فكان خوفاً من أن يشي أحد من أعدائه لرمضان ، أنه في مربوعته جرة

---

(١) اللاقبي هو نزيف النخيل عند قطع رؤوسه عصارته المائيـة ، التي تمتصها جذوره من الأرض ، وشرب اللاقبي حلواً غـذاء يتقوت به الناس في أعوام المجاعة ، وتركه حتى يحمض ويخمر يكون مسكراً شديداً ، وهذا الوصف قد منع رمضان شربه بكل صرامة .

(٢) القصة الواردة في حرف (جـ) حدث بها المجاهد (ع.ف) المؤلف شخصياً .

(داقره) لاقبي حامض مسكر ، فكان بعد أن يشرب والده لاقبيه في اليوم ، يبادر هو فيغسل (الداقره) جيداً بالماء ، ويقلب أعلاها إلى أسفلها حتى لا يجد الوشاة ذريعة للكيد له عند رمضان .

ومما له صلة بالموضوع ، ويوحي إلى تعقل رمضان وميله للانصاف ، لما سكن والد الفارس (ع . ف) وأخوه مدينة طرابلس ، اعتبرهما أبناء قبيلتهم مطلينين فأخذوا يقطعون نخيلهم لاقبيا حلواً ، عملاً بقرار الحكومة السويحلية بهذا الخصوص ، فافهمهم (ع . ف) ، أن الذي هم آخذون بتقطيعه لا يزال ملكاً مشاعاً لأسرتهم كلها ، وليس هو للغائبين وحدهما ولما رفضوا إيقاف تعديهم ذهب إلى رمضان في الغريفة بكراز ، وخاطبه قائلاً له بانفعال ، انك لا تجهل كوني لم أتخلف يوماً في حصار مصراته عن الجهاد لاجلاء العدو منها ، ومعركة جرف المقاصبة خضتها معك بشخصي وحصاني وسلاحي ، فهل يرضيك ورزقنا لم تتقاسمه عائلتنا بعد، أن يعتبره أولاد الجهانات رزق مطلينين ، فإما أن تأمرهم بالكف عن نخلنا ، لأنه لا يزال مشاعاً بين أفراد العائلة ، وأما أن تأمر بسجني خوفاً من أن أدرجج (أقتل) ببندقيتي في حالة لا شعورية كل من سيقص نخلنا ، فهدأ رمضان انفعاله واضطرابه بكلام لين مطمئن ، وتناول ورقة وكتب إلى شيخ القبيلة ، أن يمنع ناس قبيلته ، عن التعرض لنخيل (ع . ف) للأسباب المذكورة فامتنعوا ، وهذه الحادثة تدلنا بكل وضوح وجلاء ، أن رمضان لم يكن يأخذ في أحكامه الطائع بجريرة العاصي ولا المخلص بجريرة الخائن .

د ـ وإذا كان رمضان لم يرتب في نية (ع . ف) الحسنة ، بخصوص طلب اللاقبي الحلو لمرض والده ، فإنه كأي إنسان آخر تساوره أحياناً بعض الظنون السيئة في اخلاص بعض الذين يثق فيهم ، من رؤساء المجاهدين المقربين إليه ، ولكن إذا ظهرت له الحقائق عن براءتهم من كل ما اتهموا

به ، فسرعان ما يقدم إليهم اعتذاره مما أخطأ فيه معهم ، ويبادر بإعادة ثقته فيهم وتقديره لهم ، ولعل القصة الآتية تعد مرآة صافية لاظهار المفارقات لشعوره الإنساني أحياناً ، المتأرجح بين الشك واليقين والاتهام والتبرئة والاساءة والاعتذار .

ودخولاً في صلب الموضوع ، ففي صفحة (٢٦) ذكرنا من فضلاء المناصرة محمد بك بن حسن المنتصر ، والان نزيد على ذلك أنه كان من أشهر أبناء المناصرة فروسية وجهادا مع رمضان ، وكان والده من أثرياء مصراته الكبار بعقاراته الواسعة في المواطين وسواني الفلاحة وأراضي البر الزراعية ، وكان محمد أكبر أولاده ، الذكور ، وعدا عبثه ومجونه وهوشاب ، فقد نما صيته بالكرم الحاتمي من مال أبيه ، وعدم رده لقصاد مروءته خائبين .

ولما أخرج رمضان الطليان من مصراته ، انضم إليه لإعجابه بشجاعته الفذة بالقرضابية ، وتضحياته العظيمة في سبيل وطنه ، فقبل رمضان انضمامه إليه لتأكده من إخلاصه وعلو نفسه وبسالته ، ولما تخرج من المدرسة العسكرية ضابطاً ، عينه رئيساً على محلة المجاهدين المرابطة في موقع (النقازة) الهام ، الكائن شمال الخمس وقرب مسلاتـه ، وحتى وهو في هذا المركز ، لم ينقطع عن زيارته أحبابه ومعارفه الأولون ، أثناء مرورهم به في غدوهم ورواحهم ، بين قماطة ومسلاته وساحل آل حامد ، فكان يقوم باكرامهم وضيافتهم ، خير قيام بالنسبة لظروفه الحربية ، وذلك كله بفضل ما يلبي به والده له ، جميع ما كان يطلبه من نقود وأشياء ومواد غذائية .

وارتاب فيه الذين لا يعرفون مصدر سخائه ، وهم في أيام العسر والضيق فأسروا لرمضان ، أنه ربما يكون له علاقة خفية مع الطليان بواسطة أبناء عمومته في طرابلس ، فيغدقون عليه الأموال سراً بلا حساب ، ليكرم ويستدرج بها الناس ، لأمور دبرت مع العدو بليل ، وفيها كل الخطر على

أمن وسلامة البلاد ، وما زالوا يغيرون صدره ويوسوسون له عن محمد بن حسن ، حتى نبتت في رأس رمضان عنه بذور الشك والارتياب ، في مظاهر حاله الميسور وكرمه المشهور .

ولما تقوى عنده هذا الظن ، صمم على استدعائه للتحقيق معـــه فيما يشاع عن ضيافاته بالنقازة ومظاهر إكرامه لزائريه ، فتناول ورقة وكتب فيها إلى الأخ محمد بن حسن ، إذا وصلك هذا الخطاب ، فضع وكيلاً عنك واقدم إلي بوجه السرعة ، وهذا الاستدعاء المفاجىء والثوري ، نغص عليه وعلى رفاقه استعدادهم البهيج لعيد الأضحى الكبير .

وعند تلقيه الأمر ركب مساء حصانه مع رفيقين من اخوانه الفرسان ، وما زالوا يجدون السير إلى أن وصلوا إلى مصراته صباحاً ، واستقبل رمضان محمد بن حسن بلطف وبشاشة ، وبعدما ارتاح قليلاً صارحه بالأسباب التي أحضره إليه من أجلها ، ويريد منه أن يبرىء نفسه أمامه ، من الشكوك عن مصدر المال الذي يكرم به زائريه ، فأجابه ممتلئاً غيظـــاً وثائراً ، اقسم بالله العظيم لن أحدثك بشيء في الموضوع الذي سمعته منك الآن ، إلا بعد أن تستـــدعي والدي إليك ، وقبل دخوله اخفني عنــه بالحجرة الأخرى ، ثم اسأله عني وعن أحوالي معه ، وهل هو راض عني في طلباتي منه أم غاضب ، لإرهاقي إياه بكثرتها ، فعمل رمضان بما أقسم عليه محمد .

ولما جاء والده رحب به وتبادل معه عبارات المجاملة ، ثم قال له : عساك يا حسن بك ، أن تكون راضياً عن ابنك الأخ محمد ، وإذا والده يرد عليه بمظهر انفعالي غضوب قائلاً يا رمضان بك ، أرجوك رجاء حاراً أن تعزله من رئاسة النقازة ، بل سأكون شاكراً فضلك إذا استطعت الاستغناء عن خدمـــاته ولو لحين آخر ، فقد كاد من هناك أن يفلسني

بما يرسله لي مع الناس بطلباته من النقود والأغذية والحاجيات المتنوعة ، وأنت كما تعلم أن الأسرة كبيرة ، واملاكي في الأحوال الراهنة ، لم يعد ريعها كالسابق ، سرحه بالله عليك حتى أتخلص من أبهته بعدم تغيير الأحوال المعيشية على أسرته ، وهو بذلك يخدع نفسه ، ففطرة الإنسان على الكرم والجود ، شرف عظيم لصاحبها ولمن يلوذ بهم ، ولكنه إذا لم تتوفر له أسباب القيام بها ، يصبح التمسك بها بعد ذلك يعد غروراً وأبهة مضللة لغيره .

فتأثر رمضان مما صارحه به عن ولده ، فلاطفه ووعده خيراً ، وبعد انصرافه استدعى محمداً وكان هو قد سمع الحوار الذي دار بينهما عنه ، فقدم رمضان إليه اعتذاره الشديد وأسفه مما فاتحه به ، وقد اتضحت مما حدثه به والده براءته من تلك الظنون السيئة ، وصدق وطنيته وترفعه عن النقائص .

وكرمز لرد اعتباره إليه وإعادة الثقة به ، أهداه مبلغاً قليلاً من الليرات العثمانية الذهبية ، داخل كيس صغير من القماش الأبيض ، ورجاه أن يقبلها منه ، ليستعين بها على الاحتفاظ بسمعته الاجتماعية بإكرامه لزائريه من أحبابه وأصدقائه ، وليخفف بها عن والده إرهاقه بكثرة طلباته منه ، فأخذها شاكراً ، وأجابه أن ثقتك يا رمضان بك ، بشرف مبادىء ونزاهة نفسي عما يشينها ، هي أبلغ هدية منك تسرب الفرح بها إلى أعماق جوانحي ومشاعري .

ثم رجع في نفس اليوم من وصوله إلى مصراته لمركز قيادته بالنقازة ، وتلقاه اخوانه متسائلين عن السر في ذلك الاستدعاء العاجل ، وبدلاً من أن يروي لهم الحقيقة في سبب مناداته أخفاها عنهم كما اتفق مع رفيقيه ، وقال لهم أن رمضان أراد أن يكافئكم على صمودكم في هذا الموقع الهام ، فأعطاني

مبلغاً من النقود الذهبية ، لأوزعها عليكم توسعة على صغاركم لمناسبة اقتراب العيد ، فهنأوه بالعودة الميمونة ، وأثنوا على اهتمام رمضان بتقديرهم وعنايته لهم ، وفرق عليهم بالتساوي جميع ما كان في الكيس من الليرات وأخذ هو منها كنصيب أحدهم .

ولما ذاع خبر هذه المنحة في المحلات الأخرى المجاهدة ، والأسباب التي اختلقها محمد بن حسن لرجاله ، ذهب رؤساؤهـا إلى رمضان ، وأعلنـوا له استياءهم من عدم مساواة محلاتهم ، بمثل المنحة المعطاة لمحلة (النقازة) لمناسبة العيد الكبير ، فرد عليهم قائلاً لا حول ولا قوة إلا بالله ، من هذا الشاب المهووس ببذل ما عنده لاحبابه ورفاقه ، وهو أحياناً لا يجد لنفسه ما يقتات به ، فلم يكفه ما ألحقه لوالده من المتاعب المالية ، حتى جرني أنا أيضاً لاستياء المجاهدين مني بسببه .

وشرح للرؤساء جميع الدوافع ، التي اضطرته لاحضار ابن حسن إليه وان التحقيق معه والمحاورة بيني وبين والده أسفرا عن براءته من تلك التهم والنقود الضئيلة المهداة إليه شخصيا ، هي بمثابة الترضية لما جرحنا به عواطفه من سوء الظن في اخلاصه لوطنه ، ولكنه أبى إلا أن يقاسم اخوانه في الهدية وأخفى عليهم سرها لكي لا يؤلم إحساسهم نحوه ، فقبل الرؤساء عـــذر رمضان ونزاهته في أعماله وأحكامه ، ورجعوا فبلغوا إخوانهم ما حدثهم به رمضان عن أسباب ودوافع تلك المنحة المعطـــاة لابن حسن المنتصر ، فأكبروا مظاهر مروءته وغيرته ، لمشاركته اخوانه في السراء والضراء (١) .

---

(١) قصة محمد بن حسن بخصوص اتهاماته عن مصادر كرمه لزواره ، ومصير تحقيقـــات رمضان حولها ، كان قد رواها للمؤلف شخصياً أثناء سفرهما في سيارة تاكسي من مصراته الى طرابلس في عهد ما قبل ثورة الفاتح من سبتمبر ، ومن المؤسف أنه الآن (سنة ١٩٧٣) اصبح هرماً مريضاً تجاوز عمره الثمانين (٨٠ سنة) وصار غني قوم افتقر .

هـ – ونجاح محمد بن حسن فيما دحض به عن نفسه تلك الاتهامات الباطلة عن موارد إكرامه لضيوفه ، فهو كنجاح رمضان في خذلانه الطليان ، عندما حاولوا في حادثتين إرشاءه بالذهب والأموال ، ليجروه إلى مسالمتهم كبعض الزعماء والشيوخ ، ممن أخذوا رشاويهم ومالوا إلى صفهم ، ولكنهم في كلا الحادثتين باءوا معه بالفشل الذريع .

ففي الحادثه الأولى للرشوة ، كان واسطتهم فيهـا رجل اسمه (أحمـد التومي)[1] استخدموه في بادىء الأمر جندياً مرتزقاً ولإخلاصه لهم رقوه إلى رتبة عريف (شاويش) ثم كلفوه القيام لهم بأعمال سياسية ، لكونـه نسيباً لفرحات القاضي من أعيان مسلاته ، وقائمقامها من طرف السويحلي .

فكان التومي يوصل منحهم المالية خفية ، إلى زعماء الجهات الداخليـة المتفاهمين مع الطليان ، ولما عرفوا وجود رمضان في مسلاته جاءها التومي متظاهراً بزيارة نسيبه ، ولكنه في السر مبعـوث من طرفهم ، بصندوق صغير مملوء بالنقود الذهبية ، على أن يحتال لمقابلة السويحلي بمفرده ، ويعطيه إياه هدية صداقة له من إيطاليا والغاية منها لا تحتاج إلى تفسير .

وحانت للتومي فرصة الدخول على رمضان وحده ، ومعـه الصندوق يخفيه بجرده وناوله إياه ، فسأله ما هذا وما بداخله وما الغرض منه ، فقال له هدية لك من الحكومة الإيطالية كرمز لطلب صداقتك ، فسأله هل غيري من الزعماء المعلومين أرسلت لهم هدايا أيضاً كهذه الهدية ، قال نعم ولم يبق منهم سوى أنت ، عندئذ ترك رمضان الصندوق مكانه ، ومضى لحجرة أخرى في منزل إقامته الدائمة بمسلاته ، وعاد منها وبيده نحو عشرة دنانير

(١) حكاية التومي عن رواية الحاج الشيباني حمد السويحلي .

ذهبية ، وأعطاها للتومي ، راجياً منه أن يأخذها منه هدية شخصية له ، وأن يرجع بالصندوق وبما فيه من ذهب لأصحابه ، ويخبرهم أن رمضان يقول أنظف يداً من أن يمدها لهم كالآخرين ، المستغلين نفوذهم لمنافعهم الخاصة ، فرجع التومي بصندوقه لمن أرسلوه له ، وحدثهم بما جرى له مع رمضان .

و — والحادثة الثانية التي حاول بها الطليان ، أن يبثوا الفتنة بين رمضان وأنصاره ، هي أنه بعد أن تم صلح سواني ابن آدم ، اتفق كل من العرب والطليان على تبادل الأسرى فيما بينهم ، ويقول غرسياني بهذا الخصوص في كتابه (نحو فزان) صفحة (٢٦) ما يأتي بالنص : (وفي ٢٦ مايو سنة ١٩١٩ م تم تبادل الأسرى ، ودفع في سبيل ذلك عدة مئات الآلاف من الليرات للزعماء العرب).

وكان لدى رمضان بمصراته أسرى كثيرون ، ممن نوهنا عنهم في صفحة (٦٧) عن مجيئهم إليه من نالوت ومن بني وليد ، وانضم إليهم نتيجة للاتفاق بصلح سواني بن آدم آخرون ، أرسلهم من سرت قائمقامها الحاج علي المنقوش ، وكان قد قبض عليهم عنده (يوم ٢٢ مايو سنة ١٩١٩ م) بأمر رمضان ، لذلك [1] أرسلت الحكومة الإيطالية من الخمس مندوباً عنها ، قابل رمضان في مسلاته وأبلغه ، أن الحكومة الإيطالية ، نظراً لما قمت به من التغذية الحسنة وراحة أبنائها الأسرى عندكم ، فإنها لهذا السبب قد خصصت للمناطق السويحلية مليوني ليرة مقابل عنايتكم بهم وتسريحهم

---

(١) هذا الحديث الآتي عن موقف رمضان من عدم قبوله أي مبلغ من الطليان مقابل عنايته بأسراهم عنده ، رواه لي بالتفصيل الآتي ذكره هنا شقيقه أحمد بك السويحلي ، وذلك بعد عودته من الهجرة ولمناسبة استيضاحي منه عن شائعة رفض رمضان مليوني ليرة من الطليان .

بموجب اتفاقية الصلح ، واسوة بما دفعته لنفس الغرض إلى الجهات الطرابلسية التي لديها أسرى وأعادتهم إلى حكومتهم .

ووعد رمضان المندوب بالرد عليهم ، بعد أن يدرس الموضوع هو وأعيان حكمه وبادر فجمع هؤلاء ، وعقد منهم مجلساً عرض عليهم فيه مسألة المليوني ليرة ، فتبادلوا المناقشة عن كيفية التصرف فيها ، إذا اتفقوا على أخذها ، واختلفت حولها وجهات النظر ، ففريق أراد توزيعها على القبائل بحسب نفوسها ، وفريق رأى إدخارها لنفقات الحكومة ، وآخر اقترح أن تبنى بها مدرسة كبيرة لنشر التعليم العصري الحديث ، ومشتراة عقارات ليصرف من ريعها على المدرسة وطلبتها ، وتعددت في مبلغ المليونين الاقتراحات وتضاربت الاختلافات .

ولما طلبوا من رمضان أن يذكر رأيه الشخصي في المسألة ، أجاب بصراحته المعروفة قائلاً لو توزع المبلغ على القبائل حسب تعدادها لأصاب كل عائلة فيها ، عدة فرنكات لا تسمن ولا تغني من جوع ، ولا تهمنا الناس نحن الأعيان والرؤساء ، بأن المبلغ أكثرا من مليوني ليرة ، ولكننا تقاسمنا الكمية الكبيرة منه ، وأظهرنا المقدار المذكور للتمويه وبهذه الظنون السيئة تتسرب عنا الفتنة بين القبائل ، وتسود فيها الخلافات الاجتماعية ، ثم اننا لا نطمئن إذا ادخر للحكومة ، إلى عدم امتداد الأيدي الاختلاسية إليه ، وإقامة مدرسة به على الطراز الحديث تحقيقها مستبعد الآن لعدم كفاية المبلغ لتشييد أبنيتها والانفاق عليها سنين بعيدة ، ثم ونحن في حالة حرب من أين لنا أن نستجلب لها الأساتذة الأكفاء والطلاب اللائقين والفقر ضارب أطنابه في البلاد ، ثم ان هذا المبلغ ربما أرادت لنا به إيطاليا ، اشغالنا عنها بفتنة المال ريثما تستعد للكر علينا ونحن عنها غافلون .

ثم قال متمماً رأيه بوجوب الرفض بتاتاً للمبلغ ، لما سيحدثه للناس من المشاكل الكثيرة ، ولعدم فائدته السياسية والاجتماعية لأفراد الشعب ، فوافق المجلس على رأيه بالإجماع تقريباً ، وفوض إليه أن يرد عليهم بما يناسبه من الكلام اللائق .

وبناء على هذا التفويض ، كتب رسالة رد لحكومة الخمس الايطالية تقول في الوقت الذي نشكركم فيه على مبلغ المنحة الكبيرة ، فإننا لا نرى من ناحيتنا موجباً لأن نأخذ منكم عنهم ولا فرنكاً واحداً ، في مقابل عنايتنا بجنودكم الأسرى كما تقضي بها شهامتنا العربية ، بصفتهم جاءونا تلبية لأوامر دولتهم ولأنهم أثناء أسرهم بخدماتهم لنا الصناعية والفنية ، قد عوضونا كثيراً عما كنا أنفقناه على أغذيتهم وأجريناه لراحتهم .

وهكذا اتقى رمضان عن نفسه ، وعن إخوانه في المناطق المتحالفة مع حكمه تهمة أو شبهة قبضهم نقوداً من عدوهم بذريعة التعويض عما صرفوه على أسراهم .

(ز) وختاماً لهذا الفصل الكبير ، المليء بالمواقف النبيلة لرمضان ، من ذلك أنه عامل سيدة ايطالية وجيهة ، استغاثت به في موضوع زوجها كما سيأتي ، بأبلغ ما عرف عنه من الشهامة وإغاثة الملهوف ، ولأنه لم يكن هناك أحد يستطيع غيره أن يجبر بخاطرها .

فعقب صلح بنيادم في أول يونيه سنة ١٩١٩ م ، اتفق بمقتضاه العرب والطليان على إقامة حكومات عربية محلية ، وكانت أهم النواحي التي أقيمت فيها هي : نالوت – غريان – الزاوية – ترهونة – بني وليد – مصراته – سرت ، وأن يكون للطليان فيها ضباط اتصال وجنود فنيين للمواصلات

البريدية هذا في الظاهر ، وأما في السر فكانوا يرسمون الطرق ويدرسون الأحوال ، استعداداً لزحفهم مستقبلاً عليها .

وكان من شروط الاتفاق أن لا يخرج أحدهم من الحكومات العربية المحلية أو يدخل إليهـــا ، إلا بأذونات عربية خاصة ، يعطيها رؤساء الحكومات العربية في النواحي المذكورة ، وأراد الطليـــان الشروع في تنفيذ خططهم الحربية السرية التي أشرنا إليها ، بحيلة التعرف على طرق المواصلات ، ومن هذه الحيل كما جاء في كتاب (نحو فزان ص ٣٢) ، أنـــه يوم ٣ مايو سنة ١٩١٩ م ، خرجت سيارة من الخمس تحمل عدداً من الجنود والضباط ، ومن هؤلاء (الماجور شاتيلا) ، واتجهت إلى مقر قصر خيار عاصمة قماطة ، بذريعـــة اختيار الطريق الصالح للمواصلات ، ولما وصلوا للقصر بلا إذن من حكومة رمضان ، خاطب عنهم قائمقامها الحاج علي رحاب رمضان بمسلاته هاتفياً ، فأمره بالقبض عليهم وإرسالهم إليه .

وكان (الماجور شاتيلا) حديث العهد بالزواج في الخمس ، بفتاة إيطالية جميلة ومن أسرة في بلاده نبيلة ، ولم يمض على الزواج سوى أيام قليلة ، فلما وصل الخبر إلى زوجته باعتقاله أسيراً عند رمضان السويحلي في مسلاته ، كادت تصعق وتجن للمصيبة الفادحة التي نكبت بها في قرانهـا والبادي من سلوكها الآتي ، أن بعض العرب في الخمس عندما رأوا حالتها الاضطرابية الهائجة ، أشفقوا عليها وتأثروا لها فحدثوهـــا عن مروءة ونخوة رمضان وسمو عواطفه الإنسانية ، وأفهموها انه إذا استطاعت الوصول إليـــه بأية وسيلة ، واستنجدت بنبله وشهامته أن يطلق لها سراح زوجها فلن يخذلها في هذا الطلب .

ولما اطمأن قلبها إلى هذا الاحتمال القوي بالنجاح إذا قصدته ، طلبت

من رئيس المكتب السياسي في الخمس ، أن يعطيها تصريحاً بالخروج إلى مسلاته ، وبينت له السبب والغاية من ذلك ، فحذرها كثيراً من عاقبة المخاطرة بنفسها وكرامتها ، وزعم لها أن العرب لا يحترمون الأجانب ، ولا سيا إذا كان أحدهم امرأة مثلها في ريعان الشباب والحسن ، ولكنه على الرغم من نصحها بالرجوع عن فكرتها ، فإنها بقيت مصرة على رأيها ، وأخيراً أعطاها التصريح المطلوب على مسئوليتها الشخصية .

ومنذ ما[1] خرجت من الخمس إلى ساحل آل حامد ، وجدت من العرب ما كذب أقوال رئيس المكتب السياسي عنهم ، فأوصلوها محفوفة بالتجلة والاحترام إلى القائمقام الحاج محمد الديب ، وهذا وقد فهم سبب مجيئها ، استقبلها بالحفاوة والاكرام ، مما أدخل إلى نفسها الإعجاب بنبل العرب ، وحرصهم على عدم المساس لعواطفها بأي تصرف يسوؤها ، ثم أرسلها إلى رمضان في مسلاته ، محاطة بفرسان كرام كأنها بينهم أميرة نبلاً وأصالة .

ووصلت إلى مسلاته فرحة مستبشرة خيراً ، ولما فهم رمضان من رسالة الديب وكلام الذين أتوا بها حقيقة أمرها ، أدخلوها عليه فتلقاها بتحية طيبة ومقابلة حسنة ، وعرضت عليه بالمترجم ، ما جاءت تطلبه من مروءته أن يحققه لها ، وبعدما أكرم وفادتها بمنزل عائلي أطلق لها زوجها (الماجور شاتيلا) ، فرجعت به وهي تكاد تطير من الفرح الجزيل لظفرها به ،

---

(١) نقلاً عن رواية الحاج حسين بن بشير اليسير المتقدم ذكره وقد سمع بحادثة المرأة الايطالية من بعض الشيوخ المسنين في الساحل ممن حضروا عهدي رمضان والديب بصفتهم مجاهدين وهناك رواية تقول انها اتصلت برمضان بطريق قصر خيار وان زوجها رفض الذهاب معها حتى يطلق سراح اخوانه ولكن المؤلف يراها رواية ضعيفة ولم تظفر بثقته فأهملها وجاءت حادثة الايطالية أيضاً في إحدى التواريخ الطرابلسية الحديثة .

وأيقنت أن شهامة رمضان وفروسيته النبيلة لم يأت الزمان بمثلها ، وكانت حادثتها من أحسن الدعـايات لدى بني جنسها ، عن احترام العرب للمرأة وصيانة شرفها حتى لو لم تكن منهم ، وتلبيـة استغاثتها بتحقيق مطلب عزيز لديها ، تقديراً للعواطف الإنسانية الملهوفة .

الفصل الخامس والعشرون

التطورات السياسية الهامة المفاجئة

انكسار الترك ونتائجه :

وبينما كانت أوضاع البلاد الجهادية والمحلية على الأوصاف المتقدم بيانها في الصفحات السابقة ، وترجو من تركيا أن تزيدها في الامدادات الفنية وبعض المهمات الحربية ، وبينما كان مختار بك كعبار يسعى في مصراته مع الأمير عثمان فؤاد ، ليجعل في زوارة مرسى آخر للغواصات ، لتفرغ فيه نصيب الجهات الغربية من المساعدات المرسلة ، اختصاراً للمسافة الطويلة في نقلها براً من مصراته ، وبينما كانت جميع القيادات الجهادية متحضرة لاقتحام مدينتي طرابلس والخمس ، لتحرير قطري طرابلس وفزان من آخر الجنود الإيطالية ، وإذا الناس مع هذه الحالات يباغتهم نبأ في أوائل سنة ١٩١٩ م ، أخمد فيهم جذوة الحماس لطرد عدوهم ، وبث في قلوبهم الوهن لاستمرار القتال ، وأفزعهم كثيراً على مصيرهم المظلم .

ذلك النبأ السيء الوخيم ، ان الأمير عثمان فؤاد ، المعين من قبل

السلطان محمد رشاد نائباً عنه في طرابلس وقائداً عاماً للجند التركي فيها ، كان وهو مقيم بمصراته قد طلب سليمان الباروني ، أن يقدم إليه بأقصى ما يمكن من السرعة لأمر هام وخطير جداً .

وقبل أن يصل الباروني استدعى الأمير رمضان ، ودون أن يظهر له الحدث الغير ، فسلمه مفتاح الخزينة المالية ، التي كانت تحت تصرفه ، وأشار إليه أنها منذ الآن صارت في عهدته ، وكان فيها مبالغ مالية جسيمة متنوعة العملات الأجنبية وبيانها كما يلي[1] :

(أ) مائة (١٠٠,٠٠٠) ألف ليرة تركية ورقية .

(ب) مليون وخمسمائة ألف (١,٥٠٠,٠٠٠) فرنك فرنساوي .

(ج) ست وتسعون ألف (٩٦,٠٠٠) ليرة ايطالية .

(د) ستة وأربعون ألف (٤٦,٠٠٠) كورون نمساوي .

(هـ) ألف (١,٠٠٠) ماجيدي فضة عثمانية .

(و) خمسمائة (٥٠٠) ليرة عثمانية ذهبية .

وعندما وصل الباروني اختلى به الأمير والتأثر الشديد ظاهر على وجهه المكفهر ، فأخبره أنه تلقى برقية لاسلكية ، تفيد أن الدولة العثمانية قد انكسرت في هـذه الحرب هي والدول المتضامنة معها (المانيا والنمسا وبلغاريا) ، وان الانجليز وحلفاءهم المنتصرون ، وأصبحوا في زحفهم على أبواب (استانبول) عاصمة الدولة ، وستستسلم لهم بلا قيد ولا شرط ، وانه

---

(١) نقلاً عن الكتاب الايطالي الذي ترجمة عنوانه بالعربية (طرابلس الغرب من الحرب العالمية الأولى إلى ظهور الفاشيستية) لمؤلفه أوتوني غابللي (Ottone - Gabelli) واتصلت بهذا المصدر بواسطة الأخ الأستاذ محمد الأسطى المترجم بدار الآثار .



صورة الأمير (البرنس) عثمان فؤاد ، ممثل سلطان تركيا في طرابلس ، وهو الماسك للعصا (بسطون) وبجانبه خالد بك القرقني من مجاهدي وأعيان طرابلس

بناء على هـذه الإشارة البرقية ، سيسافر فوراً عائـــداً إلى وطنه في غواصة المانية ، المترقب وصولها الليلة إلى المكان المعتادة أن ترسو فيه .

وامتلك الباروني اضطراب نفسه من الغيظ الشديد ، إزاء هـذا النبأ المباغت الخطير بعواقبه السيئة على أهـــل البلاد ، وعلى حركاتهم الجهادية للعدو ، امتلك الباروني غيظه وثورته النفسية شأن الرجل العظيم ، القادر على ضبط شعوره الأليم ، والتحكم في انفعالاته ، عند أحرج الأوقات عسراً وتأزماً ، وأجاب الأمير بما يعتبر المثل الأعلى في مشاركته أبنـاء وطنه في السراء والضراء ، قائلاً له أما أنا فلا أفارق اخواني الطرابلسيين ، إلى أن نحصل للبلاد على نتيجة مرضية إن شاء الله .

وسرعان ما انتشر خبر انكسار الترك في مصراته وامتد منهـــا إلى غيرها ، فاضطربت أحوال الناس ، وهاجت نفوسهم ، وتشوشت أفكارهم ، ولهم كل العذر في ذلك فإن سفر الترك ، سيتبعه من غير شك انقطاع ، ما كانوا يمدونهم به عن طريق البحر من اللوازم المتنوعة للقتال . وانتظاراً لقدوم الغواصة التي ستقل الأمير بات الاثنان في الطريق إليها ، وفي الصباح ودع البـــاروني الأمير بحرارة وتأثر ، واعتذر إليه من عدم استطاعته الوصول معه إلى الغواصة ليشيعه عندها ، لأنه مضطر بالرجوع إلى المواطين ، لـكي يهدىء النفوس المتكدرة الغائظة .

أثر رمضان والباروني بقيام الجمهورية :

ولما عاد الباروني للمواطين اجتمع برمضان ، وكان هذا بسبب الخبر المشئوم ، في انقباض نفسي وحالة قلقة ، فاستقبل الباروني بكل احترام ، ثم دار بينهما الحديث الآتي[1] الذي صغناه مرتباً بأسلوب المحاورة التخاطبية .

---

(١) تجد النص لموضوع هذه المحاورة في كتاب (حياة سليمان باشا الباروني) للمرحوم الشيخ أبي القاسم الباروني الطبعة الثانية صفحة (٩٠) وما بعدها .

رمضان : انك لم تخيب فيك ظننا إذ لم تسافر ، فلا عذر لك في تركنا ونحن على ما ترى .

الباروني : إني معكم إلى النهاية ، إلا أنه لا بد من إنشاء حكومة وطنية بلا تردد ولا إمهال ، بشرط أن تكون رئيسها .

رمضان : دع الرئاسة جانباً ، فإني أرى أن تكون جمهورية ، تتألف من أربعة أعضاء فقط ، أنت وأحمد المريض وعبد النبي بالخير وأكون رابعكم ، وأن تكون أنت الوالي كما كنت في السابق .

الباروني : لا أنا أكون كالسابق في منطقة الحرب ، قريباً من الذي نعينه قائداً لجيش الجمهورية .

رمضان : أنا موافق من الآن ، إلا أني أخاف أن لا يوافق المريض بك على مواصلة الحرب .

الباروني : انه أحرص مني ومنك على استمراره إلى أن نصل إلى نتيجة .

رمضان : إذن اتفقنا .

وفي هذه المحاورة التاريخية الرائعة ، إخلاصاً ومبادىء سامية ، أعطانا الزعيمان أصدق دلالة وبرهانا ، على إيثارهما مصلحة الوطن الكبرى على تبوئها ، المنصب الرفيع ، وإحرازهما الجاه العريض ، ولقد كان لرمضان الفكر السديد والرأي الحسن فيما اقترحه على أخيه الباروني ، بأن يقام في البلاد بعد سفر الترك نظام جمهوري ، وأن لا يجعل له رئيساً معيناً ، بل يدار من قبل أربعة أعضاء ، ووجهة النظر في هذا ، أن انتخاب رئيس واحد للجمهورية ، اختياره سيثير تنافساً كبيراً بين البلدان الجهوية والعصبيات القبلية ، وإدارتها مبدئياً من الأعضاء الأربعة ، أنسب لتمثيل البلاد في تحمل مهام ومسئوليات الجمهورية .

وقد أنهيا تحاورهما بالتفاهم التام فيما تداولا به ، وعلى أن يسرع الباروني

بالرجوع إلى الزاوية الغربية ليطمئن المجاهدين على وحدة البلاد باستمرار نضالها ، وليدعو الشيوخ والأعيان لعقد اجتماع عام في مسلاته ليعرض عليهم مشروع الجمهورية ، ونظراً لما كان بين رمضان وعبدالنبي بن خير ، من الصلة الوطنية والصداقة ، فقد بعث يخبره عن انكسار الترك ، وما طرأ عنه في البلاد من أحوال سياسية ، ويستطلع رأيه في مسألة الجمهورية ، فرد عليه بالموافقة التامة لاقتراحها .

وفي أثناء ذهاب الباروني إلى الزاوية مر بترهونة ، وقابل فيها أحمد بك المريض ، وذكر له ما جرى له مع رمضان بخصوص الجمهورية ، فأيد أحمد بك قيامها بالرضا والسرور ، وبعدما وصل الباروني إلى الزاوية ، بعث برسائل إلى جميع أعيان ومشايخ تلك الجهات ، يدعوهم فيها بضرورة الحضور إلى المؤتمر العام الذي سيعقد في مدينة القصبات عاصمة مسلاته ، واختيرت له نظراً لمركزها المتوسط ، ولأنها تعتبر المركز الثاني لحكم رمضان السويحلي بعد مصراته .

الفصل السادس والعشرون

تكوين الجمهورية ومجالسها وبلاغاتها

فجاءوا إليها من كل جهة تلبية للدعوة ، وبمعرفتهم سبب المؤتمر كثرت حوله الاجتماعات واختلفت فيه الآراء ، وأخيراً تم انعقاده في جامعهـــا الكبير المعروف بجامع المجابرة ، وذلك يوم السبت ١٣ صفر سنة ١٣٣٣ هـ الموافق يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٨ م . وكان حقاً مؤتمراً قوياً عظيماً ، وانتهى بقرار اتفاقي اجماعي على ضرورة القيام للجمهورية الطرابلسية ، وتكونت لها ثلاث هيئات رسمية ، للحكومة والشورى والقضاء ، وكانت هـذه الهيئات الثلاث في الحقيقة ، مبدأ أولياً لتنسق فيما بعد على طراز الحكم العصري الحديث .

مجلس إدارة الجمهورية :

وقد عرفت الهيئة الأولى الحكومية ، باسم (مجلس إدارة الجمهورية) ، وهو الذي أعلن للبلاد تأسيسها ، والتبليغ عن قيامهـــا فعلا لأيطاليا ولغيرها من الدول الأوروبية ، وبلدان الشرق العربي والآسيوي ، مطالباً

من هذه الدول أن تعترف رسمياً بالجمهورية الطرابلسية .

وكان [١] أعضاء هذا المجلس أربعة من أقوى الزعماء نفوذاً على سكان مناطقهم وهم : سليمان باشا الباروني – أحمد بك المريض – رمضان بك السويحلي – عبد النبي بك بالخير ، وكانت جميع القرارات والأوامر الصادرة من هذا المجلس ، تمضى بأسماء الأعضاء الأربعة ، إظهاراً لاتحاد أصحابها ، وتقوية لاعتمادها بين الناس .

واستيفاء لتمثيل جهة كبيرة في المجلس ، فقد انتخب إلى جانب الأربعة مراقباً ومديراً مالياً لمالية الجمهورية ، هو زعيم غريان مختار بك كعبار ، وكان ذا ثقافة عصرية عالية درسها بالمعاهد التركية ، وكان أيضاً أحد نواب طرابلس في البرلمان العثماني باستانبول ، وجعل الأستاذ عبد الرحمن عزام مستشاراً لشئون الجمهورية ، وارتبط بمجلس الادارة جميع الموظفين ، وشئون الجهاد والأمور الاجتماعية .

مجلس شورى الجمهورية :

وعرفت الهيئة الثانية باسم (مجلس شورى الجمهورية) ، والغاية من إيجاده هو ليساند مجلس الادارة الحكومية ، في قيامها بأعمال وواجبات تشبه إلى حد ما ، وظائف مجلس النواب والشيوخ في البلدان الأخرى ، ذات الأنظمة الدستورية ، وقد تألف هذا المجلس من أربعة وعشرين (٢٤) عضواً ، ضم كافة أعيان الجهات من فزان جنوباً إلى العجيلات شمـــالاً ، ومن سرت شرقاً إلى نالوت وغدامس غرباً .

---

(١) وفكرة جعل مجلس الادارة من أربعة أعضاء لا نستبعد اقتباسها من كيفية نشوء الثورة الفرنسية التي لم يكن تاريخها مجهولاً لدى مثقفي أبناء طرابلس في معاهد الترك المدنية والعسكرية لا أنها معزوة لشخصية سياسية غير طرابلسية كما جاء في بعض التواريخ المتحيزة.

وجعلوا الرئيس الأول لهذا المجلس ، الفارس والمجـــاهد الكبير ، الشيخ محمد بك سُوف زعيم قبيلة المحاميـــد ، وهو حفيد غومة صاحب الثورة الكبيرة المعروفة ضد الترك ، وكان الرئيس الثاني النائب عنه هو « يحيى بك الباروني » شقيق سليمان الباروني ، وأما الأعضاء الآخرون ، من غير الاثنين المذكورين ، فقد كان من أبرزهم « الحاج محمد بك فكيني » زعيم الرجبان في الجبل الغربي ، وتتمة الأعضاء الأربعة والعشرين ، الممثلين لبلدانهم ، هم المكتوبة أسماؤهم بجانب الأرقام ، وبصرف النظر عن نعوت رتبهم وهؤلاء :

٤ – محمد بن بشير (أولاد بوسيف)
٥ – أحمد البدوي (الزنتان)
٦ – إبراهيم أبو الأحباس (يفرن)
٧ – سالم البرشوش (يفرن)
٨ – علي عبد الرحيم (ككلة)
٩ – شطيبة (غريان)
١٠ – عبد الصمد النعاس (ترهونة)
١١ – محمد التريكي (مسلاته)
١٢ – عبد الرحمن بركان (مرزق)
١٣ – محمد أحمد الفايدي (الشاطيء)
١٤ – الحبيب عز الدين (غدامس)
١٥ – محمد المنتصر (سرت)
١٦ – مفتاح التائب (ورفلة)
١٧ – علي المنقوش (مصراته)
١٨ – عبد السلام الجدايمي (زليتن)
١٩ – علي شلابي (النواحي الأربعة)
٢٠ – علي بن تنتوش (العزيزية)
٢١ – محمد طليبة (الساحل)
٢٢ – عبد الرحمن المحجوبي (الزاوية)
٢٣ – علي بن رحاب (قماطة)
٢٤ – علي شلابي (الزاوية).

مجلس الجمهورية الشرعي :

وعرفت الهيئـــة الثالثة باسم (مجلس الجمهورية الشرعي) وكانت أعماله



صورة الفارس الأشم محمد سوف زعيم المحاميد في طرابلس
ورئيس مجلس شورى الجمهورية الطرابلسية

وأحكامه القضائية ، وفقاً لأحكام الفقه الإسلامي ، على مذهب الإمام مالك ، وعرف وتقاليد البلاد ، وأسندت عضويته إلى أربعة من كبار العلماء وهم : الشيخ الزروق بو رخيص (من غريان) — الشيخ محمد الإمام (من الزنتان) — الشيخ عمر الميساوي (من الزاوية الغربية) — الشيخ مختار الشكشوكي (من مدينة طرابلس) ، وينبغي أن نلاحظ أن عضوية هذه الهيئة الشرعية ، ليست بديلة عن أعضاء المحكمة الشرعية العليا المتقدم ذكرها بمصراته .

أولى أعمال مجلس الادارة :

وقد كان أول ما قام به مجلس الادارة من الأعمال أنه أذاع بلاغه الأول ، على أبناء الشعب الطرابلسي ، عن قيام الجمهورية الطرابلسية ، وذيل بتوقيعات الأعضاء الأربعة بمجلس الإدارة وكان هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم (١)

« في الساعة الرابعة والنصف من يوم السبت المبارك ، الثالث عشر من شهر رمضان سنة ١٣٣٣ هـ قررت الأمة ، تتويج استقلالها بإعلان حكومة الجمهورية باتفاق آراء علمائها الأجلاء ، وأشرافها ، وأعيانها ، ورؤساء المجاهدين المحترمين ، الذين اجتمعوا من كل أنحاء البلاد ، وقد تم انتخاب أعضاء مجلس الجمهورية ، وأن الأمة الطرابلسية تعتبر نفسها ، حائزة لاستقلالها ، الذي اكتسبته بدماء أبنائها وقوتها ، منذ سبع سنين ، وسعيدة بالوصول إلى هذه الغاية التي هي أشرف ما تصل إليه الأمم ، وتهنىء أبناءها بتمام نجاحهم واتحادهم ، على الثبات في الدفاع عن وطنهم وحكومة الجمهورية الجديدة والتوفيق من الله تعالى وحده » . ١٣ صفر

(١) راجع (حياة سليمان باشا الباروني) الطبعة الثانية (صفحة ٩٣) .

سنة ١٣٣٧ هـ.

سليمان الباروني أحمد المريض رمضان الشتيوي عبد النبي بن الخير

وفي أثناء إعلانه البلاغات السياسية عن الجمهورية ، كان قد اختار وثبت المتصرفين والقائمقامين ونقل بعضهم ، وعيّن موظفي المناطق ، وعيّن الموظفين للعمل بمجالس الجمهورية ، كما عيّن لقيادة الجيش الجمهوري اللواء الفخري عبد القادر الغناي وهو من بنغازي ، ولكنه لم يكن في المقدرة الحربية بدرجة ممتازة ، وبلغ من ضعف إرادته أنه سلم الزاوية الغربية للطليان في أول يناير سنة ١٩١٩ .

والبلاغ الثاني المحلي وجه إلى الضباط الوطنيين ، وخلاصته أنه يطلب منهم أن يقدموا الطاعة لحكومة الجمهورية الطرابلسية الجديدة ، والقيام بما تفرضه عليهم من الخدمات العامة والدفاع عن شرف الوطن .

كما أعلن التبليغ عن قيام الجمهورية ، إلى جميع الدول الكبرى بأوروبا ، وهي : بريطانيا وفرنسا وأمريكا مطالباً إياها الاعتراف بها ، وأعلن عنها أيضاً بهذا المعنى إلى الدول الآسيوية ، وبنص البيان الآتي :

استنكار ايطاليا للجمهورية :

وهو إعلانها لايطاليا بواسطة قيادتها في الخمس ، فقد كان البلاغ الثالث ، الموجه إلى رئيس الحكومة الإيطالية [1] ونصه :

« تفتخر الأمة الطرابلسية بتتويج استقلالها بإعلان الحكم الجمهوري ، وانتخاب

(١) كتاب حياة سليمان باشا الباروني الصفحة (٩٤) الطبعة الثانية .

نواب عنها من كافة أنحاء القطر ، لمجلس الحكومة والشورى ، ولا هدف لها إلا ضمان وحدتها وحريتها داخل حدودها السياسية المعروفة ، لا نقصد إلا أن تعيش هنيئة مسالمة لجميع الأمم ، التي لا تحاول غصب حقوقها ، لذلك تدعو الحكومة الايطالية ، إلى الاعتراف بها وسد كل باب يضطر الحكومة الطرابلسية إلى مداومة الحرب ، إلى تحقق أملها المشروع » . في ١٣ صفر سنة ١٣٣٧ هـ ، ثم ختم بإمضاءات الأعضاء الأربعة .

وأرفق هذا البلاغ بملحق تضمن عشر مواد ، ويقول في أوله إذا قبلت ووضعت موضع الإجراء ، فالحكومة الجمهورية الطرابلسية ، مستعدة للبحث مع الحكومة الايطالية في عقد الصلح تبعاً للمواد العشر الآتية ، وكان أهمها في نظر المؤلف المواد (٧ و ٩) ، وأما غيرها فهي تتعلق بالقواعد التي ستدور حولها المفاوضة وتعيين مكان الاتصال بين مسلاته والخمس ، وضرورة ابتعاد الاسطول الايطالي عن شواطىء الجمهورية ، واعتبر الترك والألمان الذين جاءوا بالغواصات ضيوفاً لدى الجمهورية لحين تغيرهم رسمياً .

فالمادة [1] السابعة تقول : الحكومة الجمهورية مستقلة في شئونها وحركاتها تمام الاستقلال ، وغير مسئولة بأي شرط أو قيد تضعه حكومة أخرى أو تتعهد به للحكومة الايطالية بطرابلس .

والمادة التاسعة تقول : (بما أن الأمة الطرابلسية لها الحق في إظهار صوتها للعالم الانساني وبالخصوص للحكومات الموجودة قناصلها في المدينة ، مثل انجلترا وفرنسا وأمريكا ، فعلى الحكومة الايطالية قبول وإيصال ما يرسل من الحكومة الطرابلسية إليها بدون اطلاع عليه وأخذ سندات من القناصل المذكورين وإرسالها إلى الحكومة الطرابلسية حتى لا تضطر إلى اتخاذ طريقة أخرى لمواصلة مخابراتها المذكورة) .

---

(١) كتاب (حياة سليمان باشا الباروني) الطبعة الثانية (صفحة ٩٥) .

وعندما تلقى الايطاليون بالخمس بلاغ الجمهورية ، الموجه عن طريقهم إلى رئيس الحكومة الايطالية بروما ، أعلنوا فوراً أن دولتهم ترفض ، بكل تصميم الاعتراف بقيام واستقلال الجمهورية الطرابلسية ، ولا تسلم لها بشيء مما جاء في البلاغ الموجه إليها والمواد الملحقة به ، بل ليس لها من جواب على ذلك سوى استئناف الحرب الضارية معها إلى أن تخضع البلاد لحكمها بالقوة .

والسبب في هذا التعنت والتشامخ بالأنف منها،هو اعتبارها أن ليبيا أخذتها من الدولة التركية بمعاهدة أوشي ، وبمقتضاها أصبح أهالي البلاد في نظرها من رعايا إيطاليا ، ولم تنص تلك المعاهدة معها على وجود شخصية سياسية فيها للطرابلسيين ، وكان عدم اشتراط تركيا في معاهدة أوشي ، أن يحضرها ممثلون عن طرابلس وبرقة ، لتعترف وتسلم لهم إيطاليا ببعض الحقوق الوطنية ، هذا الاهمال من تركيا ، كان من أفدح الأخطاء السياسية والغبن بمستقبل البلاد ، التي ارتكبتها مع الليبيين في المعاهدة المذكورة .

ونفذت القيادة بالخمس تهديداتها ، رداً على البلاغ الجمهوري لها ، فهجمت بطائراتها على الزاوية الغربية وغيرها ، وأمطرتها بمناشير الوعيد والتحذير ، إن انقادت لزعماء الجمهورية بإلغاء الوجود الايطالي في البلاد .

ومع أن تهديداتها لم يكن لها أي تأثير في الشعب ، في عدم تأييدهم للجمهورية ، ولم تقلل من عزمهم في شيء نحو القائمين بها والالتفاف حولهم ، ومع هذا فقد رأى زعماء البلاد إزاء تعديها الإجرامي ، الالتحاق بجهاتهم لرفع المعنويات في نفوس أهاليها وتقويتها ، وحضهم على زيادة الثبات والاتحاد في وجهها .

فرجع للغرض المذكور سليمان الباروني للزاوية ، والمريض لترهونة ، وعبد النبي بالخير لبني وليد ، ورمضان السويحلي لمصراته وتوابعها، والزعماء الآخرون لجهات إقاماتهم .

الفصل السابع والعشرون

المفاوضات لصلح بنيادم ونتائجها

ويقدر الله أن تهديدات ايطاليا ، باستعمال القوة ضد الجمهورية باءت بالفشل ، وانقلبت عليها لا لها ، فإنها بعد أن تمت الهدنــة في اوروبا سنة ١٩١٨ م بين الدول المتحاربة ، خرجت إيطاليا بعد الحرب العالميــة الأولى هناك ، محطمة القوى مهيضة الجناح ، لما تكبدته فيها بعداوتهــا للنمسا ، من الخسائر الفادحة في إمكاناتها الحربيــة والعسكرية والاقتصادية ، مما دعا أغلبية الشعب الإيطالي ، إلى الأخذ بمبادىء الاشتراكية ، والمناداة بنبذ الحروب والاستعمار .

ولما وصلت إلى إيطاليا من طرابلس أخبار جمهوريتها ، اعتقد حزبهـا الاشتراكي أنه لو لم يكن الطرابلسيون يشعرون باستعدادهم للاستمرار على الحرب ، لما أقاموا لأنفسهم وضعا استقلاليا ، ولهذا أعلن الحزب الاشتراكي حكومته في البرلمان الإيطالي ، الحائز فيه أكثرية النواب ، أن الشعب وقد بلغه تجدد القتال في طرابلس ، فإنه قد سئم من تقديم أبنائه طعمة لنيران

الطرابلسيين ، وعارض الحزب الاستعماري في تأييد دولته ، على قرارهـــا بالتعبئة لنحو ثمانين (٨٠) ألف جندي بأتم الأجهزة والمعـدات ، وإرسالهم لطرابلس لإعادة الوضع العسكري فيها ، كما كان قبل الهدنـة الأوروبية ، وطالب الحزب الاشتراكي الحكومة بدلاً من هذه التعبئة أن تعمل للتفاهم بالصلح مع الطرابلسيين ، وأن تكف عن إراقة الدماء واستنزاف خزانـة الدولة ، بنفقات جديدة باهظة ، لم تعد للشعب قـــدرة على احتمال ضرائبها الفادحة .

وحين تأكدت الحكومـــة الإيطالية ، من تصلب الاشتراكيين ضد سياستها الاستعمارية في طرابلس ، جنحت معهم للمراوغة فتظاهرت لهم أنها ساعية لتحقيق السلم والأمن في طرابلس ، نزولاً عنـد فكرتهم التي اعلنوا عنها في البرلمان ، وانتهزت المناسبة بعقدها مع تركيا معاهدة صلح (سندوس) في (١١ نوفمبر ١٩١٨ م) ، فلما جاء بموجبهـــا إلى طرابلس (اليوزباشي أكرم بك بن رجب باشا) ليسحب منها الجنود والضباط الأتراك الذين كانت الغواصات أتت بهم منذ سنة ١٩١٦ إلى مصراته ، رحبت إيطاليا بقدوم أكرم ، وتمكنت من حمله على أن يتوسط لها بالصلح مع الطرابلسيين ،نظراً لتقديرهم إياه بصفته ابن أحد الولاة السابقين بليبيا .

ولما فاتحهم أكرم بذلك رفض أعيان البلاد ، فكرة الصلح كما تريده إيطاليا ، عندئذ لتثبت للعرب أنها جادة برغبتها في المصالحة ، أرسل مدير المكتب السياسي (الماجور جنرال تارديتي) خطاباً إلى أعضاء مجلس الإدارة ، يؤيد لهم فيه رسمياً ، ميل حكومته لاجراء مفاوضات معهم بهذا الخصوص وأنها تدعـــوهم لذلك وهي لا تزال ذات جيش ضخم قوي ، وإمكانات حربية ومالية واقتصادية عظيمة .

فرد عليه الأعضاء بأنه مع ترحيبهم باجراءات الصلح ، فهو ينبغي ان

يكون كافلا للشعب حقوقه المشروعة ، في حريته وأمنه واستقلاله ، وأنهم بغير ظفرهم بهذه الأمنية له ، سوف لا يرضخون لأي تهديدات أو وعيد بالقوة ، ولما تأكد منهم توطيدهم العزم ، على قتالها إذا لم تستجب لمطالب الجمهورية ، بعث (تارديتي) لرمضان السويحلي واخوانه ، أن يحددوا مكان التفاوض ويعينوا الأشخاص المكلفين به من قبلهم ، كما ستعين حكومته مفاوضيها .

وعندما اجتمع الطرفان في مارس سنة ١٩١٩ م ، بمحل يقال له خلة الزيتون ، وتناقشوا في وجهات نظرهم حول الموضوع الذي اجتمعوا من أجله ، ظهرت اختلافات كبيرة بين الرأيين ، في المبادىء الأساسية للصلح ، وانفض الاجتماع الأول بنتيجة سلبية .

وحسبت إيطاليا أن الإرهاب العسكري ، قد يلين لهـا العرب في التصلب بمطالبهم ، فبعد أن فشل الاجتماع ، هاجمت بعض نواحيهم ، ولما تصدوا لها بمقاومة أشد عنفاً وبسالة ، عادت بعد شهر في ١٥ مايو سنة ١٩١٩ م تعلن مرة ثانية دعوتهم للمفاوضة فلم يرفضوا رغبتها .

والجنرال غرسياني في صفحة (٢٥) من كتابه ، يعتبر قبول العرب المعبر عنهم دائماً بالثوار ، لإعادة التفاوض هو لتأكدهم ، من ضخامة قوة إيطاليا العسكرية التي لا قدرة لهم على احتمالها ، وهذا الزعم منه في الحقيقة إنما أراد به الحط من شأن العرب القتالي ، ونقداً لسياسة حكومته لقبولها التفاوض معهم بالصلح مرة ثانية ، متهماً إياها في هذا القبول ارتكابها عملا مخلا ومحطاً بشرف دولته .

والواقع أن الشعب الطرابلسي ، بفضل ما كان يغنمه في معاركه من أنواع الأسلحة الإيطالية ، زيادة عما لديها غيرها من قبل ، مما تركه الأتراك

وكانت الغواصات تأتي بالبعض منها ، ولنشوء جيل فتي من أبنـائه ، تمهر على الحركات الجهادية واتقن فن الرماية للأهداف ، وتجلد على احتمال المكـاره والمشاق في الحرب . كل قدرت إيطاليا خطورته عليها ، فألجأتها هـذه الاعتبارات الخطيرة ، إلى أن تطلب هي العودة إلى التفاوض مرة أخرى في خلة الفرجان ، وليس لما زعم غرسياني عنهم لخوفهم من قوة ايطاليا.

ولقد شرح لنا غرسياني في نفس الصفحة المذكورة ، جميع ما أشرنا إليه ههنا من موقف الطرفين في مناقشات الصلح ، وحنقه على حكومته لاذلال العرب إياها بذلك قائلاً : « بدأت المفاوضات الأولى مـــع الثوار (أي العرب) في مارس سنة ١٩١٩ م في خلة الزيتون التي انتقل إليها مفاوضون ، وطـالت أكثر من شهر دون الوصول إلى أية نتيجـة ، ولكنهم إزاء القوة الهائلة التي تكدست منذ ذلك الوقت ، وضعوا حداً لهذه المماطلة ، وأرسل رمضان الشتيوي في ١٥ إبريل خطاباً إلى الحكومة حدد فيه موعداً نهائياً في الساعة العاشرة من صباح ١٦ إبريل ، ولقـد اشترك في هذا الاجتماع فضلاً عن (رمضان الشتيوي) كل من الهـــادي كعبار ومحمد الصويعي الخنيتوني والحاج فرحات القاضي .

« وأما الآخرون فقد رحلوا على العكس من ذلك في الليلة السابقة كل إلى منطقته ، وهم على يقين من أنه لن يتم أي اتفاق ، وقد عـــاد مفاوضونا وعلى رأسهم الجنرال (تارديتي) من رجال المكتب السياسي إلى مدينة طرابلس في الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم ، بعد أن بحث مختلف الوسائل المتصلة بكل الامتيازات ، التي كانت الحكومـــة على استعداد لمنحها ، وسجل ما اقترحه الزعماء من التعديلات والإضافات ، وأظهر بجلاء أنه متى تم الحصول على هذه التغييرات سوف يقرر الزعماء قبول الصلح ».

انعقاد صلح سواني بنيادم :

وفي ليلة ١٧ إبريل تم عقد الصلح بين الطرفين ، في قرية سواني بنيادم ، المتباعدة غرباً عن مدينة طرابلس نحو ١٢ ك م وكان حقاً بالنسبة للطرابلسيين انتصاراً سياسياً وحربياً على خصمهم المتشامخ عليهم بقواته العسكرية ، وهو نجاح وطني عظيم توصلوا إليه ، بثمرة جهادهم البطولي المرير ، بعد أن كافحوه بلا هوادة نحو ثماني سنوات ، إلى أن أجبروه في هذا الصلح ، على أن يصدر لهم القانون الأساسي ، الذي جعل الفرد الطرابلسي ، في مصاف الفرد الإيطالي ههنا بالحقوق السياسية والاجتماعية .

وعلق غرسياني على فوز العرب بهذا القانون في (صفحة ٢٦) قائلاً : « تلاشى به كل أمل لسيادتنا الفعلية على طرابلس ، وأصبح السبيل ممهداً للطمات شديدة نتلقاها .. وقد كان من جانبنا تسليماً حقيقياً ، وهذا الدستور يمنح عرب طرابلس تفوقاً وامتيازات مدنية وسياسية واسعة ، دون أن يتحملوا كما هو الحال في البلاد المتمدنة ، أعباء واجبات ثقيلة ، في مقابل ممارسة الحرية بمفهومها الحديث » .

والذي أهاج غيظ غرسياني على حكومته في هذا الصلح ونقمته على العرب لتحصلهم عليه ، هو أن هؤلاء مع قلة عددهم وفقرهم وتأخرهم الحضاري ، بالنسبة لضخامة ايطاليا البشرية وثروتها الاقتصادية ورقيها الحديث ، استطاعوا أن يرضخوا حكومته لإرادتهم ، حتى انتزعوا منها بثباتهم وشجاعتهم ما املوه عليها في صلح بنيادم .

القواعد الأساسية للقانون :

والقانون الأساسي أو الدستور ، اشتمل على اربعين (٤٠) فصلاً ولكن

قواعده الأساسية ارتكزت في الست عشرة (١٦ مادة) منه ونصها حرفياً كما يأتي :

١ – تسمى الحكومة (حكومة طرابلس الغرب).

٢ – يدير أمور قطر طرابلس مجلس حكومة ، مؤلف من ثمانية أعضاء وطنيين ينتخبهم مجلس النواب الطرابلسي ، من بين أعضائه ، ومن عضوين ايطاليين ينتخبهم النائب العام .

٣ – يرأس هذا المجلس حاكم عام بيده السلطتان الملكية والعسكرية ، معين من جانب ملك إيطاليا (لم يحدد القانون جنسية الحاكم فقد يكون عربياً وقد يكون إيطالياً).

٤ – يسن قوانين البلاد مجلس ينتخبه الأهالي ، يتمتع بما لمجالس الدول الأخرى المتمدنة من سلطات وحقوق ، وتكون مدته أربع سنوات ، كلما جدد انتخابه ، جدد مجلس الحكومة من بين أعضائه .

٥ – لا تنفق ضرائب البلاد إلا فيها ، حسبما يقرره مجلس نوابها في وصفها وتوزيعها وجبايتها .

٦ – لا يطبق من القوانين الإيطالية في طرابلس إلا ما يقبله مجلس النواب الطرابلسي . ويوافق عليه لمصلحة البلاد .

٧ – ينظم من أبناء البلاد جند وطني بالتطوع ، حسبما تقتضيه الحاجة وقائده هو الحاكم العام .

٨ – للوطنيين حق التوظف في الوظائف ملكية وعسكرية وقضائية وصحية وغيرها بالامتحان .

٩ – التعليم الأهلي حر تحت إشراف الحكومة .

١٠ – اللغة العربية رسمية كاللغة الإيطالية .

١١ – وينتخب الأهالي رؤساء البلديات في العاصمة والملحقات .
١٢ – يؤلف مجلس شرعي تستأنف إليه الأحكام الشرعية ، وهو يعين القضاة .
١٣ – للطرابلسيين الحائزين على شهادات عالية ، الحق في مزاولة المهن الحرة كالطب والمحاماة وغيرها في إيطاليا كما في طرابلس .
١٤ – الطرابلسي والايطالي متساويان في الحقوق .
١٥ – الأوقاف تدار بمعرفة هيئة إسلامية .
١٦ – تراعى حرية الدين والتقاليد الوطنية الحسنة كما في السابق .

وختمت مواد الدستور أو القانون الأساسي البالغ نيفاً وأربعين فصلاً بتوقيعات الآتية اسماؤهم وهم :

عن العرب : سليمان الباروني – أحمد المريض – رمضان الشتيوي – أحمد الصويعي نيابة عن عبد النبي بن خير .

وعن الطليان : الجنرال ماجور تارديتي ، رئيس الدائرة السياسية – الجنرال (باسكانو) رئيس هيئة أركان حرب الجيش الإيطالي .

مقاصدها السرية بعقد الصلح :

ومما لا شك فيه أن الإنسان الممعن النظر فيما اشتمل عليه هذا القانون الأساسي أو الدستور ، من الفوائد السياسية العظيمة لصالح البلاد وعزتها ، لتأخذه الدهشة والتعجب من تنازل إيطاليا للعرب ، إلى هذا الحد من استجابة أمانيهم الزاهرة ، وتحقيقها لهم ما أملوه عليها ، من مطالبهم القومية الهامة ، حتى بدا الأمر كأن العرب هم الغالبون وكأن إيطاليا هي المغلوبة ، لدرجة جعلت غرسياني يقول عنه في كتابه (ص ٢٦) أنه « حل سياسي مشين لهيبتنا بصفتنا شعباً كبيراً خرج منتصراً من الحرب العالمية الكبرى ».

ولكن إيطاليا بهذه المعطيات الشخصية ، كانت قاصدة منها أن تخدع

في روما الحزب الاشتراكي القوي النفوذ ، بأنها عملت في طرابلس بمقتضى نصائحه للسلم ، فصالحت الطرابلسيين بما يكفل ارتياحهم لمستقبلهم ، ويحقن للجميع إراقة الدماء ، وهدفها بذلك تضليله لتتحصل منه في البرلمان ، على موافقته بإقرار الرصيد الضخم في ميزانية الدولة العامة ، زاعمة أن جزءاً كبيراً منه مخصص للمشروعات العمرانية والاجتماعية في طرابلس ، وهو في الواقع للأغراض العسكرية فيها ، إذ كانت موطدة العزم سراً ، على نقض العمل بالقانون الأساسي ، ببث الدسائس والفتن بين الزعماء في الظروف المناسبة لذلك ، ثم اخضاع البلاد حربياً لحكمها والقضاء على الجمهورية .

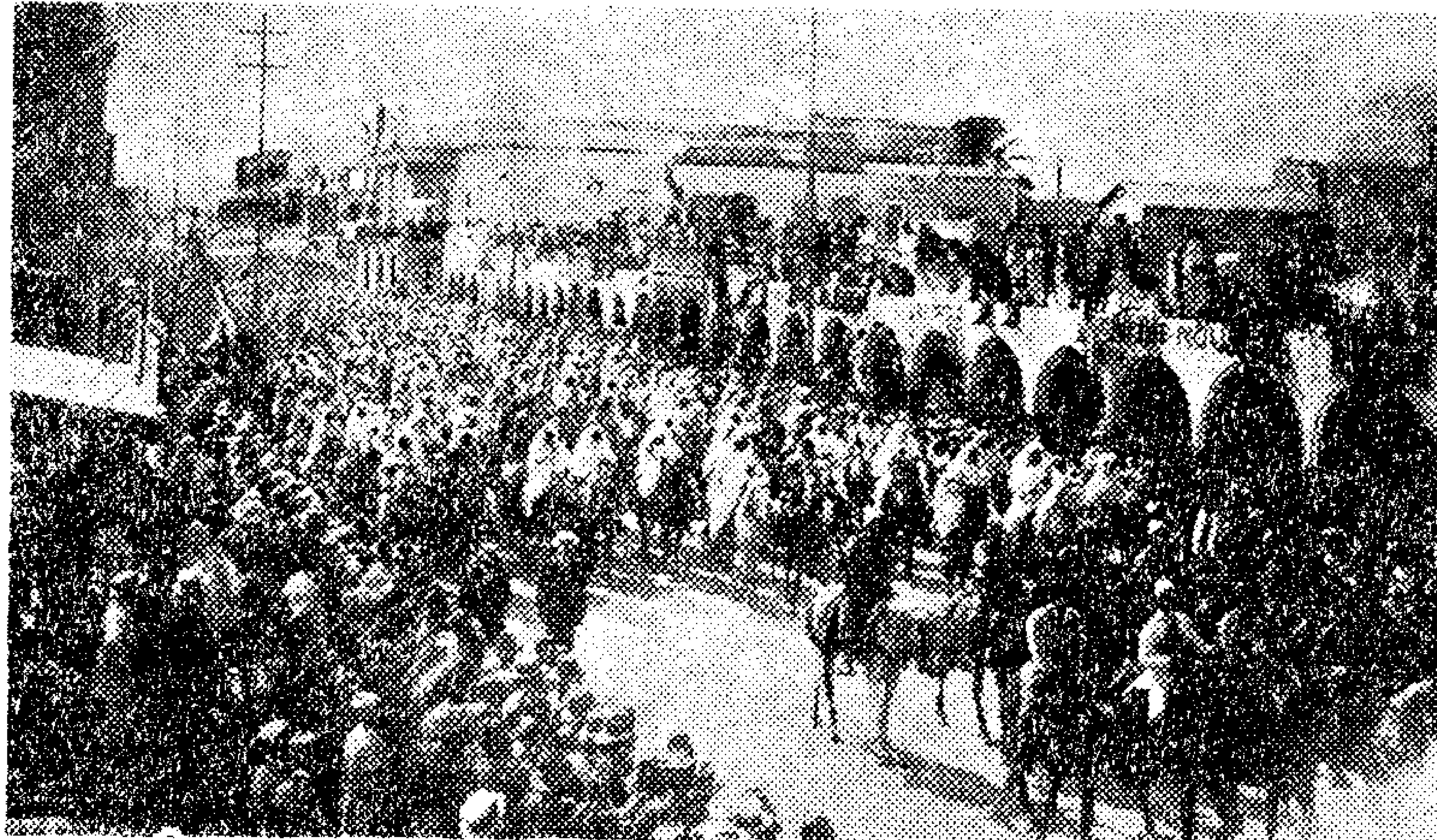
إذ كان لديها لتحقيق هذه الفكرة الاستعمارية كما يقول غرسياني في كتابه (صفحتي ٢٤ و ٢٥) « ما يقرب من ثمانين (٨٠) ألف جندي ، بينهم فرقة من فرق الهجوم ، على استعداد تام للاستيلاء مرة ثانية على المستعمرة بأكملها واخضاعها عسكرياً ، والانتقـام لكل تلك اللطمـات والاذلال الذي تحملوه من عام ١٩١٥ م »

دخول الزعماء للمدينة وأسبابه :

وكذلك اتخذت في طرابلس بانعقاد الصلح وما ارتبط به وسيلة خدرت بـه أذهـان الطرابلسيين ، بنشوة الانتصار عليها ، فاستجابت مطالبهم ريثما يتم لهـا تنفيذ أهدافها السرية ، بالغاء ما تضمنه الصلح المبرم بالطرق الماكرة .

وجهل الناس بنيات إيطاليا السيئة في إقرارها الخادع للقانون الأساسي وما دبرت لهم بليل ، فقد حسبوه عهد خير وصفاء ، للوطن وأهله حقاً ، واجتاحت به الأفراح والمباهج أنحاء البلاد ، ولهجت عنـــه الألسن خيراً وحامدة شاكرة الله ، لفوز الحق على الباطل والهدى على الضلال .

وبمناسبة ما جاء في القانون عن قيام حكومة وطنية مقرها مدينـــة



صورة رائعة الذكرى ، لأفواج الفرسان المجاهدين، يتقدمهم قادتهم وزعماؤهم ، حين جاءوا زائرين لمدينة طرابلس ، بعد ان انعقد صلح بنيادم ، وذلك رفعاً لمعنويات عرب المدينة ، وللاحتفال بإقامة الحكومة الوطنية فيها

طرابلس ، فاحتفاء بتثبيتها والتفاهم مع الطليان حولها ، دخل لهذا الغرض إلى مدينة طرابلس (يوم ٦ ذي الحجة سنة ١٣٣٧ هـ) نحو ستمائة ٦٠٠ فارس من المجاهدين الممتطين جميعـاً خيولهم الأصيلة ومن بينهم رمضان الشتيوي وكان شديد الحذر والخوف من أن يغدر به عـدوه الطليان ، ولم يأت في صحبة اخوانه إلا بعد ما ألحوا عليه بالمجيء معهم ، وإصرار الطليان على ضرورة وجوده في الاحتفال الولائي ، بتعيين أعضاء الحكومـة الوطنية ، لكونه من الموقعين على قواعد القانون الأساسي .

وكان يوم دخولهم الفرحة الكبرى الفريدة ، في تاريخ الجهاد الطرابلسي أيام العهد الإيطالي ، واكتست لهم ناس المدينة حُلـلاً من أفخر الثياب وأجددها ، وغصت فيها شرفات المنازل ونوافذها ، تطل منها النسوة والفتيات العربيات ، وهن يزغردن ويهتفن ويرددن :

ينصر جيش الجمهوريه   اللي خلّى الطليان رعيه

تقدير الطليان لزعامة رمضان :

وترجل رمضان واخوانه زعماء وقادة المسيرة الجهادية الكبيرة بميدان السراي الحمراء ، وكان الميدان وأطرافه محتشدة به ألوف الجماهير المستقبلة للمسيرة على خلاف أجناسهم وأعمارهم ، وبدخول الزعماء على الوالي في بهو مكتبه تلقاهم بالتحية والحفاوة هو وأركان حكومته ، وفي مقدمتهم (الجنرال تارديتي) الذي عرفه بهم .

وفي هذا الاجتماع التاريخي ، قد تولى رمضان بترتيبات مسبقـة تقديم أعضاء الحكومة الوطنية للوالي ، على ما سيأتي ذكره في البلاغ الولائي ، وهو المشعر من فحوى عباراته ، اعتراف إيطاليا ضمنياً بزعامة رمضان وقيادته للشعب الطرابلسي .

وعقب انتهاء الحفل ومراسيمه ، انصرف الزعماء والأعيان إلى المكان الذي أعدته الحكومة الإيطالية لضيافتهم ، إلا رمضان فقد اعتذر عن البقاء بعد انجاز حضوره الحفل ، وأثناء خروجه من السراي شيعه (الجنرال تارديتي) يصحبهما مترجماً للكلام بينهما ، اسماعيل كال بك ، مدير الأوقاف الطرابلسية الأسبق ثم امتطى جواده ومضى مسرعاً بالاتجاه إلى زنزور ، يرافقه لفيف كبير من الفرسان ، إلى أن وصلوا فيها إلى سواني المشاشطة محل نزولهم المؤقت .

وفي يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٩١٩ أصدر الوالي البلاغ ، عن زيارة زعماء وأعيان البلاد للمدينة واجتماعه بهم في حفل رسمي بقصر الحكومة ، وفيما يلي نص البلاغ حرفياً :

« إن والي طرابلس بعد الاطلاع على فصلي ٢٣ و ٢٤ من القانون الأساسي للقطر الطرابلسي ، الصادر في أول جونيو سنة ١٩١٩ م عدد ٩٣١ ، وبما أنه في التحرير المؤرخ ٣ سبتمبر الجاري ، المتقدم من أحمد بك المريض إلى الحكومة ، قد صار عرض الثمانية الوطنيين ، المنتخبين أعضاء في مجلس الحكومة ، وان هؤلاء صار تقديمهم علناً بمراسيم احتفالية إلى الوالي ، من طرف رمضان بك الشتيوي ، الذي كان برفقته جمع كثير من رؤساء وأعيان القطر الطرابلسي ، حيث أنه من التحرير المبعوث عنه ، ومن الاحتفال الواقع ، تحقق أن العرض المذكور ، حصل باتفاق من رؤساء وجهات طرابلس ، يأمر بما يأتي :

إن الذوات الآتي ذكرهم ، قد صار تعيينهم أعضاء لمجلس حكومة القطر الطرابلسي وهم : عمر بك أبو دبوس – أحمد بك الشتيوي – علي



يظهر في هذه الصورة ، الجنرال (تارديتي) مدير المكتب السياسي ، ممثل الحكومة الإيطالية في تشييع البطل رمضان السويحلي ، وإلى يسار رمضان المترجم الفخري بينهما اسماعيل بك كمال ، مدير الأوقاف الأسبق

راجع صفحة ١٦٦

بك الشنطة – أحمد بك الفساطوي – محمد بك الصويعي – الحاج محمد بك فكيني – مختار بك كعبار – محمد بك بن الفقيه حسن ، وسيصير تعيين مخصصاتهم بأمر آخر .

تحريراً في طرابلس في ٤ سبتمبر سنة ١٩١٩ م .

الوالي

الامضاء ميندز ينجر

طابع الحكومة

الفصل الثامن والعشرون

انتكاس التضامن بالدسائس وحزب الإصلاح

والواقع أن هذا البلاغ ، كما ستكشف عنه الحوادث القادمة ، لم يكن سوى حبر على ورق ، نتيجة للخداع الايطالي للعرب ، بمنحهم الحكم الوطني ، وخداعهم للحزب الاشتراكي بروما المعارض لسياستهم الاستعمارية ، بأنه تم الوفاق مع العرب بما فيه مصلحة الطرفين ، ورمضان بذكائه الحاد المستجلي نفسيات عدوه اللدود ، كان يدرك تماماً نيات الغدر المصمم من الطليان قريباً على ارتكابها نحو أبناء البلاد عموماً ونحوه هو بصفة خاصة .

فما كادت تمر أيام قليلة على الحفل الحكومي ، ونشر البلاغ الولائي الرسمي عنه ، حتى أخذت تظهر من الطليان ، بوادر تشير إلى عزمهم الأكيد ، على عدم الوفاء للطرابلسيين بالحقوق التي اعترفت لهم بها في القانون الأساسي . ودليل ذلك :

أولاً – انه على الرغم من مطالبة الزعماء لهم ، بأن يخصصوا مكاناً للمجلس النيابي ، وآخر لمحل الحكومة الوطنية ، فإنهم صاروا يسوفون لاستجابته بأقوال وأعذار كاذبة .

ثانياً – بينما أصر الأعضاء العرب في مقابلة الوالي ، بأن تكون أصوات نوابهم في المجلس النيابي ، قرارية حسب المادة (١٥) من القانون الأساسي ، إذ الوالي يرفض التسليم لهم بهذا الرأي ، ويعتبر أن أصواتهم فيه استشارية ، ومعنى هذا أنه غير ملزم بتنفيذها ، ولما استقال أربعة أعضاء من الحكومة الوطنية وهم : (مختار كعبار – أحمد الشتيوي – عمر أبو دبوس – محمد الفقيه حسن) ، احتجاجاً على اعتبار أصوات النواب استشارية لا قرارية ، وجد الطليان استقالتهم فرصة ذهبية ، لإلغاء عضوية الأربعة الآخرين رغم رضاء هؤلاء بأن تكون أصواتهم استشارية .

ثالثاً – لما رأوا الجيش الوطني ، قد تمركز مع رمضان في سواني المشاشطة ، لكي يتخلصوا من مقاوماته لهم في المستقبل ، بذلوا كل مساعيهم وجهودهم بواسطة عملائهم ، لاغرائه بالانضمام إلى الجيش الايطالي ، ونزوله معه بشكناته في المدينة ، بزعم أن القانون الأساسي وحد بين الطرفين العربي والإيطالي في كل الأمور .

والغرض الخفي من سعيهم لإدماج الجيش العربي بجنودهم ، هو تجريد رمضان من سيطرته القيادية على المجاهدين ، وبالتالي إلقاء القبض عليه لأخذ ثأرهم منه لما فعله بهم في القرضابية ، ولكنه لم تنطل عليه حيلهم الغادرة ،

فقام في الجيش الوطني محذراً إياه من العواقب السيئة التي ستصيبه ، إذا هو انقـــاد لمغريات العدو وللدعايات التي يروجها بينهم عملاؤه ، ورضي بالدخول إلى المدينة ليتمتع فيها بما يتمتع به جنده .

وازاء هذه الدسائس الماكرة ، أبلغ رمضان إخوانه من أفراد الجيش الوطني أنه ذاهب إلى مسلاته ، فمن يرد منهم المجيء معه إليها ، فسيتحمل كفايته من التموين واللباس وعدته من الذخيرة والسلاح .

وتأثر الجيش من كلامه وصدق إخلاصه لوطنه فرفض رجاله الدخول للطليان ، وذهب فريق مع القـائد عبد الله تمسكت لغريان ، وبعضهم ذهب إلى ترهونة ، وفريق آخر التحق برمضان في مسلاته ، وبذلك طاشت سهام مكائد العدو للجيش الوطني ولرمضان (١) .

حزب الاصلاح وجريدة اللواء :

ولأجل الدفاع عن المكاسب الوطنية ، التي نص عليها القانون الأساسي ، وإيقـــاظ وعي الجماهير السياسي ، أسس الزعماء في زنزور لهذا الغرض النبيل ، في ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٩ م ، هيأة باسم (حزب الإصلاح الوطني) وترأس الحزب أحمد بك المريض ، لكياسته وإخلاصه وهـدوء طبعه ،

---

(١) رواية عن (الحاج محمد علي همان الجنزوزي) ، أنه في الليلة التي دبر فيها الطليان خطة مؤامرة للقبض على رمضان أثناء وجوده بسواني المشاشطة ، جاءه أحد أحبابه مساء وأسرى له بالمكيدة ، فتسلل رمضان فوراً خفية بالظلام ، وركب هو وخاصته خيولهم وخرجوا من زنزور إلى مسلاته بطريـق القربوللي المحاذي للبحر ، تضليـلا لتعقب الدولة ، فلما انكشف لهم فراره طاردوه بطريق ترهونة المضاد سلوكها إلى مسلاته فلم يظفروا به .



صورة أحمد بك المريض زعيم ترهونة ، وأحد الأعضاء البارزين
في مجلس شورى الجمهورية ، ورئيس حزب الإصلاح الوطني

وجعلت رئاسته الشرقيــة لرمضان السويحلي ، وكان من أهم مبادىء هذا الحزب :

(أ) السعي الحثيث لتنفيذ القـانون الأساسي ، وتدريب الطرابلسيين على الحكم الوطني .

(ب) التوفيق بين مصالح العرب والطليان بالعدل والمساواة .

(ج) اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لترقيــة البلاد اقتصادياً وعلميــاً واجتماعياً ونشر التعليم والحفاظ على التقاليد الإسلامية .

وقد أصدر له في المدينة جريدة ، تمثل آراء ومبادىء الحزب ، باسم (جريدة اللواء الطرابلسي) ، وأشرف على إدارتها وسياستها أحد أعيان المدينة ، وهو السيد عثمان القيزاني ، وقد أوجدت اللواء في البلاد بأقلام كتابها البليغة حركة ثقافية وسياسية واسعة الانتشار ، بين طبقات الشعب المختلفة تنور بها فكريــاً الكثير ، عن ضرورة استمراره على التمسك بالوحدة القوميــة ، لنجــاح القضية المصيرية والحذر مما يبذله الطليــان لإحباطها .

عودة الخلافات الجهوية كالسابق :

غير أنه من طالع البلاد السيىء ، حتى مع حصولها ظاهريــاً في صلح بنيادم على مطالبها ، وقيام النشاطات الحزبية والصحفية لتوعية الرأي العام للتمسك بالألفة والمحبة ، وتحذيره من التنازع المؤدي إلى فشله ، في الصمود أمام عدوه ، أجل مع كل ذلك ، فقد انتكست البلاد ويا للأسف راجعة إلى عهدها الأول من الخلافــات الجهوية ، وتنــافر الزعماء بتأثيرات العمالة

والدسائس الإيطالية .

وكان منشأ هذا الانتكاس المبدئي ، لقيام الفتن الجهوية وما نتج عنها من الكوارث ، هو عدم الظهور بين الأعضاء الوطنيين الثمانية لاسمي الزعيمين الكبيرين سليمان باشا الباروني ، وعبد النبي بك بن خير ، مع أنهما عضوان بارزان في مجلس إدارة الجمهورية .

فالباروني مع حضوره حفل اللقاء الرسمي بالوالي ، غير أنه رفض رغم الإلحاح عليه ، أن يكون ضمن الأعضاء الثمانية المنوه عنهم ، للسبب الآتي الذي رواه بهذا الخصوص ، الشيخ أبو القاسم الباروني ، في كتابه (حياة سليمان باشا الباروني ص ١٠٥) ، قائلاً عنه ما نصه :

« واعتزل الزعيم الباروني العمل ، بعد توقيع القانون الأساسي ، اعتقاداً منه أن مهمته قد انتهت بعقد الصلح ، وحلول عصر الوفاق والسلام ، وغادر طرابلس إلى الآستانة ، ليتقلد منصب العضوية في مجلس الشيوخ (الأعيان) » .

غير أن أعيان وأبناء مذهبه في الجبل الغربي ، الذين لم يفهموا السبب في عدم ذكره بعضوية الحكومة الوطنية ، ظنوا انه أبعد عنها ، بمكائد ونفوذ الزعماء المجاورين لهم ، ممن هم في مجلس شورى الجمهورية ، للضغائن العنصرية التي كنا أشرنا إليها في هامش صفحة (١١٩) ، بينما هؤلاء الزعماء قد اتهموا الباروني ، أن رفضه الاشتراك معهم في عضوية الحكومة الوطنية ، لأنه كان يسعى خفية مع الطليان ليجعلوا للجبل الأباضي ، حكماً مستقلاً تحت أمارته ، والواقع هذه التهمة فرية بثها العدو وروجها ، لإحداث الفتنة في الجهات الغربية على المبدأ الاستعماري القائل (فرق تسد) .

وقد أوجدت تلك الظنون السيئة والاتهامات الباطلة بين الطرفين ، حزازات في النفوس وإيشارات للعداوة والبغضاء ، نتج عنهـــا أوخم العواقب للبـــلاد ، بتفتيت الوحدة الوطنية ، وكانت من أهم العوامل التي مهدت أمام الطليان ، طرق استيلائه مرة ثانية على جميع أنحـاء طرابلس وفزان .

الفصل التاسع والعشرون

مواقف عبد النبي وتأثيراتها الخطيرة (١)

بقاؤه في بني وليد وأسبابه :

وأما عبد النبي بالخير ، فعدم حضوره الحفل الولائي ، مع إخوانه الزعماء والأعيان فلأنه كان قد تركهم إلى بني وليد ، لتحضير مجاهدين من ورفلة ، وإرسالهم إلى جبهة طرابلس ، أسوة بالزعماء الذين قصدوا بلدانهم لهذا الغرض، استعداداً لمحاربة الطليان، الذين لما وصلهم بلاغ الجمهورية رفضوه وأنذروا أنهم سيقضون عليها بالقوة .

---

(١) لما نعلم من حساسية التأثر لهذا الموضوع ، في نفوس الذين يلوذ بهم صاحبه، نحب تذكيرهم بما أننا في هذا الكتاب ، قد تناولنا حقائقه التاريخية بالصراحة التامة في وقائعه وحوادثه ، دون أن ننحاز فيها عاطفياً أو تغرضياً ، لأحد من المواطنين دون آخر ، وكما سبق من قبل أن ذكرنا بكل صراحة معلوماتنا التاريخية عن حياة الشتيوي والد رمضان وحياة أبي القاسم المنتصر ، وغيرهما مثلاً ، كذلك الأمر تناولنا ههنا مواقف عبد النبي بك بالخير السياسية والوطنية ، بما له أو عليه ، معززة بمصادرها المعتبرة من مراجع تاريخية صحيحة .



صورة عبد النبي بك بالخير ، زعيم ورفلة ، وأحد الأعضاء الأربعة في مجلس إدارة الجمهورية ، وأكثر الزعماء ذكاء وحنكة سياسية

ولكن على الرغم من إلحاح إخوانه عليه بالعودة إليهم ، لا سيما وأنـه من الأعضاء العاملين بمجلس الإدارة ، فقد أبى أن يستجيب إلحاحهم عليـــه بالرجوع ليساهم معهم ، في تحمل المسئوليات والواجبات الوطنيـــة ، وهم في أحرج الأوقات التي تمر بها البلاد ، وبقي مصراً بالبقاء هناك[1]،إلى أن اضطروا بصفته أحد ممثلي الجمهورية ، في اتفاقية الصلح بسواني بنيادم ، أن يوقع باسمه على صيغة الاتفـاق ، كل من مختار بك كعبار والصويعي الخيتوني نيابة عنه .

وقـد تضاربت الآراء وتكاثرت الأقوال ، في الأسباب التي أدت إلى انقطاعه ، عن مساندة إخوانه والوقوف معهم كالبنيان المرصوص في وجه عدوهم ، ونحن نرى من غير المعقول ما ذكرته المجلة الطرابلسية (الوحدة العربية بعددها الممتاز أول ابريل سنة ١٩٧٣ صفحة ٣٢) ، من أن سبب انقطاعه هو خلافه الشخصي مع رمضان حول قوافل من الإبل ، لأن هذا طلب من عبد النبي ، أن يرسل له من ورفلة جمالاً تنقل المؤن من مصراتـــه وساحل آل حامد وزليتن ، إلى عموم المجاهدين في العزيزية وبئر ترينة ، فأجابه عبد النبي « دبر[2] في إبـــل ترفع أرزاقكم ، ماكش مالك ورفلة ترفع لك إبلها .. فغضب رمضان وقال لعبد النبي ، وليت راجلي واتعارضني . والله اللي اندبر هو لك تشبحه ، فأجابه عبد النبي ، كاني راجل وإلا مش راجل تو تشبحني » .

ومما يجعلنا لا نطمئن إلى الأخذ بصحة هذه الرواية والمحاورة ، المسببة لنشوء التباغض الشديد بينهما ، أن كاتبها نسب مصدرها في المجلة إلى عـــدة أشخاص ولكنه لم يذكر تعزيزاً لسنده ، ولا اسم أو صفة واحد منهم ، ولو

(١) راجع (حياة سليمان باشا الباروني) (ص ١٠٥) .

(٢) المحاورة نقلاً عن المجلة المذكورة .

أن مسألة قوافل النقل كانت هي السبب الوحيد في تخاصمهما ، لما خفي أمرهـا على زعماء ومشايخ البلاد ، ولا على ألصق الناس بكليهما من مجاهدين ومواطنين ، ولكان تواتر ذكرها عن ألسنة هؤلاء جميعاً بالكتب والسماع . وإنمـــا القول الصحيح المشهور ، أنه أبلغ الزعماء عدم مجيئه إليهم ، هو خوفه من ان يغتـاله رمضان السويحلي من غير أن يوضح لهم الداعي لذلك .

وهنا يجدر بنا أن نتساءل ، لماذا يخشى عبد النبي على نفسه من رمضان ، وقد كانا صديقين حميمين ، منـذ ما تعارفا بورفلة ، بواسطة التومي أكسوم كما تقدمت الإشارة إليه من قبل ، وعبد النبي هـــو الذي قدم رمضان لمياني ، ليكون رئيساً لمحلة مصراته ، كما أن رمضان لم يخل في شيء من تقديره واعتباره لعبد النبي ، لدرجة أنه لم يوافق سليمان الباروني على تأسيس الجمهورية إلا بعدما أخذ رأي صديقه عبد النبي في موضوعها، وقبوله الفكرة بلا معارضة وتمسك رمضان أيضاً بضرورة أن يعين عضواً في مجلس الإدارة للجمهورية ، بدلاً من زعيم آخر له قيمته وإخلاصه ، وهو مختار بك كعبار .

ولكي تتضح لنـا الأسباب السياسية ، التي جعلت عبد النبي لا يطمئن على حياته من رمضان أو من غيره ، نحب قبل ذلك أن نعرّف بشخصه ، والكشف عن أطواره النفسية ، وأحواله المضطربة ، وسياسته المتناقضة ، ثم نذكر بعد ذلك السر في خوفه من رمضان ، وما كان لعبد النبي من تأثيرات خطيرة على مستقبل البلاد ، وتمكين الاستعمار من السيطرة التامة عليها .

التعريف بشخصه وأفكاره :

فعبد النبي بك بالخير ، كان الزعيم الأول في ورفلة ، وصاحب الكلمة النافذة فيها ، وهو من سلالة عربية أصيلة ، وقيل أصل أسرتـه من قبيلة الصيعان ، وله ثقافة عربية وتركية نالها بالدراسة ، وتميز عن أمثاله من زعماء

البلاد ، بالذكاء الفارط ، والنباهة الحادة ، وسعة المراوغة ، وكان في العهد التركي مديراً لأعشار ورفلة .

واشترك في الجهاد الوطني ، هو وأبناء ورفلة ، منذ أول الغزو الايطالي لطرابلس ، وحضر مع إخوانه جميع المعارك حول المدينة ، والتي امتدت بعدها غرباً ، إلى الزاوية والعزيزية والرابطة .

بيد أنه كان من أظهر أخلاقه الفطرية ، استحواذ غريزة الحب للسلطة والنفوذ عليه ، والسعي لإيثار نفسه بهما ، عن أي قرين له آخر من الأعيان ، في الجاه والقدر والاستحقاق لها ، ولعدم استطاعته نفسياً الفكاك من غريزته هذه ، راح يستخدم للوصول إليهما ، ذكاءه الفطري ودهاءه السياسي ، تحقيقاً لمآربه الشخصية على المبدأ الميكيافلي (الغاية تبرر الواسطة) ، وكان فوق ذلك سيىء الظن بجميع معارفه .

وقد رأى ببصره البعيد في عواقب الأمور ، أن طرابلس بعد صلح أوشي ستخضع لإيطاليا ، مهما تحمس وبذل أبناؤها في نضالهم لعدوهم ، وكان هؤلاء وقتئذ قد انقسموا إلى فريق يريد استمرار الحرب للطليان ، وفريق يرغب في الصلح يكفل للبلاد حقوقاً لها كثيرة ، وتظاهر عبد النبي بالانضمام وقتئذ إلى الفريق الداعي للمقاومة ، حفظاً لكرامته بين المتحمسين لذلك من ناسه ، ولكنه في سره كان يميل إلى إيطاليا وساعياً للتفاهم معها .

والواقع أن عبد النبي لم ينفرد بهذا الميل وحده ، بل كان عليه أيضاً لفيف من زعماء وأعيان البلاد ، كالشيخ عبد الرزاق الكبير البشتي ، ومصطفى ابن قدارة ، ومحمد فرحات الزاوي ، وسلطان بن شعبان ، وحسونه القرهمانلي ، والشيخ أحمد الفساطوي ، وعمر المنتصر ، والهادي كعبار ، غير أن هؤلاء لم يوغلوا في الامتزاج بالطليان ، مثلما أوغل هو بخدمتهم والعمل لهم كما سيأتي بيانه عنه .

تعيينه مستشاراً وتصرفاته :

فبعد معركة جندوبة ، وامتداد السيطرة الايطالية الأولى إلى أقصى فزان جنوباً ، انتمى إلى خدمة الطليان رسمياً ، فصار مستشاراً لهم في شئون طرابلس السياسية والاجتماعية ، وهذا الانتماء قال عنه غرسياني في كتابه نحو فزان (ص ٢٣٦) ما نصه : « كان عبد النبي مكاراً وحاذقاً ، عندما أعلن ارتباطه وإخلاصه للحكومة الايطالية » .

ومن ارتباطه وإخلاصه لها أنه صحب جيوشها إلى فزان خبيراً لها بجميع أحوالها الاجتماعية والسياسية ، وتوسط لهـــا مع أحمد سيف النصر فسالمها ، لقاء تعيينه متصرفاً على الجُفْرَة ، ثم تواطأ معها فأخذ هو وظيفة المتصرفية ، ونفى أحمد سيف النصر وأولاده الخمسة إلى زوارة ، وعندما قضى الطليان بعبد النبي مصلحتهم في الجهات الفزانية استرجعوه ليعمل لهم مستشاراً في مدينة طرابلس .

وفي أثناء وجوده ساهراً بربوعة انقره مانلي ، اقترح على (مياني) تعيين رمضان رئيساً لحلة مصراته ، كما سبق الحديث عنه ، ولعله كان باقتراحه هذا يرمي إلى هدفين ، تقريب صديقه إلى الحكومة الايطالية ليتقي بها ، انتقام خصومه المناصرة منه ، أو ليوطد به مركزه عنـد مياني وحكومته ، بأنه قدم لهم رجلا شجاعاً ، يعتبر من العوامل الهامـــة لإنجاح فكرة الحملة .

ولكنه لما عرف وتأكد من قرائن الأحوال والشائعات الخفية ، أن رمضان متواطىء هو والبعض من رؤساء المحلات ، بالانقضاض على الحملة ، عندئذ هداه تفكيره وذكاؤه إلى أن يتملص من الاشتراك معهم في القتال ، بذريعة اضطراره إلى الذهاب فوراً إلى بني وليد ، خوفاً

عليها من أن يغزوها في غيبته أحمد سيف النصر ، ولم تنطل على الطليان خديعته لهم بانسحابه من القرضابية قبل نشوب المعركة فحسبوها خيانة منه لهم ، إذ يقول غرسياني في نحو فزان (ص ٣٣٢) ما نصه : « إن عبد النبي بن الخير الذي اشتهر بخيانته ، عندما رحل عن سرت بحجة الاسراع للدفاع عن ورفلة ، كان في الواقع يعلم أن رمضان الشتيوي ، قد يقوم بمهاجمة الجنود النظامية » ، والمفهوم حتى رمضان رأى عدم بقائه لجانبهم في المعركة يحسب من دواعي الارتياب في سلامة نياته الوطنية .

ومما يؤيد اتخاذه الحيلة والخداع في ذلك الانسحاب المفاجىء ، أنه دخل بني وليد قبل نشوب القتال بالقرضابية ، ولم يصادف في طريقه لورفلة أي أثر لسيف النصر ، إذ كان هذا ورجاله منضمين لمحلة صفي الدين بسرت ، وكان في تقدير وحسبان عبد النبي كما بدا من حيلته ، أنه إذا انكسر الطليان في القرضابية ، يكون بالانسحاب حفظ لنفسه معهم خط الرجعة ، بأنه لم يحضر انقضاض العرب على جندهم ، وإذا انتصر العرب في المعركة ، لن يؤاخذوه على انسحابه لبيان عذره لهم في ذلك .

قيام مصانبه من تصرفاته :

ولكن كما يقال ذكاء المرء محسوب عليه فبعد انقضاء اليوم الأول لكارثة الطليان بالقرضابية ، وصل خبرها برقياً لمتصرف بني وليد ، فاستدعى إليه عبد النبي ، وأخذ رأيه عن إخلاص ناسه للحكومة ، فيما لو رأت الرحيل مؤقتاً إلى مدينة طرابلس ، فأجابه على كل حال نحن معكم ، وفهم كل منهما مقصود صاحبه .

فأدرك عبد النبي أنهم انكسروا تماماً في القرضابية ، وأدرك المتصرف أنه يخدعه بقوله نحن معكم ، ورد عليه سأناديك غداً للكلام في الموضوع ، ولم يكن عبد النبي غبياً حتى ينتظر مناداة المتصرف له ، ليعتقله لغدره لهم في المعركة ، فاختفى من بني وليد كوميض البرق ، ولم يجدوه في اليوم التالي فنسفوا منزله .

وإذا هو بعد فراره من المتصرف ، يفاجأ بعد أربعة أيام بقدوم مجاهدي القرضابية من جماعة صفي الدين وسيف النصر ، فخرج الطليان لقتالهم ولكنهم هزموا وظلوا محصورين داخل بني وليد ، إلى أن سلموا بعد شهر لأحمد سيف وعبد النبي ولما تم إجلاؤهم عن بني وليد ، استأثر سيف النصر وأحمد التواتي ، بجميع الغنائم والأموال التي وجدوها عندهم ، وتركوا المئات من أسرى عدوهم في أسوأ الحالات .

واعتبروا عبد النبي لسابق محالفته ضدهم مع الطليان ، رجلاً لم تبق له عندهم منزلة معتبرة ، ولو استطال به الأمر بورفلة ، لقتله أحمد سيف النصر ، جزاء ما سبب له من النفي إلى زوارة ، غير أن نتائج خصام رمضان مع صفي الدين ، وترك هذا طرابلس إلى برقة والتحاق سيف النصر بسرت ، كل أنقذت حياته وأرجعت إليه اعتبارات زعامته لورفلة .

تجدد اتصاله بالطليان وأسبابه :

ومع تصرفات ذكائه الهادفة دائماً لحب السلطة والجاه العريض ، فقد لازمها الحسد والغيرة ، من أي زعيم يفوقه حظوة ونفوذاً في البلاد ، وبعد القرضابية لم يكن فائزاً عنه بذلك جنوب طرابلس الشرقي ، سوى رمضان السويحلي ، ثم ازداد شأنه قيمة ورفعة برسو الغواصات الألمانية

بمصراته ، حاملة إليه المعدات الحربية والفنية والخبراء العسكريين الأتراك ، واتخذه الباروني عمدة لولايته على طرابلس .

ورأى عبد النبي لكي لا يتقدم عليه أحد بعلو المنزلة والقدر من العرب ، أن يعمل لهذا الغرض بتجديد علاقته الأولى مع الطليان ، منافسة لمكانة رمضان العظيمة بين الناس ، ورداً لاعتباره الشعبي بورفلة ، الذي أخذ يتضاءل منذ ما تأسست الجمهورية ، وتعيين الباروني والياً وقائداً عاماً بطرابلس .

فلما فاوضهم سراً بتجديد العلاقة رحبوا بهذا التحول من عبد النبي لجهتهم ، وبعد أن تبادلوا معه وجهات النظر ، كانت ركزة اتفاقهما مسألتين : (أ) أن ينسحب عبد النبي بتاتاً من ارتباطاته بالجمهورية ، وأن لا يشترك مع زعمائها في معاداتهم لإيطاليا . (ب) وأن يتعاون في العمل معهم ضد رمضان السويحلي .

والظاهر أن هذا الوفاق السري ظن عبد النبي ، أن البعض من أحباب رمضان بورفلة قد علم به ، فأخبره عنه ليأخذ احتياطه منه ، وتوهم أن رمضان لافتضاح سره مع الطليان ، لا بد أن يقتله لخيانته له ، ولكن رمضان لم يتضح له الوفاق المذكور إلا بعد فترة من الوقت .

إذن ما أبلغه عبد النبي للزعماء ، عن نيات رمضان السيئة نحوه ، ليس ناشئاً كما زعِم عن نقاش حاد بينهما ، حول إبل لنقل المؤونة للمجاهدين ، الذي فندنا عدم الأخذ بصحته ، بل كان عما توهمه بوصول سر وفاقه غير الوطني مع الطليان إلى رمضان ، وما ذكره عنه للزعماء من محاولة قتله ، ما هو إلا ذريعة للبقاء في بني وليد ، وليستتر بها تملصه من عدم اشتراكه معهم مستقبلاً ، في جميع القضايا الوطنية والجهادية ، وفاء لما تم له من التفاهم السري بينه وبين الطليان .

ومما يؤكد صحة هذا الاتفاق ، الخاص بالتزامه الانسحاب من التضامن مع إخوانه المجاهدين ، ما أثبته له كتاب (نحو فزان ص ٢١٨) ، بأن عبد النبي كان قد بعث لغرسياني رسالة يقول له فيها بالنص : « أن ورفلة كانت منذ إبرام معاهدة الصلح حتى الآن بقيت محايدة » يعني أنها بقيت مسالمة لحكمكم وغير محاربة مع العرب ضدكم .

زد على ذلك أنه بينما كانت البلدان الطرابلسية تقاوم عدوها ببسالة ، وهي ضامرة البطون رثة الثياب ، محرومة من أقل الضروريات الحيوية ، كافأت إيطاليا عبد النبي على رجوعه لخدمة سياستها في البلاد ، بأن فتحت له أبواب وأسواق مدينة طرابلس ، تمتار منها قوافل منطقته ، ما تريد من أغذية وملابس وأشياء متنوعة ، ومما يدل على هذه المكافأة قول غرسياني في كتابه (ص ٢٣٩) ما نصه : « أن زعيم ورفلة كان قد منح حق إرسال قوافل لإحضار مشتريات من طرابلس » .

ومما تقدم يبدو جلياً السبب في اعتصام عبد النبي في بلده ، ليس احتراسه كما زعم من أن يغتاله رمضان ، إذ أنه لو جاء وبين لإخوانه الزعماء والأعيان أدلته على تلك التهمة وتأكدوا منها ، لنصروه وأيدوه على رمضان ، بل في الحقيقة كان رفضه العودة إليهم ، هو لتنفيذ ما ارتبط به مع الطليان ، في ذاك الوفاق بخصوص الانفصال عن مواطنيه .

الفصل الثلاثون

غزو رمضان لورفلة وأسبابه وقتله فيها

وقد تجلت لرمضان الحقيقة في تآمر عبد النبي عليه مع خصومه الطليان ، عندما باشر هؤلاء التصدي لمحاربته بأرض مصراته ، بواسطة محلة مرتزقة ، يترأسها أحد أعدائه من أبناء بلدته ، ويعاونه آخرون ، ممن يأملون موته وزوال حكمه .

عبد القادر وأحمد السويحلي :

فقد كان عبد النبي والطليان ، يعلمون أن المناصرة ما زالوا يسعون بأقصى جهدهم ، ليأخذوا الثأر لابنهم بالقاسم من رمضان ، وان كثيراً من الناس في مصراته وغيرها ، ليسوا متعاطفين معه ، ويتمنون التخلص من عهده ، فلكي يُتيحوا لهؤلاء جميعاً الفرصة للتضامن معهم بالقضاء عليه ، استدعوا عبد القادر بن عمر المنتصر إلى ورفلة ، وجعلوا له محلة[1] من الرجال

(١) عن الحاج الشيباني أحمد السويحلي وغيره من قدامى المجاهدين .

المرتزقة ، ويعاونه فيها أحـــد أقربائه وبعض أنصاره ، وهم : (ع.م) و (ج.ف) و (ع.ك) وكلهم من مصراته ، وبناء على التوجيهات التي كلف بها عبد القادر ، بصفته رئيساً لتحركات رجـاله ، صار يغير بهم المرة بعد المرة على برية مصراته ، وينهب بالقوة ما يجده سارحاً من ماشيتهـــا ، ويرجع بها إلى داخل ورفلة ، متصرفاً فيها أكلاً وعطاء وبيعاً .

وأدرك رمضان بذكائه أن الهدف السياسي من محلة عبد القادر ، كان يرمي إلى الإخلال بالأمن في منطقته ، وإشعار أهاليها بعجزه وضعفه عن حماية أنفسهم وأموالهم من تعديات ابن المنتصر عليهم ، ثم ان الذين من ورائه أرادوا أن يشغلوا رمضان بـه ، عن محلة أخرى مماثلة للأولى ، يقودها أحد الأتباع لعبد النبي وهو عبد الله مفتاح الأزرق ، أعدت لتحاصر رمضان في مسلاته ، في نفس الوقت الذي ، تخرج له من الخمس قوة إيطالية ، فتطوقانه ثم تهجمان عليه فتأسرانه أو تغتالانه .

وإزاء هذه الأحداث الطارئة ، التي قامت في وجه رمضان ، والبالغة لديه أقصى حدود الخطورة والأهمية ، لم يقف معها مكتوف اليدين ، بل إنقاذاً لنفسه وحكمه من شرورها وعواقبها الوخيمة ، بادر فكوّن محلة من خيرة الرجال المقاتلين ، بقيادة شقيقه أحمد وجعـــل بصحبته شقيقه الآخر الفارس سعدون ، ووجههم لبادية مصراته المحاذية لتراب ورفلة ، وأمرهم أن يطاردوا محلة عبد القادر بكل شدة وأينما يسمعون بمكان وجودها .

فكرة الغزو وأهدافها :

ونظراً لكون ورفلة بسياسة عبد النبي الختالة الغادرة ، صارت بؤرة عمالة للطليان ، ويتلاقى فيها أعداء رمضان المتربصين له عظائم الأمور ، لذلك

وطّد العزم على أن يقتحم عليه بني وليد ، ويطهرها من كل عوامل الإضرار بوحدة الوطن ، ومن بث الضغائن والفتن .

ومما كان يشجعه على تنفيذ فكرته هذه ، أن الكثير من أعيان ورفلة كانوا قد صارحوه من قبل ، باستعدادهم لتأييده إذا ما حاول ، تنحية عبد النبي عن زعامة ورفلة ، ووضع زعيم لها بدلاً منه باختيارهم ، إذ أن سلوكه المتقلب لغير مصلحة البلاد العامة ، قد أساء إلى كرامة وشرف ورفلة بالغ الإساءة ، وأحطّ من سمعتها .

وكان يرى أيضاً إذا قدر له ، أن يستولي على بني وليد ، فسيمعن بعدها غرباً إلى نالوت لمقابلة صديقه بطل الجبل اللامع ، خليفة بن عسكر ، فيعقد معه حلفاً جهادياً وسياسياً ، لتنظيم وحدة الوطن الشاملة ، ثم يزحفان بقواتها لانتزاع قرى الجبل وغريان من العدو ، وبعد استخلاصها ينحدران ، فيتابعان قتاله في البلدان الساحلية الشمالية إلى أسوار مدينة طرابلس ، ويرغمانه بقوة السلاح وصلابة الإرادة ، على أن ينفذ ما اعترف به للشعب من حقوقه التي أقرها له القانون الأساسي .

وتحت تأثره العميق وانفعالاته النفسية ، مما أحاطه بـــه خصومه من المؤامرات والمكائد ، شرع يهيئ حملة كبيرة لغزو ورفلة ، وابتـدأ في إعدادها منذ أوائل أغسطوس سنة ١٩١٩ ، وكانت مجهزة بجميع المستلزمات للسفر الطويل وحروب البادية ، بما في ذلك الحبال والدلاء ، لتوريد الماء من المعاطن (الآبار) ، وتألفت من ألفي (٢٠٠٠) مسلح ، فرساناً ومشاة ، وتولى رمضان قيادتها بنفسه ، وفي العشرين من الشهر المذكور ، تجمعت متهيأة للعمل في وادي دوفان .

وعلى الرغم من ضخامتها بالنسبة للحجم البشري في المناطق السويحلية ، فقد لازمها عدة ملاحظات ناقدة لأحوالها من ذلك مثلاً :

(أ) أنها أعدت بصفة مستعجلة ، مع الاقتراب لحلول عيد الأضحى الكبير ، الذي يؤثر فيه عادة كل مجاهد رب أسرة ، أن يحتفل به بين صغاره وأهله ، وإن عدم مشاركتهم فيه بذلك ، وهو في غير أوقات المجابهة الحقيقية للطليان ، من أكبر العوامل الحازة بنفسه ، وتجعله في مثل هذه الحملة وظروفها الزمنية ، غير متجه بقلبه وإحساسه ، لتأدية مهمته القتالية فيها على الوجه الأكمل .

(ب) وقيل ان لفيفاً من فواتير زليتن الشيوخ ، الذين يتبرك ويتفاءل الناس بدعواتهم الخيرية ويتشاءمون من عدم العمل بما يرضيهم . كانوا [1] قد نصحوا رمضان كثيراً ، بأن يرجىء غزوته إلى ما بعد العيد ، وأن لا يفجع الناس فيه بإراقة الدماء لذويهم ، فلم يعمل بنصحهم الأمر الذي حملهم على الاستياء منه لرفضه رأيهم ولاتهام معارضيه في ذلك بالجبن ، ولا يخفى أن لهؤلاء تأثيراً نفسياً وروحياً كبيرين على السذج من العامة ، والظاهر أنه أراد بغزوه يوم العيد المباغتة .

(جـ) وحتى لو اطمأن أن للحملة أنصاراً من الورفليين ، الذين تقدمت الإشارة إليهم ، فللاحتياط كان ينبغي عليه أن يطلب منهم ، إرسال جماعات من أفرادهم إلى وادي دوفان ، ليدخلوا معه إلى بني وليد ، إشعاراً لأهاليها من أقرباء وعصبيات هؤلاء ، بأنه يأتي إليهم بالتحالف مع ناسهم ، لإزالة الأوضاع الوطنية السيئة عندهم ، واستبدالها بما هو خير وأبقى نفعاً .

(د) وانه عند تجهيز حملته أهمل فيها التفكير الإيجابي ، ليوفر لها ماء

---

(١) عن المجاهد الزليتني الفيتوري الحاج محمد بن مفتاح شعاعة .

الشرب الضروري يومياً لجيش تعداده نحو ألفي (٢٠٠٠) نسمة ، وكان عليه بهذا الخصوص ، أن يجعل جماعة سرية تسبق الحملة ، وتكمن بسلاحها حول مواجل المياه في الأودية ، وتعيين أمكنة وجودها فارغة أو مملوءة بالماء ، لأن الإنسان قد يصبر على احتمال الجوع يومين وأكثر ، ولكنه لا يطيق احتمال العطش يوماً واحداً ، ولا سيما أيام الحر الشديد كشهر أغسطوس وفي صحراء ذات شمس محرقة .

وهنالك رواية متواترة سمعناها في مصراته وزليتن ، وهي أن رمضان لم تخف عليه أهمية تأمين الماء لحملته [1] فاستدعى إليه شخصاً من ورفلة قيل له خبير بمعرفة المواجل المائية في الأودية على طريق الحملة ، ولما كان سيرها ليلاً ، فقد ضللها الرجل الخبير بدافع الغيرة على أبناء بلده ، وجاء من نبه رمضان انه قد خدعه الرجل وابتعد به عن الآبار المائية وعن بني وليد نفسها وحين تيقن من الخديعة قتله وعندما ارتد عن الفريق الذي ضللهم الورفلي به ورجع لطريق بني وليد كان الفجر قد لاح وظهرت الحملة للورفليين فاحتجزوا عنها معاطن الماء .

ومهما يكن فإنه بعد هذه الملاحظات على الحملة ، نريد أن نذكر حولها كلمة إنصاف تاريخية لرمضان ، وهي أنه اضطره للقيام بها أمران ، أولهما دفاعاً عن نفسه وحماية لأمن واستقلال ناسه ، وثانيهما استفزاز خصومه إياه بما أخذوا يوجهون إليه من الحملات المرتزقة ، الساعية بالتواطؤ مع الطليان وعبد النبي ، أن تقضي عليه القضاء المبرم والبادي بالشر أظلم . قال الشاعر :

إذا لم يكن إلا الأسنة مركباً
فما حيلة المضطر إلا ركوبها

---

(١) نقلاً عن الحاج محمد رحيمة الشويهدي المصراتي ، وعن فضيلة الشيخ الطاهر منصور بو زبيده الزليتني .

انكسار الحملة وأسبابه :

وفي فجر العيد الأضحى يوم ١٠ ذي الحجة سنة ١٣٣٨ هـ الموافق ٢٤ أغسطس سنة ١٩٢٠ ، وكان أكثر الناس في بني وليد لا يزالون نياماً ، اقتحم رمضان المدينة بخيله ورجاله ، من جهة القصر لحكومة ورفلة ، ونصب بمكان مرتفع منه مدافعه .

وقبل أن يبدأ القتال ، لما كانت غايته الأولى هي ، أن يأخذ عبد النبي حياً ، فقد سأل القريبين إليه من رجال الحملة عمن يعرف تماماً مداخل منزله ، ليأتيني به دون أن يمسه أذى ، فأعلن بتأدية المهمة عمر العوراني من ساحل آل حامد وأرفقه باثنين من زملائه .

واستطاعوا بطريقة ما ، أن يتسلقوا جدران مكانه ، والنزول عليه بغرفة نومه « وكان[1] عبد النبي ينام ناعم البال ، عندما فوجىء بثلاثة من رجال رمضان المسلحين ، دخلوا خلسة إلى غرفة نومه ، فدعوه باسم زعيمهم (رمضان) أن يتبعهم لمقابلته [2].

ولما كان بالخير واسع الحيلة ، كثير الدهاء ، رابط الجأش ، فإنه لم يفقد شجاعته ، وتظاهر بارتداء ملابسه ببطء ، نزولاً على أمرهم ، ولكنه أبدى إشارة متفقاً عليها ، وسرعان ما قام رجاله ، ودخلوا الغرفة فجأة ، ونزعوا السلاح من أيدي رجال رمضان وقتلوهم ، وبعد ذلك جمع عبد النبي رجاله ، وبدأ إطلاق النار من داخل بيته ، وعندئذ هرع رجال عبد النبي ، من كل مكان حاملين أسلحتهم ».

---

(١) عن كتاب غرسياني (نحو فزان ص ٣٦) وهي فقرات الوصف التي بين قوسين .

(٢) وفي رواية عن الحاج حسين بن بشير اليسير المتقدم ذكره ، أن العوراني قال له قم يريدك الفواتير ، وبينما هو نازل معهم فاجأهم خادمه الأسود داخلا عليه بقهوة الصباح ، فقال له دونك هؤلاء ، وكان العوراني وجماعته معلقين بنادقهم على أكتافهم ، فلما هجم عليهم الخادم وتصارع معهم ، سمعهم حرس عبد النبي فجاءوا وقتلوهم .

وابتدأت المعركة حامية الوطيس ، عنيفة القتال والأهوال ، ملتهبة النيران في الجو القائظ كالجحيم ، وعلى الرغم من أن قوات رمضان، متفوقة عن الورفليين أنصار عبد النبي ، بالجند والعتاد والمهمات والسلاح ، غير أنه بعد ساعات قليلة من نشوب الحرب ، سرعان ما أخذت تظهر على الحملة بوادر الفشل والانكسار ، وتلوح على خصومهم بوارق الفوز والنجاح ، ويمكن تركيز أسباب ذلك مما سبقت الإشارة إليه فيما يلي :

أولاً : أن رجالها دخلوا المعركة ، قبل أن يأخذوا الراحة الكافية من سيرهم الطويل المضني ، فلما وصلوا كانت قواهم خائرة ونشاطهم فاتراً رغم إخلاصهم وشجاعتهم .

ثانيا : من الناحية النفسية كانوا غير راضين عن قيامهم بهذه الغزوة في ظروف لم تكن مناسبة دينياً واجتماعياً .

ثالثا : ولسوء حظهم كان يوم ٢٤ أغسطس ، من أشهر أيام الصيف قيظاً وحرارة في سنته ، فراح العطش المميت يمتص دماءهم ، ويخبل عقولهم ، ويشل قتالهم .

رابعا : وعندما تجارى الظمأى إلى الآبار والمواجل ، في وادي بني وليد ليحيوا أنفسهم المتهالكة بمياهها، وجدوها كلها يطوقها مسلحو ورفلة وأخذوا يردون عنها بالنيران الحامية كل مقترب إليها منهم .

فاجعة مقتل رمضان :

وكان رمضان أثناء المعركة ، متخذاً موقفه وراء القصر جهة الشرق بمحل يقال له شعبة فايد ، يناضل هو وصديقه الوفي البطل الهلّولي [1] وتابع

---

(١) الهلولي هو داك الرجل الزليتني الشهم الذي قصده رمضان واخوه ليلا بحجة تفتيشهم على بقر ضائع لهم اخفاء لقصدهم الحقيقي بالمجيء ، فاستضافهم ووعدهم إن وجده سيرسله لهم .

رمضان الأمين سعيد الهشي وضارب النفير (البرازان) الخاص بقيادتـــه (سالم محمد الزبيك)[1] ، كان يناضل بما عرف عنه من شجاعة فائقة ، وجلد وثبات في الشدائد ، واحتمال عجيب للظمـأ اللاسع ، وكلما فرغ رصاص مسدسه عبّأه له فوراً سعيد .

وشعر بعض الورفليين يقال لهم أبناء دبلج ، بموقفه الحرج الخطير ، وكانوا من المتعاطفين معه قلبياً ، ويعتبرونه حسب العرف القبلي خالهم ، لأن والدتهم دبلج مصراتية الأصل ، ولعلها كانت تنتمي إيضاً إلى السويحليـة بعرق نسب ، فطلبوا إليه متوسلين ، أن يتبعهم مسرعاً لينجـوا به من الهلاك ، فرفض مجيبا إياهم ، (لئن يقال بك مـات شجاعاً ، خير من أن يقال بك فر من القتال جباناً) وفي رواية أخرى أنه قال (كيف أنجو بنفسي من المعركـة لتزغرد علي النساء لسلامتي ، بينمـا نساء أخريات يقمن المآتم على فقد ابنائهن ورجالهن معي) .

وأصر على الثبات بموقفه ، ولم يطل به الحال حتى هجم عليه عدد كبير من جماعة بالخير ، فأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، ومسكوه أسيراً بينما قتل من كانوا معه (الهلولي وسعيد) وأما سالم الزبيك فقد استطاع الإفلات .

وخف من بينهم من أبلغ عند النبي أسرهم لرمضان ، فرد عليهم إذا جاءني لن يقتل ، وفهم الذين أبلغـوه الخبر من عبارته الموارية ، أنـه يريد منهم قتله ، وإلا لكان قال لهم صراحة ، مثل ما كان رمضان

---

(١) الحاج سالم محمد الزبيك التحق برمضان مجاهداً كما تقدم ذكره وسنه دون العشرين فجعله في صحبته ضاربا لنفير التجمع القتالي (برزنجي) لقوة نفسه واخلاصه ، وهو الآن (١٩٧٣ م) تجاوز السبعين ومعين بوابا باحدى مدارس مصراته .

قاله عنه لعمر العوراني ، ولما رجع أحدهم لأصحابه ، أفهمهم المقصود الحقيقي لزعيمهم بشأن رمضان فقتل .

أجل لقد قتل الآخذ بثأر العذروات ، والفارس الأصلب بالملحمات ، وبطل القرضابية الأوحد ، ورجل الشهامة والإنسانية ، والحاكم بالعدل ولو على أقرب الناس إليه ، والوطني الأمثل ، وعدو الطليان الأول ، قتل وكأن روحه وهي تحلق صاعدة إلى ربها ، كانت تنشد بلسان حاله ، قول الشاعر البليغ حافظ إبراهيم :

لا تلم كفي إذا السيف نبا   صح مني العزم والدهر أبا
رب ساع مبصر في سعيه   أخطأ التوفيق فيما طلبا

عبد القادر ورأس رمضان :

وفي نفس اليوم الذي قتل فيه رمضان ، كان شقيقاه قد باغتا صباحاً في قرارة القطف،محلة عبد القادر المرتزقة ، ففر منهما على حصانه بملابسه الداخلية، لشدة ارتباكه وخوفه ، وما زال يعدو به حتى وصل بني وليد ، بعد ساعات من مقتل رمضان .

ولما سمع بما جرى له ، تمكن من الاهتداء إلى محل جثته، بمساعدة من نفحهم نقوداً ، فحزّ رأسه ثم مضى به يجري على حصانه نحو طرابلس ، ليقدمه لناسه دليلاً لأخذه ثأرهم منه ، وللطليان تأكيداً لشجاعته .

وحين علم عبد النبي ما فعله عبد القادر برأس رمضان ، ثارت نفسه غاضبة حانقة عليه ، لإهانته رمضان وهو ميت ، وتجـــاوزه بجز رأسه كرامته هو خاصة ، وكرامة مواطنيه الورفليين بصفة عامة ، فأمر بعض الفرسان من رجاله ، أن يلحقوا به ويسترجعوا منه الرأس ولو بقتله ، فأدركوه قبل ترهونة

وانتزعوه منه .

وبعد ذلك تابع عبد القادر سيره غرباً ، إلى أن [1] دخل بحالته المضطربة وثيابه المهلهلة الداخلية ،على أخواله أسرة المريض بترهونة ،وقص عليهم تفصيلاً ما كانوا يجهلون من أمره ، فأصابهم الألم المبرح والحزن العميق ، لفاجعة البلاد برمضان على الرغم مما كان بينهما من نزاع ، ومما زاد في تأثرهم البالغ حد الأسف عليه مصرعه بتلك الحوادث الدامية ،وغضبوا على ابن بنتهم أشد الغضب لطيشه وغروره بنفسه ،فيما اقترف من ذنب التمثيل بجثة رجل وأي رجل ،وبعدما كسوه بثياب لائقة به ، أصحبوه برفقة رجال من عندهم ، فأوصلوه بآمان إلى أهله بمدينة طرابلس .

ورجع أصحاب عبد النبي إليه بالرأس ، فلما رآه استنكره قائلاً ليس هذا برأس رمضان ، ولكنه مشابه له تماماً في الخلقة والبياض ، وهذا في صدغه كيٌّ ورمضان الذي أعرفه كنفسي ليس في صدغه كيٌّ ، عندئذ اندهش الجميع من ملاحظة عبد النبي ، فرمضان قد قتل بلا ريب ولا نكران ، ولما رجعوا لمكان جثته لم يجدوها ، ووجدوا بأرض مقتله ، جثة الرأس المزور ، وكانت لزميله المجاهد الكبير (محمد الهلئولي) المماثل لرمضان في محيا الوجه ولون البشرة والعيون بل وفي هيئة الجسم .

وبالبحث [2] عن السر في اختفاء جثة رمضان ،قيل أن أبناء دبلج المذكورين غافلوا الناس بعد مصرعه بقليل وسرقوها سراً ، ثم دفنوها بمكان قصي لا يعرفه أي أحد غيرهم ، ولما اتضح أمرهم لعبد النبي ، فروا من ورفلة لجهة غير

---

(١) أخذاً من رواية الحاج سالم بن محمد بك الصغير المريض ، وقد توفي عبد القادر رحمه الله سنة ١٩٧٣ بمدينة طرابلس بعد مرض عضال عن حوالي ثمانين سنة وليس له ذرية .

(٢) الرواية عن الحاج الشيباني حمد السويحلي وغيره أيضاً ومنهم الحاج محمد رحيمه الشويهدي .

معلومة ، فما كان منه إلا أن انتقم منهم فأحرق منزلهم ، ولم يظهر لهم بعد ذلك أي أثر ولا خبر .

وفي اليوم الثاني لوفاة رمضان ، وصل خبر قتله لأخيه أحمد في قرارة القطف ، فأمر من معه بإخفاء الفاجعة عن سعدون ، حتى لا يحمل المجاهدين بأن يذهبوا معه لورفلة ، طلباً للثأر من عبد النبي ، وبعد أربعة أيام لما عرف سعدون الحقيقة ، وأراد أن يسعى للانتقام ، فألزمه أخوه وصحبه العقلاء ، أن لا يأتي عملاً طائشاً ، يزيد في خسائر الأرواح ، بين أبناء الوطن الواحد والأخوة الجيران ، فرجع بذلك عن فكرته ، واحتمل فاجعته في شقيقة ، تغمره عليه مظاهر الكآبة والأحزان المبرحة .

تأثيرات وفاته وغرسياني :

وكانت وفاة رمضان قتيلاً ، كارثة عظمى فقد بها الوطن ، أعز أبنائه ، وخيرة رجاله ، وأشجع أبطاله ، وأذرف الدمع عليه الكبار والصغار ، وأقامت له المناحات الكبرى ربات الحجال .

وأسف لفقده حتى ذوو النفوس النبيلة من أعدائه الطليان ، الذين عرفوا أو سمعوا بنخوته وشهامته مع زوجة (الماجور شيتاريلا) ، ولا سيما أسراهم الذين كانوا عنده بمصراته ، ويذكرون حسن معاملته لهم وقتئذ .

وإذا كان الفضل ما شهدت به الأعداء على حد المثل ، فعلى الرغم من أن الجنرال غرسياني ، كان يعتبر رمضان عدو الطليان الأول ، وأغرقه في كتابه ذماً وكرهاً ، فإنه مع ذلك لمناسبة قتــله ، تغلب عليه من حيث لم يشعر ضميره الإنساني ، المعترف لأبطال الأمم أقدارهم ، ولعظماء التاريخ أمجــادهم ، فانساق تحت هذا التأثير الوجداني ، وبلا إرادته الاستعمارية الغاشمــة ،

إلى الكلام عن رمضان بعد موته ، كأنه تأبين ضمني له وتقدير خفي لما كان لحياته العظيمة من علو الشأن في وطنه طرابلس .

بل أنه صور خطأه الحربي في هجومه على ورفلة ، كأنما هو قائد زميل له ينتقده ، فيما أتاه نحو جيشه من التقصير الكبير في حقـــه ، لعدم تهيئته له قبل الغزو العنصر المهم للحرب الصحراوي ، ومقومات النجاح فيه وهو عنصر الماء . ففي صفحة (٣٠٦) من كتابه نحو فزان يقول بهذا الخصوص :

« ومن غلطته التي لا تغتفر بصفته زعيماً وطنياً ، أنه أهمل التنظيمات المائية الخاصة بمحلاته ، حتى أن هذه القوات ، ولو أنها وصلت فجأة إلى بني وليد ، لكنها كانت منهوكة القوى من العطش وغير صالحـة للقتال ، وكان رجاله يقدمون بنادقهم للنساء ، في نظير قربة من الماء » .

ومن ناحية تقديره إياه ، زعيماً اشعبه وقائداً بطلاً لجيشه ، قال عنه في صفحتي ٣٥ و٣٧ ما نصه :

« لقد كان أثناء الحرب الإيطالية بفضل شجاعته وميله الغريزي ، قائداً من قواد المحلة المرموقين ، كان عدواً لكل من يرى عمله في الحكم استبدادياً ظالماً ، وبث في كل أعماله الحقد والقسوة المتناهيين ، ضد كل إنسان يتكلم عن الطليان أو يظهر العطف على الإيطاليين » .

« وهكذا كانت خاتمة ألد خصوم إيطاليا وأكبر الحاقدين عليهـــا ، وكان من حسن حظنا لأنه كان حائزاً لصفات الزعيم البربري (أي القاسي) ، إلى جانب كفاية سياسية غير معتادة ، كما كان زعيماً دينياً كبيراً ، وأن هذا الرجل إذا كان قد بقي في قيد الحياة لكان أمامنا عمل كبير لمواجهتنا » .

« وقد استمر الناس في مدينة طرابلس ، وفي داخل البلاد ، مدى سنتين يشكون في نبأ وفاته ، ويتمنون أن يكون خبر وفاته من الأخبـــار الكاذبة » .

هذا ومما رثاه به العربي الكبير الأستاذ عبد الرحمن عزام في جريدة الفجر الجديد الطرابلسية بتاريخ ٢٦ يونيو سنة ١٩٧٣م قوله عنه بالحرف :

« أما المجاهد رمضان السويحلي ، فقد كان رجلا صعباً رحمه الله ، لا يعطي نفسه لأحد ، ولكنه كان حقيقة بركة الجهاد الحقيقي ، ولو عاش طويلاً لأسس مملكة أو أمارة في هذه الأرض » .

الفصل الحادي والثلاثون

السويحليون الثلاثة واختيار احمد

مدى تقدير رمضان وأسرته :

والأستاذ عزام في ثنائه البليغ على رمضان ، كان يعني أنه لو عاش كثيراً ، لأسس لأبناء القطر الطرابلسي والفزاني بشجاعته وإخلاصه لا لنفسه ، حكماً مستقلاً على أحد النظامين الملكي أو الأميري ، ولقد نعته في هذا القول بكلمة الحق ، التي يؤيده فيهـا من عرف شخصية رمضان البطلة ، في مسارح النضال للعدو ، وخبر زعامته الشعبية القوية عن كثب .

وإحرازه فطرياً على هذه الشمائل الرجولية ، هي التي دفعت بعد القرضابية نحو أزيد من مائتي (٢٠٠) ألف نسمة ،من أهالي المناطق الخمس المتقدم ذكرها،إلى الانضواء تحت حكمه ، متحالفين به مع مصراته ، وكان هذا الانضواء صادراً عن إرادتهم الحرة ، واختيارهم المطلق له .

ولفرط تقديرهم لزعامته وافتخارهم بهـا ، ففي أثناء ترؤسه عليهم مدة

خمس سنوات (١٩١٥ - ١٩٢٠ م) كانوا فيها أطوع له من بنانــه ، عن رضا وطيب نفس ، بجميع ما كان يفرضه عليهم ، من الأعباء الحربيــة والاقتصادية والاجتماعية ، ولأنه في هذه التكاليف ، كان يلزم بها نفسه ومن يلوذ به قبلهم .

وكانوا في هذه الإطاعة ، قد أنزلوه في الحقيقــة ، منزلة أميرهم الشرعي ، بحكم إرادتهم واختيارهم إياه ، وفقاً للاصطلاح الإسلامي ، المعبر بكلمــة الأمير أو الوالي ، عمن يتولى شئون المسلمين العامة ، ويرعى مصالحهم الدينية والدنيوية .

وسيرة رمضان يوم كان أميرهم ، حببت الناس بكل فرد من أسرته ، ومن أجل هــذا الود فإنهم بعد وفاته ، بدلاً من أن يلغوا التحالف ، وينفضوا من حول أخويه أحمد وسعدون وابنه إبراهيم ، رأيناهم تخليــداً لذكراه المجيدة ، واعترافا لما لأسرته من الفضائل الوطنية ، قد اعتبروا هؤلاء السويحليين الثلاثة ، كورثاء بالتتابع لحكم سلفهم لهم ، إذ كانوا هم مثله ذوي وطنية صادقة ، وأخلاق كريمة ، وحياة شعبية ، واشتهروا في مجابهاتهم للعدو ، بالبسالة الجريئة ، والفروسية المغوارة .

اختيار أحمد لمنصب أخيه الراحل :

ولذلك لم تمض على وفاة رمضان نحو خمسة أيام ، حتى توافد على مصراته أعيان ومشايخ الجهات المتحالفة معهــا ، مقدمين إلى أحمد بك السويحلي ، تعزياتهم الحارة ومظهرين تأثراتهم الدامعة لوفاة شقيقه ، معلنين أن فقده كان فاجعة وكارثة كبرى أصابت بلدانهم كلها ، وتم بالإجماع تقريباً انتخابهم له ، مكان أخيه رمضان رئيساً لحكومة مصراته وحليفاتها وخوّلوه القيــادة العامة للجيش ، وحصلت في إجتماع انتخابه ، [1] في مدينة زليتن معارضة

(١) من رواية المجاهد الحاج محمد بن مفتاح شعاعة الزليتني الفيتوري المتقدم ذكره .

لتعيينه من أولاد الشيخ لعـــدم رضائه عن إعدام رمضان للسيد عبد الله ابن ادريس ، في حين أن رمضان يبرىء نفسه من الحكم عليه بذلك ، إذ كان مصيره قضت به المحكمة الشرعية العليا،ولتسوية هذا الخلاف ذهب عزام وأحمد لزليتن واسترضوا أولاد الشيخ فقبلوا تعيينه .

وأحمد بك هو الابن الثاني للشتيوي بن أحمد بن مفتاح السويحلي ، ولد سنة (١٢٩٩ هـ الموافق لسنة ١٨٨٣م) أي بعد ولادة أخيه رمضان بسنتين ، وكان في أوصافه البدنية ، مماثلا تمامـاً لوالده ولرمضان ، في بياض البشرة وصورة الوجه ، وامتداد القامة ، وكان أيضاً فارساً شجاعاً ، غير أنه من ناحية الطبع الغريزي ، كان يختلف عنهما بهدوء الأعصاب ، ولين العريكة ، والميل لأخـذ الأمور بالحكمة ، ومعالجتها بالتي هي أحسن .

ومنذ طفولته إلى أول صباه ، كان قد أخذ مع أخيه رمضان القرآن وتلقى العلم في زاويتي المحجوب والزروق ، وحين صار شاباً يافعاً تزوج بفتاة رائعة الجمال أصيلة الأسرة والوجاهة اسمها (أم السعد) بنت (الحاج محمد بن سليمان) من رأس علي ورزق منها حواء وعبد الرحمن توفيا صغيرين ، ثم أنجبت له بعدهما ولداً ذكراً وهو الحاج الشيباني أحمد السويحلي المتقدم ذكره ، وليس له من الذكور غيره ، وكان أحمد في أول حياته قائماً كوالده وأخويه ، بأعمالهم الفلاحية والزراعية في البر والحضر .

ولم تكن أسباب ترشيحه للحكم راجعة إلى أخلاقه المرضية فحسب ، بـل لأنه في حياة رمضان كان ألزم له من ظله أينما كان ، وقرينه في معـــارك القتـــال ، وفي أوقات السلم ، فاكتسب بذلك خبرة واسعة ، في الأوضاع السياسية والاجتماعية ، فكان معه بحادثة عين كعام ، وبسجن طرابلس ورودس ، وشاركه جهاداً في معارك الهاني والرميلة وقصر بوهادي ، وبعد القرضابية ألقى عليه الطليان القبض فوراً ، ونفي إلى سركوزة انتقاماً ،



صورة أحمد بك السويحلي شقيق رمضان السويحلي
وخليفته في حكم وقيادة البلاد

من انتكاس رمضان على جيش مياني .

وبعد أن سرح من المنفى سنة ١٩١٨ م وعاد للوطن ، استأنف كالسابق جهاده مع أخيه ، فحضر إلى جانبه في سواني بن آدم ، مفاوضات الصلح وصدور القانون الأساسي ، وكان أحد الأعيان الثمانية ، الذين انتخبوا الوالي ، أعضاء للحكومة الوطنية حسب شروط الصلح ، ثم استقال من هذه العضوية لمراوغة الطليان بتنفيذ ما جاء في القانون الأساسي .

ولما تسلم زمام الأمور بمصراته ، استبقى كل شيء في الحكومة على ما كان عليه من الأوضاع العامة بزمن أخيه ، غير أنه في إدارته وأحكامه ، نظراً لحلمه وهدوء طبعه ، لم يكن متمشياً فيها بالحزم وقوة الشخصية والإرادة ، بالدرجة التي عرفها الناس في الأعمال الحازمة التي اتصف بها شقيقه رمضان .

وكان من أخلص مساعديه على القيام بواجباته الرسمية ، عمر بك بو دبوس ، الرفيق الأمين والصديق الوفي لرمضان من قبل ، وأيضاً التهامي بك قليصة ، وقد نفي بعد القرضابية مع أحمد السويحلي إلى سركوزة وسرح معه ، وكان يوفدهما دائماً ليمثلا مصراته وحليفاتها في جميع المواقف الوطنية ، التي يتفق على اتخاذها الزعماء الطرابلسيون ، وذلك جرياً على سياسة رمضان ، في التضامن الأخوي مع هؤلاء ، لتنظيم حركات الكفاح الجماعي للعدو ، والتمسك بسياسة موحدة في وجهه .

ومن المهام التي أوفدهما لها ، أنه أرسل الاثنين في نوفمبر سنة ١٩٢٠ م إلى مؤتمر غريان الذي انعقد للمصالحة بين الزنتان والبربر ، ولما فشل أقيمت على أثره بنفس المكان ، حكومة وطنية باسم (هيئة الاصلاح المركزية) وصارا عضوين فيها أيضاً عن مصراته ، ولكن الهيئة على الرغم من وفرة أعضائها الأكفاء ، ومحاولاتها الحثيثة الاتفاق مع برقة لوحدة الصف ، فقد باءت مساعيها لهذا الغرض بخيبة الأمل ، إذ لم

تنجح مقاصدها بجعل شطري ليبيـا الشرقي والغربي تحت إمارة السيد ادريس ، إذ أن هذا مع مبايعة طرابلس له بها ، خذلها واتفق مع إيطاليا بمعاهدة الرجمة وسافر إلى مصر .

الأوضاع السيئة بعهده وتحفظ العدو :

ولقد كان عهـــد أحمد السويحلي ، مطلع الزوال لحكم أسرته ، وإيذاناً لسيطرة الطليان الكاملة على كل من طرابلس وفزان ، ففي ولايته القصيرة المقدرة كذلك بخمس سنوات (١٩٢٠ – ١٩٢٥ م) ، جـــابهته أثناءها أقسى الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، وأسوأ الأوضاع السياسية والحربية ، نتيجة لمـــا كانت تتحمله البلاد ، من أعباء كفاحها المرير لعدوها مدة أربعة عشر عاماً (١٩١١ – ١٩٢٥ م) ، وفقدهـــا في معاركه الطاحنة ، صفوة شبابها ورجالها ومعظم أسلحتهـا وعتادها ، وما عندها من مقومات الحياة .

زد على ذلك ما كان يصيبها أحياناً متوالية ، من المجاعات الكبرى لانحباس الغيث المدرار ، في مواسم الحراثة الشتوية ، المؤدي إلى جفاف التربة ، والمنعدمة به في هذه الحالة ، زراعة الحبوب الغذائية ، ونتاج الحيوانات النافعة .

ولم تكن هذه الظروف الوطنية السيئة ، التي ألمت بحكم أحمد السويحلي ، ولحق الجهات الأخرى نصيب وافر منها ، ثم لما أحدثته وفاة رمضان في النفوس من التأثيرات الكئيبة والأحزان العميقة لها ، فأضعفت معنوياتها الصمودية والجهادية ، أجل لم تكن جملة هذه الظروف السيئة ، وفشل الوحدة مع برقة ، بخافية حقائقها على عدو البلاد الطليان ، فاعتبرهـــا أنها جاءت كلها في صالح أغراضه الاستعمارية ، وممهدة لإعادة سيطرته

على البلاد السيطرة القوية التامة ، وعلى ضوء ما توصل إليه من هـذه الأخبار والمعلومات السارة له أخذ يرسم الخطط ويعد الجيوش العرمرمة ، لاسترجاع ما فقده من المواقع ، قبل القرضابية وما بعدها .

التخلص من خليفة بن عسكر :

ولما رأى أنه لن يظفر بنجاح مخططاته الجديدة إلا بعد أن يتخلص من عدوه الثاني الألد بعد رمضان ، ألا وهو خليفة بن عسكر بطل الجبل الغربي وزعيم البربر ، استغل الطليان أحداث الفتنة التي جرت بين أبناء عنصره وبين الزنتان والرجبان ، فخدعه الجنرال غرسياني ، قيل بواسطة أحد شيوخ العلم والسياسة الكبار ، يحترمه ويثق به خليفة ، بأن إيطاليا عفت عن ماضيه معها ، وستسلمه هو ورجاله أسلحة كافية ليحموا أنفسهم من الزنتان ، فلما صدق الكلام واطمأن للوساطة ، اجتمع هو ورجاله بغرسياني في أرض الوطية .

وكان غرسياني قد تحصل سراً من قبل ، على أمر من والي طرابلس بالقبض عليه ، فلما جاءه بتلك الخدعة ، وهو يحسب أن الطليان سيكونون عند شرف كلمتهم بالعفو عنه ، غدر به غرسياني بالكيفية الآتية ، التي شرحها في كتابه نحو فزان (بصفحتي ٨٧ و٨٩) قائلاً بهذا الخصوص ما نصه :

« لم يكن من السهل خداع رجل حذق فن الخبث والمكر ، مثل هذا الرجل ، وكان نجاح هذا الأمر يتوقف على مراعاة السرية المطلقة ، وقد احتفظت بهذا السر لم أبح به لأحد ، ولم أطلع أحداً على ما فكرت فيه . وبينما كان رجال الجيش الملكي ، يقومون بالقبض على صغار الزعماء في فناء الحصن ، كنت استبقي خليفة وحده وأقف

أمامه وجهاً لوجه ، في حجرة صغيرة من حجرات الحصن ، القائمة على طرف أحد الأقبية .

ولقد حدث نتيجة لتوافق القدر العجيب ، أن وقع في الحجرة المجاورة في تلك اللحظة السقف بأكمله ، وكان من الممكن أن ينقض علينا نحن الاثنين ، لو كنا على مسافة خطوة خارج هذا القبو .

ولقد ساعدت الضجة التي حدثت من جراء سقوط السقف ، على دخول جنود (الكارابنيري) كما كان مقرراً ، فمد ابن عسكر إليهم ذراعيه بحركة لاشعورية ، لأنه كان يحس بخطاياه التي اقترفها ، وقد أخذ في ذلك اليوم (٢٨ مايو سنة ١٩٢٢ م) إلى طرابلس ، حيث أودع سجن القلعة ، رهن المحاكمة » وبهذا الغدر قد حكم عليه بعد ذلك بالإعدام ونفذ فيه شنقاً بمدينة الزاوية الغربية :

ثم يقول غرسياني : « وهكذا اختفى من ميدان الغرب السحيق ، رجل شديد الخطر من أمثال رمضان الشتيوي ، وبدا إذ ذاك أن خاتمة الزعيمين ، كان لا بد أن تبدأ في طرفي الإقليم ، كما لو أن ذلك تنبأ بما سينزل بهما من عقاب » والمؤلف يقول تعليقاً على هذا التعبير السخيف ، ترى لو أن بطلين من إيطاليا كانا قد حاربا بشجاعة فذة غزاتهم النمساويين والفرنسيين ثم أعدمهم هؤلاء فهل كان غرسياني يعتبر إعدامهما عقاباً لهما لدفاعهما عن وطنهما ضد النمسا وفرنسا (١) ؟

ومن غرائب الاتفاق ، أنه كما كان رمضان معادياً في آخر أيامه

---

(١) المعروف تاريخياً في أوائل العصر الحديث ، أن شمال ايطاليا الشرقي كان محتلا من قبل النمسا وشمالها الغربي خضع لحكم فرنسا أيام نابليون .

لعبد النبي بالخير ، بسبب علاقته بالطليان ضد وطنه ، كذلك كان خليفة بن عسكر ، معادياً ليوسف خريبيش بسبب كونه ألف جيشاً مرتزقاً حارب به العرب الطرابلسيين في صفوف عدوهم ، ويقول عنهما غرسياني بهذه المناسبة في (صفحة ٨٩) ما نصه : « وفي ذلك اليوم تهلل (خريبيش) فرحاً لهذا الانتقام الذي حل بخصمه ، وزاد في التفاني في خدمتنا » ويعني باليوم هو تاريخ القبض على خليفة بن عسكر في الوطيـــة ، وفي موضوع سابق قال في (صفحة ٨٦) : « كان خريبيش مأمون الجانب بقدر ما كان خليفة بن عسكر ، رجلاً لا يؤمن جانبه وموضع الريبة والشك » .

حملة ڤولبي بقصر حمد :

وبزوال ذينك الفارسين العظيمين من الوجود ، اللذين كانا بجهادهما العنيف المتواصل ، يكبلان العدو في إنجاز مشروعاته الاستعمارية بأرضها المقدسة ، لم يبق أمامه بعدهما من يخشى منه ، أن يؤلب الشعب الطرابلسي على قتاله ، وإثارة حماسه الملتهب لتحرير أرضه .

وفي أثناء تعلق الزعماء الباقين بخيوط العنكبوت ، لإنقاذ البلاد بوحدتهم مع برقة ، وخيبة وفدهم المرسل إلى روما ، للمطالبة بمنحهم شيئاً من حقوقهم الوطنية ، داهمهم جيشها الضخم الجرار ، وقـــد خلا له الجو من قاهريه بالقرضابية ونالوت ، فصار تنفيذاً لخطة زحف العودة ، يكتسح قرى الجبل والبلدان الساحلية جهة بعد جهة موقعاً بعد موقع آخر ،ذلك أنه لم يجد في طريقه تلك المقاومات الباسلة ، التي عرفهـــا في المجاهدين من قبل ، نظراً للأسباب الاجتماعية والنفسية ، التي أشرنا إليهـــا في مقدمة بحثنا عن الأوضاع السيئة في البلاد وانتهازات العدو لها .

وكان مما له صلة وثيقة بهذا الزحف العسكري العام ، أنــه في يونيو سنة

١٩٢١ م تعين الكونت فلبي والياً على طرابلس، فأحدث قدومه اتجاهاً جديداً ، لتنفيذ السياسة الإيطالية الاستعمارية ، فقد رأى وحقق فيما يلي رأيه ، أنه إذا أمكن لدولته أن تستعيد احتلال مصراته ، بعد أن اختفى منها زعيمها القوي الصلب ، تستطيع عقب ذلك أن تمد زحفها حتى تالوت ومنها جنوباً إلى فزان ، وبهذا الاكتساح تتم لها السيطرة الأكيدة علىكل جزء من أرض طرابلس وفزان.

وبما أن الاشتراكيين في ايطاليا ، الذين نوهنا عن مبادئهم غير المحبذة للاستعمار ، ما زالوا أقوياء في البرلمان ، ويعارضون الإعادة لاحتلال طرابلس بالقوة ، لذلك أخذ الكونت فولبي احتلال قصر حمد بمصراته على مسئوليته الشخصية سراً .

ذلك أنه تبنى برنامجاً عسكرياً ، يقوم على العمل باستعادة المواقع، التي كانت ايطاليا تحتلها بميناء قصر حمد بمصراته ، قبل الحرب العالمية الأولى ، للضرورة الحربية الهامة ، باعتبارها ذات تأثيرات سياسية وحربية عامة ، ولعلمه أن حكومة روما قد تعارض فكرته بهذا الاحتلال بسبب الاشتراكيين ، تولى الإعداد لحملة الاحتلال على مسئوليته ، بما كان متوفراً لديه في الولاية ، من القوات والمهمات ، وأحاط توجيه الحملة إلى مصراته بسرية دقيقة وحذر .

وفي [1] الساعة السادسة صباحاً من يوم ٢٥ يناير سنة ١٩٢٢م، تلقت القوات الأمر بركوب القطع البحرية المعدة للحملة ، وكانت تتكون من باخرتين لنقل الجنود ، وسبع قطع بحرية بين زوارق وطربيدات ، وتبلغ القوة في جملتها ١٨٠٠ مسلح ، وأربع قطع مدفعية ، و١٤ مدفع رشاش .

وأسندت قيادة الحملة إلى (الكولونيل بتساري) ، وحرص الكونت فلبي

---

(١) راجع كتاب (معجم معارك الجهاد في ليبيا)من صفحة (٤١٨ إلى ٤١٩) للأستاذ المؤرخ الليبي خليفة التليسي ، وهذا الكتاب من مصادر المؤلف الهامة .

على حضور الحملة بنفسه ، فقام باحتجاز الباخرة (برازيل) ، العاملة على الخط البحري (طرابلس - سركوزة) ، وسخرها لأغراض الحملة ، واتخذ منها هو وأعضاء مكتبه والقيادة العسكرية ، مقراً لإدارة عمليات النزول والإشراف عليه .

وقد تجمعت القطع البحرية عند الساعة الخامسة صباحاً يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٢٢ م في مياه مصراته البحرية، واتخذت مواقعها في مواجهة الساحل، الممتد بين سيدي أبو شعيفة ورأس الزروق (ويعرف أيضاً برأس البرج) وباشرت على الفور عملية النزول الذي اقتصر في البداية ، على أفراد الشرطة الذين بادروا إلى احتلال الحصن الايطالي القديم .

وحاول فولبي أثناء ذلك أن يلجأ إلى الخدعة السياسية ، فوجه رسالة إلى القادة بمصراته وترهونة ، يشعرهم فيها بأن الهدف من النزول ، سوف يكون قاصراً على إقامة نقطة بحرية وتسهيل عمليات المبادلة التجارية » .

التصدي الفوري للحملة :

وما كاد جنود الحملة تطأ أقدامهم الأرض بقصر حمـــد ، ويشاهدهم أقرب الناس إليهم ، حتى بادروا بإخطار الحكومة بالمواطنين هاتفياً ، وبواسطة طبول الحرب ، وأناشيد الفروسية والقتال المعروفة باسم (المهاجاة) ، وسرعان ما انتشر خبرهم بقرى مصراته كلها ، وامتد شمالاً إلى زليتن وما وراءها، وجنوباً إلى سرت وما وراءها .

وكان أعجل القادمين إلى الجهاد قبيلة الرملة ، بزعامة شيخها (علي الأسطى) وعلى أثره أخذ البائعون أنفسهم لله والوطن ، يتسربون لقصر حمد من كل ناحية وصوب ، ويوم ٢٦ يناير بالتصادف ، كان أحمد بك السويحلي رئيس البلاد وقائد جيشها العام متغيباً في سرت للتفاوض في مسألة وطنية هامة ،مع صالح الاطيوش

شيخ قبيلة المغاربة بالنوفلية .

ونظراً للحرج الذي اعترض الحملات المجاهـــدة للعدو ، من عدم وجود مسئول في الجبهة يتولى قيادتها ، انبرى ساداً هذا الفراغ مؤقتاً ، الشيخ البطل علي الأسطى ، واندفع به المجاهدون مباغتين الطليان بالهجوم العنيف والنيران الكثيفة ، قبل أن يتمكن من حفر خنادقه ومباشرة تحصيناته .

والتحم الطرفان بصراع دموي خانق ، وشعرت قيـادة العدو بسطوة المجاهدين على جنودها ، فانهالت على جوانب سيدي أبي شعيفة قنابل الأسطول تدوي كالصواعق ، ومع هذا فإن العدو لضراوة المهـاجمين له ، اضطر آخر النهار أن ينخذل بالارتداد إلى ميناء نزوله مذعوراً .

الفصل الثاني والثلاثون

ظهور البطل المغوار سعدون السويحلي (١)

وبينما كانت هذه الحوادث الدامية جارية ، يقدر الله في ساعاتها العصيبة ، أن يظهر من آل الشتيوي السويحلي ، بطل آخر كان فذاً أيضاً بين أنداده المحاربين ، ولو أن رجولته اكتملت سناً في وقت أسبق ، لربما فاق أخاه رمضان ، شجاعة وفروسية وحسن قيادة ، ذلك هو محمد سعدون السويحلي ، أصغر أبناء الشتيوي من زوجه الشهمة (منى) ، وقد ولد سنة ١٣١٥ ﻫ الموافقة لسنة ١٨٩٣ م ومن أوصافه البدنية أنه لم يكن جسيماً ولا ذا بشرة ناصعة البياض كأبيه وأخويه رمضان وأحمد بل كان نحيل الجسم قليلاً ، ولكنه قوي البنية وذو قامة طويلة ، يعلو وجهه الجميل سمار عربي خفيف ، وفي عينه اليسرى حول ، ومن الناحية النفسية كان ذا شخصية تستدعي الاحترام والتقدير له ، وكان قوي الإرادة صلب العود ، شجاع القلب والضرب ، مضيافاً سخياً ، يميل للحياة الشعبية .

---

(١) معلومات هذا الفصل ، مستقاة ، عن الأشخاص السويحليين المتقدم ذكرهم (الشيباني والفيتوري) وعن المجاهدين المرحومين (السنوسي الضراط — محمود القذافي الملقب بالماني) وعن المجاهد ابراهيم شينبه وهو لا يزال (١٩٧٣) حياً ، وكان هؤلاء الثلاثة ضباطاً بقيادة سعدون ، ثم من مراجع أخرى متنوعة مكتوبة ومسموعة .

وفي أوائل طفولته وصباه ، أخذ نصيباً من القرآن في كتاب قريته ، ثم انتقل إلى زاوية المحجوب ، فتحصل فيها على قسط من العلوم العربية والدينية ، وبعد ذلك وجهه أخواه للقيام بالأعمال الفلاحية ، بسوانيهم داخل البلاد وللحراثة البرية وتربية الحيوان .

وبحكم اقتنائهم للخيل بمراعي البادية شتاء ، مارس بأرضها ركوبها والمباراة عليها بالسباق مع أنداده ، فأكسبه ذلك فروسية ممتازة ، كما برع ببندقيته وتمريناته بها ، على إصابة مرمى الأهداف ، بطلقة واحدة أو اثنتين .

وقد تزوج ثلاث مرات ، فأخذ في الأولى ، الفتاة الغادة (حواء بنت الحاج محمد الحاج علي) ، وبعد وفاتها أخذ إحدى قريباته في النسب العائلي ، وكانت لا تقل عن سابقتها جمالاً وصفاء بشرة ، وهي الفتاة (فاطمة بنت البطل الشهيد عمر شقلوف) ورزق منها طفلين ولد وبنت ماتا صغراً ، وفي المرة الثالثة تزوج امرأة سمراء أنجبت له ولداً اسمه سالم ، وهو المسبوق ذكره لمناسبة مطالبته بإرثه من والده .

وفي أول الغزو الإيطالي ، كان من متطوعي مصراته في معركة شارع الشط ، واشترك في وطنه بقتال الطليان ، عند نزولهم بقصر حمد وفي معركة الرميلة ، ولما انكسرت حملة مياني في القرضابية ، لانقلاب العرب بقيادة رمضان عليها ، فانتقاماً منه ألقى الطليان القبض ، على كل من أخويه أحمد وسعدون ، وعلى كثير من أهالي مصراته ومنهم التهامي قليصة ، ونفوا أسرى إلى سركوزه ، ثم أطلق سراحه سنة ١٩١٨ م لمناسبة تبادل الأسرى في صلح سواني بنيادم .

وكان سعدون بعد رجوعه من الأسر تواقاً لمحاربة الطليان والفتك بهم بلا رحمة جزاء لما ناله في سجنهم إياه ثلاث سنوات ، من عذاب وكدر وإهانة ، وبعد أن توفي شقيقه رمضان ، أتاحت له الأقدار أن

يقابلهم وجهاً لوجه ، في نزولهم الثاني بقصر حمد ، وقد مر بنا أنه على أثر اغتيال رمضان بورفلة ، قد حاول أن يعيد الكرة بغزو بني وليد ، أخذاً بثأر أخيه من عبد النبي ، ولكن حصافة أحمد بـك السويحلي وحنكته ونصائح عقـــلاء المجاهدين ، منعته من أن يزيد في النار اشتعـالاً .

فزعته لمجاهدي قصر حمد :

ولما صار أخوه أحمد حاكماً لمصراته ، كان سعدون يقوم بشئون الأسرة أيام السلم ، وتراه في طليعة الفدائيين الفرسان إذا نودي للحرب ، يدلنا على هذا أنه يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٢٢ م ، بينما المجاهدون للحملة في آخر النهار يترقبون بفارغ الصبر ، أن تصلهم النجدات للتعويض عمـــا فقدوه من الشهداء ، وإذا هم قبل المغرب ، يرون غارة الله جدت إليهم مسرعة ، بفزعة البطل سعدون وليد الحرب والكفاح ، ومقارعـة بيض الصفاح ، فقد أدركهم بنحو ثلاثمائة (٣٠٠) فارس ، انضموا إليـه من أبناء الزاوية وما حولها ، بجميع أجهزتهم وميرتهم القتالية .

فاستقبل هو واخوانه بالتهليل والتكبير ، وارتفعت بهـــم معنويات النفوس وتوطيد عزمها على مقاومة العدو حتى هزيمتـه أو الاستشهاد ، وبعد فزعـــة سعدون أخذت النجـدات الأخرى تتسرب من مختلف الجهات ، وفي نفس تلك الليلة عقـــد برئاسة سعدون مجلس حربي في (حيشان الملايطة) ، حضره معه ضباط الجند النظامي وكبار المجاهدين ، ورؤساء المحلات ، واعتبر أثناءه سعدون بانتخاب الجميع ، قائداً عامـــاً للمجاهدين ، لـما اتصف به من الشجاعة غير المباليـة بالموت ، والحنكة والذكاء في تسيير المعارك ، ووضع الخطط لها زحفاً وانسحاباً ، كأنه

متخرج فيها بإحدى الكليات الحربية الراقية ، لا أنه موهوب لذلك بالفطرة .

وقد تجلت عبقريته بهذا الشأن ، بما اتخذه في اليوم التالي من الاجراءات الحربية ، إذ جعل الحاج علي المنقوش قائداً للجبهة ، واختار لكل محلة رئيساً كفئاً لها ، يصحبه بعض الضباط ، ممن تخرجوا في المدرسة العسكرية بمصراته ، لتنظيم حركة المتطوعين الجهادية ، وترتيب الصفوف الحربية ، بالأجنحة اليمنى واليسرى والقلب ، وغير ذلك من الأمور والمهمات الضرورية .

عنف الملاحم ومعركة السبت :

وفي خلال ثمانية أيام من نزول الحملة ومجابهتها بقيادة سعدون ، جرت بين الطرفين عدة مصادمات ، كان من أبرزها الواقعة التي جرت في (حيشان دكران) يوم ٤ فبراير سنة ١٩٢٢ م ، فقد كان نازلاً فيها فريق من المجاهدين ، وفي إحدى الليالي بإخبارية جاسوس عنهم للطليان ، فوجئوا بجنود من الأحباش ، تهجم عليهم بالسلاح الأبيض ، فتلازم المجاهدون معهم بنوع السلاح ، وبعد أن استشهد من هؤلاء عدد من الرجال ، تمكنوا من دحر الأحباش ، وخشي العدو أن يهجم العرب على مراكزه في سيدي أبي شعيفة ، بعد أن استعدوا لهذا الغرض ، فقطعوا خطوط مواصلاته للانتقام ، وللانتقام منه لواقعة دكيران ، فحماية لجنده في أبي شعيفة منهم ، أخذت قنابل أسطوله تواصل قصفها فوق رؤوسهم ، ولكنها لم تفلح في إبعادهم عن هدفهم .

ولما يئس العدو من بقائه حبيساً بالميناء وما حولها ، أراد أن ينهي موقفه في قصر حمد مع العرب مرة واحدة ، فأحضر جنداً كثيفاً ومعدات

حربية ضخمة ، وأرسى تجاه الشاطىء بعضاً من قطع أسطوله ، وكانت خطته من ذلك أن يسحق بها الذين أمامه من قوات سعدون ، ثم يمضي بعدها لاحتلال المواطين .

على أن القائد سعدون وأركان حربه ، كانوا بعد حادثة ٤ فبراير على حذر ويقظة منه ليلاً ونهاراً ، وكان مما يصلهم عن أخباره ، ومما يرون من تحركاته النشطة ، قد تأكدوا أنه يعمل لاصطدام خطير بهم ، فإزاء هذه الطوارىء لم يتوانوا في الاستعدادات الكبيرة للقائد ، بجلب الأسلحة واستدعاء النجدات من مصراته وغيرها ، وتوفير المؤن ، وإخلاء تلك المنطقة من غير المحاربين .

وفي فجر يوم السبت (١٣ جمادى الثانية سنة ١٣٤٠ هـ و١١ فبراير سنة ١٩٢٢م) أي بعد سبعة عشر (١٧) يوماً، من تاريخ النزول للحملة في ٢٦ يناير ، تحقق ذاك الحذر برؤية البصر ، ففي يوم السبت المذكور ، خرج الجند الإيطالي من معقله في قصر حمد ، وهو منتشر في الجبهة كالجراد ، وأخذ يزحف غرباً محاذياً طريق المواطين ، متجهاً إلى خطوط المجاهدين الرئيسية ، تعززه وتحميه قنابل الأسطول المنهالة مشتعلة على المقاومين البواسل له .

واندفع سعدون واخوانه الأشاوس نحو العدو ، هاجمين عليه بالتكبير والأرازيج الحماسية [1] (يا موزر رن ، أوقاتك جن) ، في صراع هائل قريب الشبه بيوم الرميلة ، وكان مما فاجأهم به من الأسلحة الآلية الفتاكة ، ثلاث سيارات مصفحة بمدافعها ، وحمي وطيس المعركة بدوي القنابل وأزيز

---

(١) الموزر نوع من البنادق الحربية لها خزان فشك ، والمعنى أيتها البندقية الموزر رني بطلقاتك النارية نحو العدو فاليوم جاء وقتك لهذا العمل ، وكانت الأرجوزة شائعة بين مجاهدي طرابلس .

البنادق ، ودخان البارود والحرائق ، وتساقطت الأنفس قتلى وجرحى ، وكان سعدون بجولاته بين الصفوف المجاهدة ، يشجع على الثبات والإقدام في سبيل الله والوطن ، ويلقي للمحلات المناضلة ، بما يلزم من الأوامر والإرشادات ، وقد بذلت هذه المحلات من البسالة الفدائية ، لدرجة أنها أسرت من العدو إحدى مصفحاته ولاذت الأخريان بالفرار متقهقرة .

وارتاع الطليان من تهافت العرب في قتالهم على الموت ، وعدم مبالاتهم بالحياة ، فإذا هم مع العصر أخذوا يولون وجوههم فارين نحو حصونهم بقصر حمد ، متكبدين خسائر في الأرواح والأسلحة لا تحصى عدداً ، كما فقد المجاهدون من أخوانهم نحو مائتين وستين (٢٦٠) شهيداً .

وغاية ما توصل إليه العدو ، من نجاح نتيجة لهذه المعركة ، هو أنه تمكن بها من إقامة تحصيناته المنيعة بمصراته البحرية ، واستقراره فيها بلا حرب مع العرب مدة عام وشهرين ، ولم يجرأ أثناء ذلك من الخوف ، على الزحف غرباً مرة ثانية ، وبذلك وافقت الحكومة الايطالية بروما ، الكونت فلبي على حملته هذه ، لأنه جعلها بها أمام الأمر الواقع .

كما أن سعدون اكتفى برصد عدوه في مكانه ، لعدم توفر ما لديه بعد المعركة من الإمكانات الحربية والبشرية ، ما يستطيع بها زحزحته عن مراكزه إلى البحر ، لا سيما وان الجهات الأخرى المتحالفة مع مصراته معرضة مثلها لعدوانه فلا يجوز له أن يسحب منها قواتها الدفاعية .

احتلال قصر حمد وأثره :

ومن التطورات السياسية الهامة ، التي حصلت في البلاد نتيجة لنزول الطليان ، بقصر حمد يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٢٢ م أنه ما كاد ينتشر خبره

في أنحاء طرابلس ، حتى حسب زعماؤها هذا النزول ، نقضاً صريحاً منـه لصلح سواني بنيادم ، وإلغاء لما جاء في القانون الأساسي ، الذي من شروطه أن لا يتعرض الطليان أو يتدخل في شيء ، من الأمور الخاصة بالحكم الوطني المحلي .

وليرد أبناء البلاد فعلاً لا قولاً ، على إخلاله بشرف تعهداته الرسمية ، أعادوا حربهم له بكل ضراوة وبسالة ، من الزاوية الغربيـــة شمالاً إلى ترهونة جنوباً ، ولما أحس باشتداد ثورتهم عليه ، لجأ كعادته إلى استعمال الخداع والتضليل فدعا الزعماء إلى هدنة ثانية ، للنظر أثناءها في الأسباب التي أدت إلى استئناف الحرب . والعمل لإيجاد قاعدة للتفاهم حول ذلك .

واتفق الطرفان مبدئياً على قبول رأي مصراته في الهدنة ، إذ هي التي وقع عليها الاعتداء ، المخالف لشروط الصلح ، ومن حقها أن تجعل كلمتها هي الواجب أن يؤخذ بها سلباً أو إيجاباً ، ولاستطلاع رأيها في هذا الموضوع ، أرسل لهـا بحراً مندوب عربي وهو الأستـاذ عثمان القيزاني ، ومندوب إيطالي (البروفوسير مارتينو) فتحصلا منها على قبول الهدنة لمدة شهر .

وكان سعدون أعلن للقيزاني ، ارتيابه في نيات العدو من هذه الهدنة ، وحذره من غدره إذا ما رجع مع صاحبه الايطالي ، فعمل القيزاني بنصحه وذهب إلى طرابلس براً ، وفي مارس سنة ١٩٢٢ جرت المفاوضات للهدنة وما يتصل بها بفندق الشريف (ويقال له أيضاً فندق بن غشير) ويقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو ثلاثين كيلو متراً .

وقد حضر المؤتمر الكثير من الزعماء العرب والشخصيات الإيطالية ، وكان من أعضائه عن مصراته أحمد بك السويحلي والمجاهـد الكبير عمر أبو دبوس وعن طرابلس السيد عثمان القيزاني وخالد بك القرقني ، وعن

الطليان وكيل الوالي فلبي ، وأحد الاقتصاديين الكبار المسمى (بيلا") ، وفي يوم ١٠ ابريـل سنة ١٩٢٢م انتهى المؤتمر بالفشل لسببين أولهما أن الطرابلسيين على الرغم من أن البروقاويين غير متجاوبين معهم بمسألة اتحاد القطرين ، فإنهم أثناء المفاوضة ، قد أصروا على الطليان أن يعترف لهم باتحاد القطرين وثانيهما أن المندوبين الايطاليين رفضوا هذا الطلب بكل تصلب واستياء .

وكان الطرفان يستعدان سراً للحرب لثقتهما بخيبة المفاوضة قبل ظهور فشلها ، ولذلك أثناءها ذهب الكونت فلبي إلى روما ، فأطلع حكومته على موقف العرب المتدهور معنوياً ومادياً ، وان حالتهم السيئة هذه تعتبر الفرصة الملائمة للشروع في عمليات السيطرة عليهم ، وقد رجع فلبي من روما حاملاً موافقتها ، على أنه لا تفاهم معهم ، إلا حين تستعيد ايطاليا استيلاءها التام على جميع الأراضي التي كانت أخذتها حوالي سنة ١٩١٤م .

ولما أبلغ العدو اتجاهاته السياسية الجديدة نحوهم ، فضلوا الموت عن بكرة أبيهم في سبيل العزة والكرامة ، عن البقاء تحته أذلاء مستعبدين ، ووطدوا العزم على أن يثبتوا له ، في جهادهم الفدائي الأخير ، بأنهم لن يدعوه يجتاز ترابهم المقدس بسلام وأمان ، وإن كان متفوقاً عليهم في كل شيء من القوى البشرية والحربية .

وربطاً للحوادث السابقة بالتالية ، في هذا التحول السياسي الجديد من ايطاليا ، فإنها بعد أن تخلصت من البطل خليفة بن عسكر ، فتنفيذاً لمخططها الاكتساحي العام ، زحفت جيوشها بقيادة غرسياني على الجبل الغربي ، وفي مدة خمسة أشهر وهي من ١٢ يونيه إلى ١٣ اكتوبر سنة ١٩٢٢ ، استطاعت أن تحتله وتخضعه تماماً من نالوت غرباً إلى يفرن شرقاً وتوابعهما ، ولكنها قبل أن تنجح باحتلال الجبل ، فقد التحمت مع قبائـــل الصيعان وابناء تيجي

والجوش وشكوك بمعارك دموية رهيبة جعلوا انتصارها عليهم باهظـاً فيما أزهقوه من جنودها ، ثم تصدى لها الرجبان والزنتان بقيادة الحاج محمد بك فكيني ، بقتال رائع الفداء بطولي اللقاء ، وكبدوا غرسياني في تقدمـــه أفدح الخسائر في الأرواح ومعدات السلاح ، كما استشهد من رجالهم البواسل خلق كثير ، ثم انحدروا جنوباً عن قوات العدو ، هم وعائلاتهم إلى معاطن الصحراء الخصبة .

الفصل الثالث والثلاثون

اكتساحات العدو شمالي طرابلس وكفاحه

وإذ تم للعدو في الجبل نجاحه في الجزء الأول من مخططه الاكتساحي التفت بعده لاتمام جزئه الثاني في شمال وجنوب طرابلس ، وحضر لهذا الغرض ثلاثة جيوش كبرى أحدها في تاجوراء بقيادة الكولونيل (بتساري) ووجهته اكتساح الجنوب الساحلي ، وثانيها بقيادة الكولونيل (بيللي) وكان معسكراً بها في سواني قرجي وفندق التوغار ، ووجهته ترهونة وما حولها ، وثالثها كان في زوارة بقيادة غرسياني ويسانده يوسف خريبيش بجنوده المرتزقة ، ومهمتها اكتساح عدة مناطق .

ثم إن هذه الجيوش لكي تفتت مقاومات المجاهدين لها ، وتضطرهم لتوزيع أنفسهم على أكثر من جبهتين أمام العدو ، هجم عليهم في شمال طرابلس ، بتواريخ متقاربة الأيام والمواقع بجيشي غرسياني وبيللي ، ففي ما بين (٢٢ أبريل وأول مايو سنة ١٩٢٢ م ، تمكن لضخامة قواتـــه ،

من الاستيلاء ، على كل من الزاوية وجنزور والعزيزية وبن غشير ، وفي أثناء زحفه هذا تصدى له المجاهدون بالكفاح الرجولي الباسل وألحقوا بجنوده اعظم التضحيات بالنفوس والأفراد والجرحى والخسائر الكبيرة في العتاد ، كما انتقل إلى رحمة الله في هذه المجابهات الفدائية الكثير من الشهداء .

وبعد ذلك اتخذ المجاهدون لهم مقرات بأراضي كور وأبي عرقوب ، وما حوله من المراكز البرية(١) ، وعندما احتل غرسياني جبل غريان يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٢ م ، نزح منه إلى اخوانهم في كور وبو عرقوب ، كل من مختار كعبار وعون سوف وعبد الله تمسكت ورفاقهم المناضلين ، ولكن هؤلاء بعدما داهمهم العدو فيها ، جلوا عنها إلى مصراته هم وأسرهم ، وفي طريقهم كان الطليان قد توجه إلى ترهونة ، فبادر الكثير من أهاليها وفي مقدمتهم (أحمد بك المريض) لتركها ، وتلاقوا هم والأولون مع بعضهم في السير جنوباً ، ورحب بهم سعدون وانزلهم في أخصب البقاع من أراضي مصراته الجنوبية ، ثم انضم كل من عون وتمسكت إلى سعدون واشتركوا معه في كفاح العدو .

وما كاد أحمد بك المريض يغادر ترهونة مع أفراد أسرته ، حتى دخلها يوم ٦ يناير سنة ١٩٢٣ م الجيش الإيطالي بقيادة غرسياني ، ومعه خريبيش بمرتزقته الأوباش ، ولم يتورع هؤلاء الأسافل جميعاً ، من اجتراح كل عمل

---

(١) كور من أراضي غريان الكائنة في جنوبه الشرقي ، وأبو عرقوب تقع في النواحي الأربعة ويجاورها بقاع عباظة والسائح وبشرغان .

غاشم دنيء مع من بقي فيها ، من الشيوخ والنسوة والأطفال ، الذين أقعدهم بؤسهم وعجزهم عن الفرار من وجوههم ، وكأنهم بذلك ينتقمون منهم للطليان ، على مشاركة أبنائهم الأبطال لرمضان في معركة القرضابية ، ثم على ما ألحقوه به بعدها من أفدح الخسائر البشرية ، في معارك البويرات وحين احتلالهم الأخير لترهونة .

ويقول غرسياني في كتابه نحو فزان (ص ١٧١ و ١٧٣) ، لمناسبة استيلائه على ترهونة ما نصه : (وهكذا سقطت ترهونة ، بعد أن أحاطت بها من الغرب والجنوب والشرق الآلايات (الفرق) ، التي جاءت إليها بسرعة الريح .. وكانت مركزاً عسكرياً وأدبياً للثوار والحمى الذي كانت تخرج منه وتعود إليه صفوف الثوار ، والتي كان المريض بعد رمضان الشتيوي يحلم مدة من الزمن بإقامة أمارة له[1] فيها » ، ثم يقول « ولقد انسحب جانب من رجال ترهونة المسلحين إلى مصراته في أثر المريض ، أما المريض فإنه بقي هو وكبار زعماء ترهونة في مصراته حتى تم احتلالنا لبني وليد ثم ترك القتال وانسحب إلى مصر .

وعندما وصلت إلى سعدون وهو في مصراته ، أنباء احتلالات العدو

---

(١) والواقع أن أحمد بك المريض ، بمناقبه الفاضلة وأصالته الكريمة كان في ترهونة أميراً لها غير متوج حسب العرف الدولي ، ولكنه كان كالأمير منزلة واعتباراً لدى شعب ترهونة ، وفي تقدير مكانته الرسمية لدى تركيا وإيطاليا ، وكفاه شرفاً واحتراماً من أبناء وزعماء وطنه جميعاً ، أنهم جعلوه العضو الأول في مجلس إدارة الجمهورية والرئيس الرسمي لحزب الاصلاح الوطني ، بينما جعل رمضان رئيس شرف للحزب ومع ان رمضان قتل ابن حفيد آل المريض فإن أحمد بك المريض لم يحمل في قلبه أي غل لرمضان بل أخلص له الود في سبيل القضية الوطنية .



صورة المجاهد الكبير ، مختار بك كعبار ، زعيم غريان ، وأمين مالية الجمهورية ، وكان في العهد التركي ، أحد نواب ليبيا عن طرابلس في مجلس المبعثان (النواب) العثماني وكان يعتبر من رجالات البلاد المثقفين ثقافة عالية

للجبل وغريان وشمال طرابلس من الزاوية إلى النواحي الأربعة توقع أن زحفه العام الكاسح وقد لاحت له فيه ، انتصاراته الحاسمة على العرب، لضعف مقاوماتهم أمام جحافله وأسلحته ، فإنــه لا يلبث كثيراً حتى يمتد زحفه على البقاع السويحلية ، التي طالما تمنى أن يذيقها العذاب المر وألوان الانتقام ، جزاء ما فعلت به من الكوارث الدموية لجنـــده ، والحط من سمعته الحربية بين الدول غرباً وشرقاً .

وقد دفعت حوادث الاكتساح سعدون ، أن يجمع لها أقصى ما يستطيع جمعه من الجند والرجال البواسل ، والشبان المـدربين على حمل السلاح ، ويتحلون بأوصاف الشجاعة والتضحية ، وضم إليهم نصف القوة المرابطة بقصر حمد ، واستجلب من مخزن الذخائر بسيدي عبد الرءوف ، البعض من المدافع والرشاشات ، وغيرها من اللوازم الحربية .

وفيما كان يجهز نفسه للقاء العصيب ، كان العدو قد عبأ جيشين للجهات الشرقية ، وأحدهما الذي يتولاه من قبل غرسياني ، واتجه به نحو مسلاته قبل أن يأخذ ترهونة ، والثاني بقيادة (الكولونيل بتساري) ، وفيه قسم من مرتزقة خريبيش ، خرج به من تاجوراء ناوياً الجهـات الشرقية الساحلية .

الكفاح الباسل لقماطة :

ولما وصل أرض القره بوللي يوم ٢٩ يناير سنة ١٩٢٣ ، اعترضه في وادي الرمل قائمقامها الحاج محمد البَلـُّوط واخوانه المجاهدون ، مدافعين اياه بقتال حماسي شجيع ، ولكنه غلبهم بوفوة عَدده وعُدده واحتله .

وتابع (بتساري) زحفه على قصر خيار عاصمة قماطة ، وبادر قائمقامها الشيخ علي رحاب ، فأبلغ سعدون بذلك هاتفياً ، ثم تجارى أبناء قماطة البواسل شباباً وكهولاً وشيوخاً ، وبكل ما استطاعوا تناوله ، من الأسلحة النارية والبيضاء والتحموا معه يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٢٣ م ، ما بين العلوص وقصر خيار التحموا مع غزاتهم بصراع بطولي ، رائع القتال والتضحية ، وباستماتته الفدائيـة لله والوطن ، يدلك على صدق هذا الجهـاد المحاكي تماماً ليوم جندوبة ، أنه سقط فيه من أبناء قماطة الأشاوس ، أزيد من ثلاثمائة (٣٠٠) شهيد أورثوا قماطة والوطن ، بدمائهم الزكيـــة وأرواحهم الطاهرة فخراً عظيماً ومجداً خالداً ، لا تندثر ذكرياته العطرة من معــالم التاريخ الطرابلسي .

ثم ان غزارة الجند الإيطالي ومرتزقته ، مكنتهم رغم ما تكبدوه من الخسائر الجسيمة من أن يجتاحوا قماطة اجتياحاً بأخس الأفعـــال ، من اغتصاب وسلب أموال وانتزاع حُليّ النساء من آذانهن ، وقتـل الشيوخ والأطفال ولا سيما منها جرائم أولئك المرتزقة الأوغاد .

وكان سعدون قد وصل بقواته إلى أرض مسلاته الجنوبيـة ، في أول شهر فبراير سنة ١٩٢٣ م أي بعد احتلال قماطـة بيوم واحـد ، وأُخبر بانتهاء معركتها على تلك الصورة البطولية من أبنائها ، وان العدو قد استولى عليها بثمن باهظ من جيشه ، وأصاب هذا الخبر سعدون ورفـاقه كـدراً عظيماً ، لعدم اشتراكهم بنجدتهم في هذا الصراع البـاسل ، واشتد حزنهم وألمهم ، على ما فقدوا في المعركة من وفرة الشهـداء الاعزاء ، وكان السبب في تأخر سعدون عن الوصول لقماطة قبل القتال أو أثناءه يرجع إلى أنه لم ينذر بمجيء العدو في وقت متسع ، ولعدم استكمــاله بعد تحضير استعداداته لذلك .

ولما علم أن (بتساري) خرج بجيشه من قماطة يريد القصبات عاصمة مسلاته ، أسرع فبعث بمن يدافع عنها من جهة الغرب ، قبل أن يصل إليها غرسياني ، ثم تقدم هو بجميع قواته إلى النقازة أو السلحيبة ، وكمن فيها بواد قرب مبيت العدو في طريقه لمسلاته .

الفصل الرابع والثلاثون

البطل سعدون واقسى ملاحم المقاومة

وقبل طلوع الفجر باغته سعدون بقواته ، صاباً عليه نيران أسلحته كالمطر الوابل ، فارتبك العدو من تأثير الهجوم المباغت عليـــه ، ولم يستطع أن يتمالك جأشه إلا بعد فترة ساعات ، إذ توهم بذلك أن العرب المتصدين له أفواج كبيرة ، لا انهم مئات دون الألف ، ولكن الواحد منهم في إقدامه وتضحيته بنفسه في سبيل أرضه يعد بعشرة من جند العدو ، ولهذه التأثيرات الفكرية عليه ، ارتـــد عن موقفه إلى الوراء تاركاً خلفه من العجلة طائفـة من الغنائم المتنوعة اكتبسها منه المجاهدون .

وإذ فطن إلى تفوقه العسكري الضخم عن رجال سعدون ، ولـّى إليهم بهجوم كثيف غائظ ، وناضلوه ببسالة إلى أن استشهد أغلبهم ، وفي الحقيقة أن سعدون لم يكن قصده من مهاجمة العدو في النقـازة أن يتغلب عليه بأعداده القليلة بالنسبة لفرق (بتساري) ، إذ بصفته

قائداً موهوبــاً أصبـح مدركاً أن مصير البلاد بات سيئاً ، بعدمـــا استنزفت الحروب الماضية طوال اثنتي عشرة سنة طاقاتها النضالية ، بينما تنهال على عدوها من وطنه كل ما يحتاج إليه لاستمرار قتاله ها هنا من جند وعتاد ومؤن ، وإنما غاية سعدون من قتــاله في النقازة أو السلحيبة كان يهدف إلى إعاقة العدو عن احتلال القصبات مركز مسلاته ريثما يتمكن أهاليها من الجلاء بأرزاقهم وأمتعتهم منها ، والنزوح بأسرهم عنهـــا إلى أراضي البـــادية الجنوبية ، صونــاً لكرامتهم وشرفهم من جرائم العدو ومرتزقته ، وبعدما أخبر سعدون باتمام الجلاء ، والنزوح ، انسحب فوراً هو ورجاله من النقازة ، إلى مكان جنوب مسلاته يسمى القطارة ، وفي يوم ٤ يناير سنة ١٩٢٣ م احتلت مدينة القصبات .

واتخذ سعدون القطارة مركزاً لقيادته ، وانضم إليه فيهـــا عبد الله تمسكت بجنوده ، ثم عقد به ومن ضباط ورؤساء المحلات مجلساً ، تداولوا أثناءه بالوضع الحربي العام ، على ضوء المعارك الماضية ، وما ينتظر حصوله منها مستقبلاً ، وتدارسوا خطط العمل الحربي المقبل وأهدافه ، وانتهوا من المجلس بأن صارت لديهم قناعة ، خلاصتها انه بعدما اقترب أن ينفذ عتادهم وذخائرهم ، وتضاءل المحاربون الأكفاء لكثرة مـــا استشهد منهم ، وغير ذلك من الأمور المتأزمة في البلاد ، لم تعد لديهم والحالة هـذه ، إمكانات مشجعة على إيقاف الاجتيـاح المتدفق للعدو كما كان الأمر منذ سنوات .

وبناء على ذلك جعلوا الهدف من خططهم الجديدة ، هو تأخير تقدم زحفه ، بأعنف ما يستطاع من المقاومات ، وفي نفس الوقت إنذار جميع المدن والقرى المتعرضة لهجومه الكاسح ، بأن تنتهز فرصة إعاقة زحفه عليها ، فتسرع باخلاء منازلها مما تستطيع نقله ، من أشياء وأمتعة ومؤن ،

والجلاء بها مع الأسر إلى البادية النائية ، المتوفر فيها معاطن الماء والأرض الخصبة ، ريثما يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

الهدف من الحمام وكعام :

وأكثر ما كان يشغل بال سعدون ، من تعرضاته للعدو بعد سقوط قماطة ومسلاته ، هو خوفه من أن يتواصل زحفه إلى زليتن ومصراته قبل أن يتسع لهما الوقت الكافي بإجلاء السكان ، وإخلائها من طريقه الأشياء الهامة الضرورية لنزوحها ، وترجع أسباب هذا الخوف **أولاً** لأنهما تعتبران أكبر منطقتين في جنوب طرابلس ، عامرتين بالخلق الكثير والحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وإمكاناتهما الإمدادية لمستلزمات المقاومة **وثانياً** لأن العدو متلهف أن يأخذهما ومما بهذا العمران ، ليتمتع جنوده وأوباشه فيهما بآثامهم الجنسية وليغنموا منهما ، اسلاب الذهب والفضة ، وبكل ما يقع تحت أيديهم من المقتنيات النفيسة .

إذ كان قادتهم ليتشجعوا في قتال المجاهدين ، قد أغروهم بأنهم إذا دخلوهما سيبيحون لهم أن يفعلوا فيهما ما يريدون ، وأن يستبسلوا لأخذهما قبل فرار سكانهما بخيراتهم وعائلاتهم فيجدونهما عندئذ فارغتين ، مما يسر الأعين وتشتهي الأنفس ، وكان سعدون واخوانه ، يرون لو تحققت لهم نياتهم هذه الشريرة في مدينتي الأسمر والزروق لا قدر الله ، لحلت فيهما أسوأ فاجعة أخلاقية وإنسانية .

وإحباطاً لهذه الأماني الإجرامية للعدو ، وطد سعدون وأركان حربه العزم على ملاقاته لإعاقته عنهما في ذينك الموقعين ، وبالتضحية الجهادية الصادقة ، والمبايعة على الموت في سبيل الله ، وصون الأعراض والكرامة ، سوف لن يجد فيهما غير المنازل الخاوية ، والطرقات الصامتة .

وكان الموقع الأول للتصدي ، يقال له رأس الحمام (بتشديد الميم)، وهو مكان مرتفع يطل على مدينة الخمس من الناحية الشرقية ، وتولى القيادة فيه عبدالله تمسكت على ثمانمائة (٨٠٠) مجاهد بطل ، مصحوباً ببعض المدافع الثقيلة والرشاشة ، وكانت قوة بتساري بعد النقازة تستريح في الخمس استعداداً لزحفها جنوباً .

وخير ما نثبت به تاريخياً عنف ما لقيته الجيوش الزاحفة شرقاً ، من كفاح المجاهدين المرير لإعاقة تقدمها ، في المكان المذكور ثم من بعده في وادي كعام ، هو أن نترك الكتاب العظيم (معجم معارك الجهاد في ليبيا) تعريب وتعليق الأستاذ خليفة التلسي ، يصف لنا ذلك بنفس الألفاظ المترجمة عن الأصل الايطالي الرسمي إذ الفضل ما شهدت به الأعداء ، وإن كان هؤلاء قلما يذكرون خسائرهم الحربية وإن ذكروها فهي دائماً أو غالباً عشرات دون المائة ، ويهوّلون من خسارة العرب .

ففي صفحة ٢٣٨ قال عن المقاومة الأولى للزحف ما نصه : « وقد تحركت هذه القوات يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٢٣ م من الخمس نحو رأس الحمام ، في طريقها إلى زليتن فتصدت لها قوات من المجاهدين تقدر بحوالي ثمانمائة مجاهد، تحصنت بذلك الموقع الاستراتيجي (الحربي) الهام ، ونشبت هناك معركة مريرة ، تعتبر من أهم المعارك التي خاضها المجاهدون في الدفاع عن زليتن ، وتعترف المصادر بأهمية الموقع الذي كان يحتله المجاهدون ، الذين لم يستطيعوا الاستفادة منه حتى النهاية ، لنقص العدو وضعف العُدة ، فاضطروا بعد معركة طاحنة إلى الانسحاب عنه ، محتاطين بذلك محاولة تطويقهم ، وتقول المصادر الايطالية أنه قد استشهد من المجاهدين ما يقرب من مائة » .

والتطويق المذكور الذي أجبر الفدائيين على الانسحاب من رأس الحمام

مع نقصان الذخيرة ، هو اتجاه حملة غرسياني نحوهم ، من القطارة جنوب مسلاته فانحدروا جنوباً ملتحقين بسعدون الذي كان في وادي مـاجر ، وأدرك الجميع أن الحملة بعد تخلصها من معركة رأس الحمـــام سوف تتابع سيرها نحو زليتن فنظموا أنفسهم للتصدي لها مرة أخرى في مكان ملائم لمقاتليها وقد صح تخمينهم فإنها استأنفت الزحف شرقاً ، وكانت متألفة من ٣٠٠٠ بندقية و٣٠٠ فارس وأربع قطع مدفعية ، وبينما هي تسير ببطء وحذر مخترقة ساحل آل حامد ، متغلبة على المناوشات القوية من رجاله وشبابه البواسل ، الذين كانوا يعترضون سيرها ، وقـد أبعدوا أسرهم ومقتنياتهم من طريقها ، وكان المجاهدون بقيـــادة سعدون ، كامنين لهم في وادي عين كعام .

وفي هذا الوادي تجلت أصدق الآيات في تسابق المجاهدين على الاستشهاد ، فخوض النار عندهم ولا العار ، والفناء النبيل ولا البقاء الذليل ، وامتلأوا ثقة بأنفسهم في هذا التصدي ، أنهم رغم قلتهم ونقصان ذخائرهم ، لمستطيعون إيقاف زحف العدو ، أربع أو خمس ساعات ، ريثما تخلى زليتن تمامـاً في وجهه البغيض .

وتمركزوا له على طول الحافة الشرقية من عين كعام ، وما كاد جند العدو يطل عليها فجراً من الجهة الغربية ، بعدما بات ليلته قربها في الساحل ، حتى فوجىء بنيران الأسلحة الخفيفة وبعض الثقيلة تحصد مقدمته وتمتد مراميها إلى مؤخرته ، واندفع هو بجموعه إلى وسط الوادي ، يريـــد تحصينات المقاومين له ، عندئذ اشتدت بينهما الملحمة الرهيبة ، وتعاظمت خسائر العدو البشرية لأنه صار مكشوفاً لهم عياناً في قلب الوادي ، بينما كان المجاهدون الفدائيون يفتكون به خلف معـاقلهم ، وكان أسطوله يتابع سير الحملة قرب الشواطىء ، فلما اشتد عليها ضغط المجاهدين في القتال ، أشار (بتساري) إليه بقصف تحصينات وهجومات المقاومة ففعل ، وصارت قذائفـه تدك

أمكنتهم المتصمين بها دكاً متواصلاً ، كما اشترك معه أيضاً في العمـل طياراتهم بقذائفها من الجو ، فاضطر الفدائيون للنزول إلى مصارعة العدو ، متلاحمين معه برصاص البنادق والسلاح الأبيض ، وإذ رأوا تناقص عددهم بالاستشهاد وذخيرة سلاحهم بالاستعمال لها ، وتفوق خصمهم عنهم في كل شيء تسلل بهم سعدون في طريقه ، بين سواني زليتن نحو وادي ماجر ، وتقدم العدو إلى الشرق .

وعن هذه المعركة البطولية للفدائيين ، يقول معجم المعارك المسبوق ذكرها في صفحته (٥١٥) ما يأتي بالنص : « وشهد هذا الموقع (أي وادي كعام) معركة حامية يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٢٣ ، أثناء زحف القوات الايطالية على زليتن ، وكان المجاهدون قد أقاموا تحصينات قوية على الضفة اليمنى للوادي ، ولم تستطع القوة الإيطاليـــة أن تشق طريقها إلى شرقيه ، إلا بعد معركة عنيفة ، أبدى فيها المجاهدون مقاومة شديدة ، واستخدم فيها الإيطاليون الطيران والقطع البحرية ، المصاحبة للحملة الساحلية ، التي قادها في ذلك الوقت الكولونيل (بتساري) منطلقاً من قواعـد في تاجوراء » .

سقوط زليتن ومصراته وجلاء حكومتها :

وبانتهاء الحملة في وادي كعام من قتالها على هذه الكيفية الداميـة ، تابع بتساري تقدمه إلى أن دخل زليتن ، وطاشت أحلام العدو السارة فيها إذ لم يصادف بأرضها حتى مواشي للذبح والأكل ، وهكذا بتضحيات أولئك الفتية والرجال الأشاوس ، في النقازة ورأس الحمام ووادي كعام ، أتاحوا لمواطنيهم الظفر بأرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، والنجاة بها بعيداً قبل أن تتناولها الأيدي الآثمة .

وحين أصابه الكبت النفسي العظيم ، بفراغ زليتن أمامه من كل شيء ، وتخلصها من موبقاته وشروره ، امتلأ قلبه عليها بنزوات الانتقام منها ، إذ رغم تفتيشه أحياءها ودورها ، لم يعثر فيها على أدنى ما ينعم به نفسياً وبدنياً ، وإذ عجز عن اقتفاء أثر ناسها في البر لكي يشفي غليل الانتقام منهم ، صار يلاحقهم جواً بقذائف طائراته ورشاشاتها .

وتأييداً لما نقول فأنت واجد أيضاً عنه في معجم المعارك صفحة ٢٦٥ ، تاريخ وكيفية دخوله لزليتن ومظاهر ردود الفعل الغضوب لضياع أحلامه فيها ، فذكر بهذا الخصوص ما نصه : (ودخلت قوات (بتساري) زليتن يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٢٣ م ، فوجدتها خالية من سكانها ، وقد قامت الطائرات الإيطالية أثناء الحملة بـ ٣٢ غارة جوية ، ألقت فيها القنابل على المجاهدين والأهالي ، ولاحقتهم بمدافعها الرشاشة) .

ونحن نقول لئن كان ضرب المجاهدين من الطائرات معقولاً ، بصفتهم رجالاً محاربين لهم ، فضرب الأهالي العزل من السلاح بالمثل ، وهم شيوخ وعجائز ونساء وأطفال ، إن هو إلا انتقام وحشي وغِلّ دفين ، لتفويتهم عليه بهذا الفرار ما كان يشتهي الوصول إليه عندهم من أسلاب وآثام .

وكان سعدون بعد أن ترك وادي كعام ، ارتد بجنده إلى وادي ماجر موقعه الأول غرب زليتن ، وبادر فأبلغ أخاه أحمد بك حاكم مصراته ، بضرورة جلائهم السريع مع الحكومة والأهالي عنها ، كما طلب من الحاج علي المنقوش القائد لجبهة قصر حمد ، التعجيل بإخلائها والانتقال إلى برية عبد الرءوف ، والواقع أن حكومة مصراته منذ ما كانت المعارك دائرة في رأس الحمام ، أخذت في مصراته بأمر أحمد بك تتنازح عنها ليلاً ونهاراً ، ناقلين معهم كل ما استطاعوا أخذه من أشيائهم وأرزاقهم ثم تبعتهم الحكومة واستقروا جميعاً بصفة مؤقتة في مكان بالبادية يسمى (اسيوطة) ، يبعد عن

مصراته جنوباً (٣٠) كيلومتراً تقريباً .

وكان جيش غرسياني أثناء معركة وادي كمام تحرك نحو وادي ماجر بقواته المؤلفة من (٣٥٠٠) مسلح و (٣٥٠) فارساً وأربع قطع مدفعية ، قادماً من (الداوُون) بأرض ترهونة لأمرين أولهما مساندة لقوات (بنساري) من الشمال الغربي وثانيهما لتطويق المجاهدين في وادي ماجر ، وبعدما سقطت زليتن لم يتمكن غرسياني من تطويقهم ، فانسحبوا فوراً إلى عبد الرءوف ، حيث توجد فيه ذخائر وأسلحة وبذلك الانسحاب نحو عبد الرءوف ، خلى طريق مصراته أمام العدو من المقاومات له .

فبعد أن استراح في زليتن نحو ثلاثة أيام ، تابع زحفه إلى مصراته فدخل عاصمتها يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٣ م ، الساعة الخامسة والنصف مساء وقد وجدها وما حولها ، وحتى القرى المتباعدة عنها ، قد نزح عنها السكان كأهل زليتن تماماً ، وفارغة من كل شيء ، ما عدا طائفة اليهود ، ويعلق غرسياني في نحو فزان (ص ١٨٥) على احتلالها ، بعبارة تنم على روح التشفي من هذا البلد البطل ، الذي طالما ألحق بايطاليا أفدح الكوارث قائلا : « وهكذا سقطت مصراته أكبر مركز من مراكز نشاط الثوار ، ودعايتهم السياسية ، ومقر أركان حرب الزعيم رمضان الشتيوي ، والمقر الرسمي للجمهورية » .

وارتحال جميع الأهالي في المناطق الساحلية هرباً من العدو إلى أراضي مصراته الجنوبية الخصبة ، والمتوفر فيها معاطن الماء ، كونوا فيها حياة جديدة ، تحت الخيام والزرائب والأكواخ والمغائر ، وكان بعضها معزولاً عن أحياء الأسر والعائلات ، متخذة أسواقاً تجارية للسلع ، وبيع الحيوانات والأسلحة ، وممارسة الحرف والصناعات التقليدية .

وكانت منازل أهل مصراته وما جاورها (بوادي نفد) ، ومنازل القادمين

من شمال طرابلس وهم المحاميد برئاسة سوف وبعض أعيان الزاوية الغربية ، وترهونـــة ، منازلهم كانت (بوادي سفجين) ، ولم تستقر الأسر الفقـــيرة في تلك الأمكنة الخلوية ، إلا بعد أن تحملت أثناء نزوحهـا من مشاق السير حافية في الأرض الشائكة وعلى الحصى الناخس للأقدام ، مع ثقل ما ترفع فوق رأسها وعلى ظهرها ، ما لا يتحمله عادة إلا أرباب العزم القوي والصبر الطويل .

الفصل الخامس والثلاثون

معركة المشرك واستشهاد البطل سعدون

وأما سعدون فإنه قد اتخذ مكان قيادته بجهة تسمى (أم عرفج) ، ووضح فيه كل ما لديه من أسلحة وذخائر ، وانضم إليه كثير من البلدان المختلفة النواحي ، بعد أن اطمأنوا على راحة أسرهم في المحلات المذكورة .

وكانت أم عرفج تبعد عن تاورغا بنحو (١٥) كيلومتراً ، وترجع أهمية هذا الموقع إلى أنه مناسب لحماية اللاجئين ، في مناطق نفد وسوف الجين ، لترصد حركات العدو في مصراته ، فضلاً عن أن تاورغا الشجاعة المناضلة ، كانت قادرة إلى حد ما ، على إسعاف اللاجئين والمجاهدين ، بمنتوجاتها الزراعية والحيوانية ، ومد العائلات ببعض الحاجيات المنزلية .

وجاءت الأخبار للطليان بمصراته ، أن سعدون تمركز قريباً إلى تاورغا ويتوارد عليه المجاهدون ، وينظم نفسه لمواصلة حربهم ، فاشغل هذا النبأ بال العدو واهتم له كثيراً ومن عادة الجبان الرعديد أن يعيش

أيام حياته تخوفاً من خصمه الشجاع المخاطر بنفسه ، حتى لو كان هو متفوق عنه ، في كل شيء من ضخامة الجيوش ومعدات القتال .

وتحت تأثير ما أصابه من العرب ، في مقاوماتهم الأخيرة له ، من الخسائر الكبيرة المتنوعة ، رغم ضآلة عددهم وعددهم ، لهذه الأسباب بقي نحو شهرين في مصراته (من ٢٦ فبراير إلى نهاية ابريل سنة ١٩٢٣ م) يهيىء نفسه للقيام بتحرك آخر حاسم قوي ، ليقضي به على سعدون وجيشه قضاء مبرماً ، وما داموا في حالة إعياء شديد وعوز للعتاد والميرة .

ولم يخف على سعدون ما يبيته له العدو ، ولتوقعه مكره وغدره في أية لحظة ، أخذ يبعث بدورياته الاستكشافية عنه ، إلى جهة تاورغا وأطرافها ، وقد صح ما توقعه فلأهمية تاورغا أيضاً لدى العدو بالنسبة لحماية مصراته من الشرق ، وقربها إلى معسكر المجاهدين ، زحف عليها بأول يوم من شهر مايو ، وعندما رأى أبناؤها تقدمه نحو بلدتهم ، تجاروا فتقلدوا أسلحتهم النارية والبيضاء واشتبكوا معه في قتال باسل دامٍ ، ما كان يحسب أن يجده من هؤلاء الفلاحين السمر ، وكان من شهدائهم الأعيان في هذا الكفاح ، المجاهد البطل (السيد خالد مدالي) ، ثم بتفوق الطليان الكبير عنهم جنداً وأجهزة ، تمكن من احتلالها في نفس اليوم المذكور .

وشعر سعدون من سقوط تاورغا بيده ، باقتراب بجيشه إليه ، فأرسل سرية من الفرسان المغاوير تستطلع تحركاتهم نحوه ، وكان بين فرسانها البطل عون سوف ، والشاب الجريء المجاهد ، ابراهيم بن رمضان السويحلي ، وبأول ظهور الصباح شاهدوا طلائع العدو تتقدم نحو سواني المشرّك ، المحاذية أرضها لأم عرفج ، وخلف طلائعه جيش ملأت كثرته سهول الجهة ، فأسرع اثنان إلى سعدون وأخبراه بما رأوا .

ومن سوء الحظ للمجاهدين ، أن سواني المشرك التي اختارها العـدو لنشوب المعركة ، لم تكن أرضها بالنسبة لهم صالحة لقتاله ، لأنها مكشوفة الوسط والجوانب ، بمعنى ليس فيها أي متقى طبيعي أو إنشائي ، لحرب المقاومة والدفاع ، فهي خالية بتاتاً من الأودية والمرتفعـات ، والأشجار والحواجز الترابية (طوابي) ، نظير ما هو موجود من هذه الأوضاع ، في رأس الحمام وعين كعام ومصراته مثلا ، ولفقدانها من هـذه المزايا الدفاعية للمقاومة ، كانت اليق ما تكون سواني المشرك ، لتصارع الجيوش الكبيرة ، المتقابلة وهي متكافئة في العدد والعدد ، لا لألف وثلاثمائـة (١٣٠٠) مجاهد تقريبا ، تنقصهم الذخيرة والأسلحة والميرة المتوفرة هذه الأشياء عند خصمهم المتدفقة عساكره عليهم .

ومع هذه الموانع فقد برز سعدون واخوانه لنضاله في الأرض الجرداء الموصوفة ولسان حال قائدهم سعدون ، وكل واحد منهم في هـذا الموقف كما قال الشاعر :

وإذا لم يكن من الموت بد : فمن العـار أن تموت جبانا

ولما وضحت لسعدون رؤية العدو ، وهو ممتط لجواده الذي طالما انقذه بجريه كالغزال الشارد ، من المخاطر في أحرج ساعات القتال ، عندئـذ أومأ لاخوانه بالهجوم الفدائي ، فاندفعوا إليه اندفـاع الليوث للفتك بفرائسها المختبلة .

وأحدث هجومهم السريع المباغت، زعزعة واضطراباً في جيش الكولونيل (روجيري) الأمر الذي مكنهم من أن ينفذوا إلى قلب صفوفه بالسلاح الأبيض ، ومحاربة أطرافه الأخرى بالأسلحة النارية ، وكان سعدون يركض من جانب إلى جانب ، مشجعاً اخوانه ومشاركاً إياهم في القتال الملتحم ، ومنادياً عليهم بالصبر والثبات ومضاعفة الفداء ، ولتضعضع العدو من احتدامه

بهجومهم القوي لاحت عليه دلائل الانهزام ولكنه دفع بالمعركة احتياطيه بهجوم مضاد عنيف وعلى الرغم من ذلك فلم يحدث في صفوف المجاهدين ما كان يرجو .

ويقدر الله في هذه الأثناء ، أن جواد سعدون أصابه طلق ناري ، فهوى على الأرض نافقاً ، وبادر اخوانه فقدموا له جواداً آخر ، وبينما كان يهم بركوبه أصابت سعدون من الأعداء ثلاث عيارات نارية ، اخترقت رأسه وصدره ورجله ، فسقط على أثرها شهيداً ، كما أصيب معه في تلك اللحظة واستشهد ، ضابط الرشاش الذي كان بجواره ، وهو البطـــل سالم مسعود الشـُّرفي المعَداني .

وما كاد المجاهدون يرون سقوط سعدون وروحه الطاهرة فائضة إلى ربها ، ويسمع بذلك اخوانه المتباعدون عنه وهم يقاتـلون ، حتى رانت على قلوبهم الأحزان المبرحة والكآبة الشديدة ، والتأثر البالغ حد الذهول ، لعظم هذه الكارثة المفاجئة ، ثم لعدم التعيين من قبل لوكيل عنـــه ، يتولى أمر قيادتهم بعده ، اضطروا للتراجع من المعركة عن موقفهم المتقدم .

وانتهز العدو ظاهرة الارتباك التي جرت لهم أمامـــه وانسحابهم فاعتبر المعركة منتهية في صالحه وتأييداً معززاً لما تناولناه من الشرح لظروف وكارثة المعركة بسواني المشرّك ، نسوق فيما يلي ما شهد بـه العدو فيها للعرب من الشجاعة الفائقة ، وما قدر به من آيات البطولة لقائدهم سعدون ، فقد جاء بمعجم المعارك (صفحـة ٢٨٨ و ٢٨٩) قوله نصاً : « وتعترف المصادر الإيطالية الرسميـة ، بسيطرة المجاهدين على الموقف في بداية المعركة ، بأن القوات الإيطالية قد وجدت نفسها ، في المرحلة الأولى للمعركة في وضع مرهق محفوف بالخطر ، ولم يفلح الهجوم

المضاد الذي قامت به القوات الإيطالية ، في السيطرة على الموقف إلا بعد أن سقط سعدون قائد المحلة فتشتت الشمل وكانت الغلبة للقوة » .

ويستمر الكتاب قائلاً : « ولكن المصادر الإيطالية ، لا تملك إلا أن تعترف لهذا القائد بشجاعته فسجل رسمياً (أنه قد قام بمهاجمة قواتنا بعنف غير عادي وبشجاعة كانت نادرة حقاً) وتقدر هذه المصادر عدد الشهداء الذين سقطوا في هذه المعركة بحوالي مائة وخمسين (١٥٠) شهيداً ، وكان في طليعتهم القائد سعدون السويحلي ، الذي عرفته المعارك ، وخبر الإيطاليون من بلائه ، ما دفعهم إلى الاعتراف له بالبطولة النادرة ، والشجاعة الفائقة ، طبقاً لما يقضي به شرف العمل العسكري الحربي ، من تقدير للخصم واحلاله منزلته الحقيقية الجديرة به عند سقوطه في المعركة » انتهى .

ويوم المعركة لاشتداد قتالها وفظاعة دمائها بالنسبة للطليان ، وانشغال العرب بكارثتهم في سعدون ، ذهل الطرفان فتركا أرض المعركة من غير أن يسحبا منها قتلاهما ، وفي اليوم الثاني أرسل أحمد بك السويحلي بعض المجاهدين ومعهم جمل فاحضروا له جثمان سعدون ، ولم يجدوا قربه جثة (سالم مسعود الشرفي) ، إذ كان الطليان وقد بلغهم استشهاد سعدون ، بعثوا سراً من يأتيهم به ، وغلط الذين أرسلوهم فأحضروا لهم جثمان سالم مسعود الشرفي ، لمماثلته لسعدون في القامة والزي العسكري واللون ، وشعر الرأس المسترسل قليلاً إلى الوراء ، كالعادة التقليدية للفرسان القدامى ، لدرجة أن شعر سالم كان يغطي وجهه وهو جثة ولم يميزوه بهذه الحالة عن سعدون فأخذوه ، ومن غرائب الاتفاق أو كما يقول الحريري في مقاماته ، قد تقع الأمور على التواتر كما يقع الحافر على الحافر ، أن هذه المشابهة بين سعدون وسالم الشرفي ، حصلت من قبل لأخيه رمضان عندما قتل هو وصديقه الهلولي الزليتني في بني وليد فإنه لمماثلته لرمضان في بياض البشرة وهيئة الجسم

واللباس الوطني ، لما عرض على عبد النبي رأسه باعتباره رأس رمضان أنكره لاكتشافه وجود كي في صدغه ورمضان ليس في رأسه كي .

وبعد أن جاءوا بسعدون لأخيه ، ارتحل كل النازحين هم وعائلاتهم من وادي نفد ووادي سوفجين إلى السدادة ، وهي إحدى مناطق ورفلة الجنوبية ، وفي ناحية من هذه الأرض ، دفن الشهيد سعدون بالتحية الوداعية له ، أداها له لفيف من الأبطال و كبار الفرسان المجاهدين من اخوانه ، و كان من بين هؤلاء الفارس المقدام الشهير عون بك سوف المحمودي .

وكما كان الناس العامة من فرط اعجابهم واكبارهم شخصية رمضان السويحلي ، فظلوا بضعة سنين كما يقول غرسياني لا يصدقون موته ، كذلك فإنهم أخـذوا يشيعون ، أن من يمر في السدادة ليلا بالقرب من ضريح الشهيد سعدون ، يرى خارجا منه نور وهاج يتلألأ في دجى الليل .

الفصل السادس والثلاثون

قيادة البطل ابراهيم السويحلي للمجاهدين

أسباب اختياره محل عمه :

وبعد قراءة الفاتحة على روح الشهيد سعدون ، رجع مشيعوه إلى أماكن إقامتهم ، ثم عقدوا اجتماعاً تداولوا فيه ،من سيخلف سعدون في قيادة المجاهدين ، عن جدارة واستحقاق لها ، وفي بادىء الأمر اختلفت الآراء ، حول الشخص القوي الذي يستأهلها ، في هذه الظروف البالغة أقصى حدود الحرج والخطورة.

وانتهى الاجتماع بالاتفاق ، على انتخاب الشاب البطل ، إبراهيم بن رمضان السويحلي ، قائداً عاماً للمجاهدين ، خلفاً لعمه سعدون ، إذ على الرغم من كونه لا يزال يافعاً دون العشرين ، فقد أثبت لياقته الكفؤة لهذا المنصب الحربي الهام ، بما أظهره من الفروسية المغوارة ، والكفاح البطولي الرائع ، في عدة معارك خاضها بجانب عمه الراحل .

ومنها مثلاً اشتراكه في قصر حمد ، بمعركة يوم السبت الدموية الرهيبة ، ثم

أخيراً في سواني المشرّك ، إذ أثناءها خرج أولاً ، في طليعة المستكشفين لزحف العدو ، وبالتالي خاض غمارها فدائياً باسلاً ، بكيفية لم تخطر على بال أحد ، أن تصدر منه هذه الشجاعة في سنه الحدثة .

ومن هنا يبدو أن اختياره ، ليتبوأ هذا المنصب القيادي ، كان عن دراية تامة لرجولته الحقة في ساحات الوغى ، وتمحيص دقيق لسجاياه الكريمة ، والناس المصراتيون عدا اشتراطهم أن تتوفر في خليفة سعدون أدلة البطولة ، يريدونه أيضاً لميول عاطفية أو قبلية ، لينقاد له جهادياً الكبير والصغير ، أن يكون أيضاً من أسرة فاضلة وعظيمة ، لا تضارعها أخرى فيما قدمت للوطن من خدمات وتضحيات ، ولسوف نرى منه ما يجعلنا نقول حقاً أن هذا الشبل من ذاك الأسد .

نشأته الأولى وسر بطولته :

وقد ولد حوالي سنة ١٩٠٧ م ، وأمه هي السيدة فاطمة بنت الحاج خليل السويحلي ، أحد أعيان يدّر المشهورين ، ومن أقرباء أسرة الشتيوي في النسب ، وكانت أوصافه البدنية والفطرية ، كأوصاف والده تقريباً ، فهو أيضاً تام في تكوينه الجسدي ، وذو بشرة بيضاء ناصعة ، وينم محياه عن الشجاعة والرجولة المبكرة ، وقوة الإرادة وصلابة العود ، وترفعه عن النقائص الأخلاقية .

وفي طفولته تلقى في زاوية المحجوب نصيباً من القرآن ومبادىء الدين ، ثم أدخله والده في المدرسة (١) التي أسسها نوري باشا في المواطين ، على النظام الحديث حين جاء بالغواصة سنة ١٩١٦م ، واتصاله برمضان بعد القرضابية ، وكان من أساتذته فيها العالم الجليل الشيخ عمر الميساوي ، وهو من

---

(١) عن الشيباني أحمد السويحلي .

الزاوية الغربية .

وقد رباه والده على أن يأكل خبزه بعرق جبينه ، بمعنى أنه وجهه لأن يشارك فلاحي سوانيهم ، في أعمالهم الزراعية والحراثية والرعوية كأنه فرد منهم ، وكان من أثر هذا التوجيه ، أنه تخلق بروح شعبية أحبه من أجلها الناس ، وجعلته يشعر بعدم الامتياز عنهم في شيء ، واكتسب إتقان الفروسية من اعتياده في مراعي البادية ركوب الخيل ، ومن ممارسته هناك أنواع القنص تمهر بإصابة الأهداف وفن الرماية .

ومنذما تفتح وعيه بالدنيا وهو صبي وشاهد ما جره الغزو الايطالي على وطنه من ألوان الشقاء والمصائب ، وإجلاءه الناس عن ديارهم إلى الصحراء هرباً من فظائعه ، وعاين مدى الفقر والاحتياج اللذين حلا بالبلاد بسببه ، لترك الرجال خدمة الأرض تفرغاً لحرب عدو الله ، أجل منذما أدرك ورأى إبراهيم هذه الأمور السيئة في مطلع حياته ، ومعرفته حقائقها ودوافعها ، قد أرسخت في ذهنه وأحاسيسه الكراهية الدفينة والحقد العظيم للطليان ، وتمنى أن يكبر فينتقم منهم أفظع انتقام ، جزاء ما جروه على وطنه ، من إراقة الدماء البريئة ، والمصائب الكبرى في الأرواح والأموال ، وكان لهذه المشاعر القوية في نفسه ، المنشأ الأول لتحرك دماء البطولة الوراثية بين جوانحه ، وأن يكافح العدو الكفاح الصارم نظير ما كافحه به والده وعمّاه من قبل .

وتأييداً لما أشرنا إليه عن هذه الأحاسيس وأثرها عنده ، فقد قال عنه غرسياني في كتابه نحو فزان (ص ٢٧١) ما نصه : « أما الشاب إبراهيم فقد كان في صفاته الشخصية وفي حقده علينا يشبه والده إلى حد كبير » .

إعادته المقاومة العنيفة :

وفي أثناء ترشيح إبراهيم قائداً ، عقد بوادي نفد مجلس كبير ، من اعيان المجاهدين النازحين ، من شمال وجنوب طرابلس ، وقد قرر فيه تمسكاً بمبدأ الدفاع عن الوطن ، إلى آخر ما يمكن احتماله له ، أن تجدد ضد العدو حرب المقاومات ، في كل الجهات التي استرجعها بزحفه الأخير ، وتنفيذاً لهذا القرار استؤنفت في صيف سنة ١٩٢٣ ، مناوشات بين قواته وبين المجاهدين في كل من أطراف جنوب غريان وترهونة ومسلاته وزليتن ومصراته ، من قبل أبناء ورؤساء مجاهدي كل بلد فيها .

وابتدأ إبراهيم بدوره ينظم قيادته لأبناء بلده ، بما استطاع أن يوفره لهم من الأسلحة وأجهزة القتال ومهماته ، وكان من ألمع أركان حربه في قيادته هذه الفارس البطل عون سوف المحمودي .

والطليان بعد معركة سواني المشرك ، ترك تاورغا وانكمش عاقلاً نفسه في المواطين بضعة أشهر ، وأقام خارجها في زاوية المحجوب حصناً لسانية العوكلي ، يحمي به طريق مواصلاته وإمداداته مع طرابلس ، وكان فيه جنوده المرتزقة برئاسة علي الكريتلي ، وأقام حصناً آخر لنفس الغرض ، في رأس حداد أو حديد .

ولظن الكثير من العائلات ، أن انكماش العدو سيطول داخل المواطين ، وهي لم تعد تحتمل قساوة الحياة في البادية ، لهذا السبب رجعت إلى أطراف مصراته ، فسكنت قراها المتباعدة عن أمكنة العدو كالغيران وكرزاز وبورُوَيّة ، وكان رجوعها مدعاة لأن يسرع إبراهيم وإخوانه ، بمباشرة مقاوماته للعدو ، خوفاً واحتراساً من أن يتعرض لها بالغدر ، وليس أمامه من يدفع شره عنها .

وبما أن الزاوية ذات أهمية موقعيــــة أيضاً بالنسبة لناس البلاد ، ولتوسطها ومجاورتها لطائفة من تلك القرى الأهلية ، فقد صمم المجاهدون على مهاجمة العدو بسانية العوكلي ، تخلصاً منه وطمأنة للخائفين ، وقطعــاً لطريق إمداداته ، الآتية له من طرابلس .

وفي[1] يوم ٧ سبتمبر سنة ١٩٢٣ فوجىء الطليان والمرتزقــــة في سانية العوكلي بقوات المجاهدين تحيط بهم ، بقيادة إبراهيم ومساندة عون سوف ، ويصدون عنهم طريق نجداتهم من المواطين ، فأصبحوا بهــــذا التصرف محصورين تماماً أو مطوقين .

ودارت بين الطرفين مناوشات نارية غزيرة ، وانقضى اليوم الأول على هــذه الحالة ، وتحولوا إلى المحاصرين في حصن الزاوية ، فنصحوهم بالتسليم حفظاً لأرواحهم فلم يقبلوا ، وفي اليوم الثاني لبقائهم على إصرارهم بالرفض للتسليم ، ضرب المجاهدون البيت المتحصنين فيه بالمدفع ، فتصدعت جدرانه وانهار بعضها ، عندئذ رفع من فيه الراية البيضاء إشارة التسليم ، وقد كان أول من ظهر منهم الكريتلي رئيس المرتزقة وأفراد مرتزقته (باندته) ، وقد غنم المجاهدون ما كان موجوداً معهم من المهمات العسكرية .

وأخذ الكريتلي إلى مقر الحكومة بنفد ، وهناك عقدت له المحكمة الشرعية العليا ، فناقشته في دوافع خروجه عن الصف الوطني الإسلامي ، وانضمامه إلى العدو في محاربته لأبناء جنسه ودينه ، ولثبوت تهمة الخيانة العظمى في ذلك عليه أعدم شنقاً .

وكان إبراهيم في باكورة حركاته الحربية الجديدة ، عنـــد دخوله

---

(١) عن معركتي زاوية المحجوب ورأس حداد ذكرتا في كتاب معجم المعـــارك في صفحتي (٢٦٢ و٢٣٧) غير أن العدو كتم فيها خسائره كما لم يذكر إعدام الكريتلي .

لمصراته وجه قوة لمعسكر إيطالي بقيادة الكولونيل (روجيري) في رأس حداد أو حديد جنوب الغيران في نفس اليوم ٧ سبتمبر سنة ١٩٢٣ ، اشتبكت هناك معه في قتال ضار سقط فيه موتى كثيرون من العسكر ، وعدد قليل من الشهداء ، ولتفوقه عنهم جنداً وأسلحة ، اضطروا للانسحاب بانتظام ، بعد أن أشعروه بعزمهم الأكيد على مواصلة نضاله ، حتى يجلو عن أرضهم ، أو ستكون له جحيماً ومقبرة .

نتائج العوكلي المختلفة :

والانتصار الباهر الذي أحرزته المقاومة ، بتحطيمها حصن الزاوية في العوكلي وإعدام الكريتلي ، كانت بالنسبة للطرفين نتائج سلبية وإيجابية ، فمن سلبيته أو شره على العدو ، أنه انجبر به للانسحاب عن معاقله الأخرى ، وحشر نفسه داخل المواطين ، لأن المجاهدين كانوا قد سدوا عليه شرقاً جهة قصر حمد طريق إمداداته البحرية ، وغرباً باستيلائهم على منطقة الزاوية وبو روية ، وبذلك ظل إبراهيم وإخوانه محاصرين إياه مدة شهرين تقريباً ، كما حاصره من قبل رمضان السويحلي بعد القرضابية .

ومن إيجابية أو فائدة الانتصار ، في سانية العوكلي للشعب ، أنه ارتفعت به معنويات الناس لمواصلة الجهاد وتحمل أعبائه ، ونشطت حركات التطوع فازداد الإقبال على حمل السلاح للمقاومة في كل جهة ، بمظاهر حماسية كبيرة .

وانتهز ابراهيم ورؤساء المحلات ، هذه الروح العالية لدى أفراد الشعب ، المتجاوبة معه لكفاح العدو بلا هوادة ، رغم ظروفهم المعيشية الضنكة ، فأعدوا منهم نحو ٣٠٠ رجل و١٠٠ فارس ، أرسلوهم

إلى زليتن بقيادة أحد أبنائها الأبطال ، وهو المجاهد علي بجيح البطل الفيتوري ، ليقاوموا فيها بشدة العدو الذي كان قد استولى عليها بعد معركة وادي كعام .

ولما وصلوا إلى جنوبها الشرقي وتمركزوا أدرك خطرهم عليه ، وكانت مواصلات إمداداته مع طرابلس عن طريق ساحل آل حامل غير مقطوعة ، فخرج يوم ٩ اكتوبر بقوات كبيرة ليقضي عليهم ، فتلقاه المجاهدون بالأرض الكائنة شرق زليتن ، ذات المرتفع القائم فيه ضريح ولي الله (سيدي زِلِيْ) .

ودارت بينهما حوله معركة كبيرة ، استمرت عدة ساعات ، ونيرانها ملتهبة ودماؤها منسكبة ، تكبد فيها خسائر جسيمة في الأرواح وغيرها ، كما لحقت بالمجاهدين بعض الخسائر الفدائية ، ولما وجدوا أن خصمهم دفع أمامهم في المعركة جنداً آخر كثيفاً ، ارتدوا عن (سيدي زلى) ورابطوا له قريباً من (سيدي سرور) .

وفي ١٤ اكتوبر سنة ١٩٢٣م لاحقهم فيه بحملة تالية ، وتشابكوا عنده أيضاً بصراع قوي ، يحمل في طياته من المجاهدين ، دوافع الأخذ بالثأر ورغبة الانتقام عن يوم سيدي زلى ، ولكن الكثرة والاستعداد يغلبان الشجاعة ، فلما تزاعم عليهم العدو المهاجم بضخامته ، تراجعوا عنه إلى رأس الأجيبر في وادي ماجر ، وانتهى الاشتباك بأن تمكن بذلك من الاستيلاء أيضاً على هذا الموقع الحربي[1] .

---

(١) تجد الإشارة إلى معارك هذه المقاومات الفدائية الجريئة في معجم المعارك (ص ٣٠٢ و٣٠٣) .

وبموجب قرار المجلس الجهادي العام ، الذي كنا أشرنا إلى انعقاده بوادي نفد ، لتجديد محاربة العدو بأي مكان ، فإن أبناء ترهونة الفدائيين ، بقيادة المجاهد البطل عبد السلام المريض ، كذلك قاموا على العدو المحتل لمركز بلدهم يوم ٤ فبراير سنة ١٩٢٣ ، بغارات متواصلة أخلت بأمنه وأزعجت استقراره ، ولم تكن في شدتها عليه ، أقل من مثيلاتها في مصراته وزليتن .

بل إن هذه المقاومات المضادة لزحف الاسترداد الايطالي ، قد شمل تجددهـا ما بين أواخر سنة ١٩٢٢م وأوائل سنة ١٩٢٣م ، جميع الجبهات التي كان العدو احتلها في غريان وبو عرقوب والنواحي الأربعة وما يليها شرقاً ، ومما يدل على صحة هذا ، مـا جاء في كتاب نحو فزان (صفحة ١٩٠) تحت عنوان (الثوار يستأنفون الهجوم في صيف عام ١٩٢٣) وهو قوله ما يأتي بالنص ما بين قوسين :

« حدث هذا فعلاً أن قامت بين اغسطس سنة ١٩٢٣م (محلات) الثوار بين غريان وترهونة ، وبين ترهونة والقصبات ، وبين القصبات وزليتن ، وبين زليتن ومصراته ، وفي وقت واحد بهجمات حربية نحو الشمال ، وانسابت في كل مكان على خطوط مواصلاتنا الرئيسية » .

ونظراً لما أوجدته هذه الغارات ، من التهديـدات الخطيرة المنذرة بزحزحته عما استرجعه من الأراضي بجيوش (بتساري) و (غرسياني) فقد اضطر إلى إعـادة التخطيط لعملياته العسكرية ، وفقـاً للتطور الناشىء عن قيام الثورات الصيفية ، بما يقضي على إخمادها وبترهـا السريع .

وبهذا المعنى يذكر غرسياني في الصفحة المذكورة قائلاً : « وهكذا نشأ في الخمسة عشر يومـاً الثانية من شهر أغسطس ، موقف حرج

قضى بضرورة العمل ، بحزم لتخفيف ضغط الثوار ، واستئناف المبادأة في أسرع وقت ، بالقيام بالعمليات العسكرية في الجهة الجنوبية ، وذلك رغبة في التنفس عن احتلالنا » .

وكانت خطة العدو لإبادة المقاومات ، أو التنفيس عن احتلاله ، **أولا:** إبعاد فدائيي المقاومات حرباً إلى أقصى البادية الجنوبية التي كانوا لاجئين فيها ، **ثانياً:** بعد التوصل لتحقيق الخطة الأولى ، الهجوم على الفارين إلى السدادة بنة و إلزامهم بالفرار مرة ثانية إلى صحراء سرت ، ثم الهجوم على ورفلة والاستيلاء على بني وليد من الشمال والجنوب والقبض فيها على عبد النبي .

هجومات العدو لانهاء المقاومات :

وابتدأ العدو ينفذ خطته الأولى ، بالهجوم الخاطف على فدائيي ترهونة وناضلوه بشراسة في قتاله متسارعين لنيل الشهادة والفوز بجنة الرضوان ، وقبل أن يغمرهم جنده بالتطويق ، ولـّوا عن مراكزهم حول ترهونة ، يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٣ ، بعد أن أبلوا فيه البلاء الأفظع .

ولما أبعدهم عن ترهونة ، اتجه بقواته يوم ١٤ سبتمبر نحو مسلاته ، فكانت مقاومات أبنائها له حول القصبات ، برئاسة (المهدي السني) أيضاً غير ضعيفة ، كانت فدائية التضحية والإخلاص ، نظير ما راح من إخوانهم الشهداء بترهونة ، ثم مضى العدو إلى زليتن ، فجرى له فيها مع مجاهديها ، ما تقدم ذكره في **وقائع** سيدى زلـّي وسيدي سرور والأجيبر .

وفي أثناء هـذه الأحداث المتلاحقة في ارتباطاتها ، كان مجاهدو مصراته ما انفكوا يحاصرون العدو في المواطين ، فلما وصلتهم من زليتن

أخبار ، أن العدو قاصدهم فليأخذوا حذرهم ، أسرعوا حوالي ١٠ اكتوبر سنة ١٩٢٣ م فتركوا الحصار ، منسحبين إلى ناحية كرزاز ، تلك المحلة الريفية ، الواقعة شرق جنوب المواطين بأحد عشر (١١) كيلومتراً تقريباً ، ولعمرانها بالسواني الفلاحية ، والمنازل ووفرة الآبار الحلوة ، ازدحمت فيها العائلات ، التي كانت قد عادت إليها من البادية للأسباب المذكورة سابقاً .

الفصل السابع والثلاثون

معركة الكراريم الحاسمة وبطولة ابراهيم

ولم يخف على ابراهيم وعون ، أن الخصم بعد أن حطم كل المقاومات في غرب وشمال مصراته ، فإنه حتماً سيداهمهم بآلياته وجنده في أية لحظة ، فارتدوا عن حصاره إلى بئر الكراريم ، المقر الرئيسي للمجاهدين وابتدأوا يستعدون للاصطدام به ، فجمعوا له أقصى ما أمكنهم جمعه من القوات المحاربة ، وقدرت بحوالي ١٢٠٠ مجاهد و ٢٠٠ فارس ومن بعض المدافع الرشاشة .

وجعلوا خط دفاعهم الأول عند فندق الجمل ، ويقع غرب الكراريم بمسافة خمسة كيلو مترات ، وخط الدفـــاع الثاني والأهم ، جعلوه في أرض الكراريم ، وامتد طويلا بين سلسلة الكثبان الرملية ، حافرين فيه كثيراً من الخنادق [1] .

---

(١) راجع فيما يتعلق بوصف خطوط دفاع المجاهدين بالكراريم (نحو فزان ص ١٩٦) .

وفي يوم ١٣ اكتوبر سنـــة ١٩٢٣ م ، خرج (الكولونيل مِيزلـّي) من مصراته مع الفجر قاصداً فندق الجمل بحملة قوية من الجند ووسائل الحرب ، وفي الساعة ٨ ½ صباحاً اصطدم بالمجاهدين ، فجرت بينهما معركة أوليــة شديدة الصراع والفتك ، لدرجة حملت العدو ، أن يجعل طيرانه يتدخل فيها بقذائفه ، وانهالت فوق المجاهدين تحرق وتجرح وتميت .

وبسبب هذا الطارىء الجوي على المجاهدين تراجعوا وراء إلى الكراريم ، وواصل هو بعد انسحابهم من فندق الجبل تقدمه إلى خط دفاعهم الثاني وفي الكراريم تلقوه مشاة وفرساناً ، بمواجهة ذات كفاح صارم وثبات كالصخر ، لدرجة أن موقفهم هذا العنيد ، أحدث تأثيراً كبيراً في خسائره الفادحة في الأرواح ، وانحطت به المعنويات القتالية لعساكره ، إلى إن اضطر للمرة الثانية أن يستعمل طيرانه تخفيفاً لضغوط الفدائيين عليه .

وعند الظهر مما زاد في حماس المجاهدين ضراوة وعنفاً ، تشجيع ابراهيم وعون لهم بالكفاح المرير مثلهم ، وهما في المقدمة وببسالة قلما رأوا نظيرها ، وكانا يحرضان اخوانهم على التسابق بالشهادة في معركة اليوم ، حماية للأعراض والكرامة الموجودة من حولهم في كرزاز ، لكي تنجو مسرعـــة إلى البر النائي ، ولذلك هانت عليهم نفوسهم استجابة لنداء البطلين ، لا سيما وانهم قد أحسوا بتفوق العدو ، وان المعركة باتت حاسمة في صالحه ، ولقد سقط منهم في هذه الملحمة الكبرى ما يقارب ثلاثمائة ٣٠٠ شهيد ، وجرح فيهـــا كل من الفارسين المغوارين ، ابراهيم السويحلي وعون سوف ، ولقد كانت لحنكة ودراية عون الحربية ، المكتسبة بالوراثـة عن جده غومة وأبيــه سوف ، الأثر الإيجابي الحميد في إجلاء العـائلات من كرزاز بشرفها قبل أن يصلها العدو .



صورة الفارس البطل ، عون محمد سوف ، الذي أدار مع ابراهيم السويحلي معركة الكراريم الفاصلة ، وأنقذ فيها الأسر في كرزاز من وصول الجيوش الإيطالية إليها

وفي اعتقادنا أن معركة الكراريم هـذه تعتبر في تاريخ الجهاد الطرابلسي ، خامس معركة كبرى حاسمة ، بعد معارك الهاني وجندوبة والقرضابية وسواني الشرك ، وتقريراً استنادياً لما رويناه عنها بالوصف السابق ، فإننا ننقل فيما يلي بالحرف ما ذكره من وصفها (معجم معارك الجهاد في ليبيا ص ١٧٤ قال ما نصه :

« وكان فندق الجمل بمصراته من هذه المراكز الهامة ، التي تتجمع حولها قوات المجاهدين ، ولم يطمئن الأعداء إلى وجود هذه القوة جنوب مصراته ، خاصة بعد أن قامت بعض الوحدات الوطنية بالتوغل ، في المناطق المحتلة في مصراته ، وهاجمت المواقع الإيطالية في زاوية المحجوب .

ومن أجل ذلك أعدت حملة بقيادة (الكولونيل متزتي) ، واصطدمت هذه الحملة بالمجاهدين في الصباح الباكر من يوم ١٣ اكتوبر سنة ١٩٢٣ بفندق الجمل ، واضطر المجاهدون بعد معركة عنيفة ومقاومة صامدة ، للرجوع إلى مواقعهم الرئيسية في بئر الكراريم ، بعد أن استخدم العدو الطيران على نطاق واسع للسيطرة على الوضع .

ويبعد فندق الجمل عن بئر الكراريم حوالي خمسة كيلو مترات ، حيث قامت القوات الإيطالية بملاحقتهم هناك ، وتقدر قوة المجاهدين بحوالي ١٢٠٠ مجاهد من المشاة ، ومائة مجاهد من الفرسان ، مع بعض القطع المدفعية والرشاشات وتعترف المصادر الإيطالية بأن المجاهدين ، قد حسنوا التحصن في هذا الموقع الذي هاجمه العدو بقواته الكبيرة هجوماً أمامياً وخلفياً .

ونشبت من جراء ذلك معركة ضارية ، وبعد معركة عنيفة استشهد فيها حسب المصادر الايطالية نحو ٣٧٣ مجاهداً ، اضطر بقية المجاهدين إلى الانسحاب عن هذا الموقع ، بعد أن كبدوا العدو خسائر فادحة ، وبرز في

هذه المعركة اسم عون سوف ، الذي كان له فيها دور مشهور ،يذكره المجاهدون الذين حضروا المعركة ، إذ ساعد تدخله في إنقاذ الموقف ، وتأمين انسحاب أسر المجاهدين إلى المناطق الشرقية ، التي لم تكن قد وقعت حتى ذا الوقت في قبضة الاحتلال .

وقد جرح عون سوف في هذه المعركة ، كما جرح ابراهيم الشتيوي ابن رمضان الشتيوي ، وكان شاباً حدث خلف سعدون في قيادة المجاهدين » انتهى .

احتلال السدادة وانتهاء المقاومات :

والواقع أن معركة الكراريم ، قد استنزفت أكبر طاقـــات المجاهدين البشرية ، القادرة على تحمل أعباء الكفاح ، فضلاً عما سقط فيها من كثرة الشهداء والجرحى والإصابات الحيوانية ، كما استنزفت منهم أيضاً معظم كميات الأسلحة والذخائر ، المودعة في سيدي عبد الرءوف ، والتي كان يشرف عليها في هذه الآونة المجاهد الكبير عمر أبو دبوس .

وأمام هذه الخسائر العامة ، واطمئنانهم على إجلاء الأسر من كرزاز ، بعد ذلك فلم ير البطل ابراهيم وأركان حربه ، من فائدة للبقاء في مواجهة عدوهم القوي وهم على هذا الوضع السيىء،فغادروا أثر انسحابهم من المعركة الكراريم، ومضوا بظلام الليل إلى السدادة ، وكانت بعـــد المشرك قد أصبحت مقراً للحكومة الوطنية ، ومركزاً للقيادة العسكرية والسياسية ، كما انتقلت إليهـا أسر نفد وسفجنين بظاهر مساكنها وحياتها .

ومنذ ما نزل بالسدادة الزعماء الطرابلسيون وأعيان مصراته ، أخذوا يسعون بكل اهتمام ووساطة ، للمصالحة الأخوية بين ورفلة ومصراتـه ،

بعد تلك الحوادث الأسيفة الموجعـة ، التي جرت بينهما بسبب حملة رمضان على بني وليد ، أملاً في تصفية الجو وادران القلوب عنها ، ثم اتحاد البلدين بإنشاء جبهة قومية ، تعيد وفاقهما السابق في مناضلة العدو الحقيقي للوطن .

وعلى الرغم من هذه الجهود المشكورة ، فإنهـا لم تصادف قبولاً لدى الورفليين بزعامة النبي بك بالخير [1] ، فإن إيطاليا وقد علمت بها في حينها ، من عملائها الجواسيس ، فخوفاً من أن تنجح تلك المساعي ضدها فيما بعـد ، استعجلت التنفيذ لاحتلال السدادة ، ثم بني وليد ، يدلنا على ذلك ما جاء بهذا الخصوص في كتاب معجم المعارك (ص ٢٧٦) إذا قال عنها ما نصه :

« ولم يطمئن المستعمرون إلى وجود المجاهوين في هذا المركز (يقصد السدادة) ، ولم يرتاحوا إلى النشاط السياسي الذي كان يبذل في تلك المرحلة ، لتصفية الجو بين زعماء مصراته وورفلة ، في محاولة لتكوين جبهة جديدة ، في هذه المنطقة ، للتصدي للزحف الايطالي .

---

(١) لعله مما جعل عبد النبي لا يستجيب مناداة الأعيان له للمصالحـة بين ورفلة ومصراتـه وتوحيد الكلمة بينهما من جديد ، هو سوء ظن بإخلاصهم في ذلك ، هذا من جهة ، ومن جهـة أخرى اعتقاده الخاطىء أن حياده السياسي والحربي المعروفين، سيقدرهما له الطليان، فلا يحتلون منه بني وليد عسكرياً في زحف الاعادة ، ولكن هؤلاء بسبب خداعه لهم في القرضابية ومـا بعدها وسوء معاملته لأسراهم وقتله بعضهم ، لذلك فبعد أخذهم السدادة ، اقتحم عليه غرسياني بني وليد من الغرب واحتلها يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٢٣ م ، وكان عبد النبي قبـل أن يستولي عليها الطليان ، قد فر منها بأمواله وأسرته وخاصة رجاله مهاجرين الى الجزائر ، وفي صحرائها الجنوبية كما تقول (مجلة الوحدة العربية) المتقدم ذكرهـا ، مرت بهم أيام شديـدة الحر والقيظ (حـاول عبد النبي أن يقتحم بجواده الصحراء ليصل إلى المـاء فسقط ميتاً ظمآن ، كما سقط العشرات من رفاقه بالعطش ، ونفقت حيواناتهم وجيـادهم) وهكذا كانت آخرته رحمـه الله وغفر له .

فصدرت التعليمات إلى القيادة العسكرية ، بالتحرك نحو معسكر السدادة لتدميره ، وقد وضع (متزتي) الخطة على أساس المباغتة ، والهجوم التطويقي من الشرق والجنوب ، حتى يفوت على المجاهدين ، فرص التوغل في أراضي ورفلة أو النزوح إلى منطقة سرت .

وفي يوم ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣ فوجىء النازلون بالسدادة ، باقتراب الجيوش الإيطالية إليهم بقيادة (متزتي) ، ولحصول هـــذا الزحف على الحكومة والناس بغتة ، فطلباً للنجاة بأنفسهم ، تركوا كل شيء يقتنونه في محله ، وفرت النساء والأطفال والعاجزون من الشيوخ والمرضى ، هائمين في الصحراء على وجوههم .

وأما الجند والرجـــال المسلحون ، وأغلب هؤلاء ممن حضروا معركة الكراريم ، ولا يزالون بها مرهقين أو ذوي جروح طفيفة ، فقد توزعوا تحت قيادة ابراهيم ، على امتداد جبهتي العدو نحوهم ، ودارت لهم معه آخر معركة فدائية حامية النيران في تاريخ الجهاد الطرابلسي جنوباً ، وحين أدرك ابراهيم استحالة المقاومة بعدده الضئيل ، وكاد العدو يطوقه ويؤسره هو ورجاله ، ترك منهم في مشاغلته لفيفاً ممن تقدموا لهذا الفداء ، وانسل باخوانه الباقين كلمح البصر ، قاصدين تنظيم مقاومته بسرت ، كما قصدها أيضاً بعد السدادة زعماء مصراته وترهونة وغريان وغيرهم ، وعلى هذا الوصف احتلت السدادة ، وانتهت المقاومات الجادة في طرابلس .

وكان من أثر هذه المباغتة لهجوم العدو على السدادة ونجاة الناس منه بأنفسهم ، أن لحقت بالمجاهدين أفدح الخسائر ، التي لم يصابوا بمثلها من قبل ، في السلاح والذخائر والمؤن ، من ذلك على ما جـــاء في (نحو فزان ص ٢١٦) قوله : « تم الاستيلاء على ثلاث قطع من المدفعية ، وعلى مستودع صغير للمؤن والأقوات ، والمهمات من مختلف الأنواع ، وعدة آلاف من الماشية » .

ووقوع هذه الغنائم الكبيرة بيد العدو ، ناجم عن انعدام المقاومة العنيفة لزحفه على السدادة ، وعن الفارق الشاسع بين الكثافة الهائلة لجنده الغازي ، وما لديه من وسائل الحرب الفنية الحديثة ، وبين ضآلة قوات العرب الجهادية المتصدية له إذ استمرار المجاهدين كما تقدم إثني عشر عاماً على نضاله ، قد استنزفوا أثناءها جميع إمكاناتهم المادية والاجتماعية المحدودة ، ولولا أنهم كانوا مدتها يحاربونه بالكثير من نفس سلاحه ،الذي كانوا يغنمونه منه في معاركهم معه ، لما بقيوا مستمرين على نضاله حتى موقعة السدادة .

الفصل الثامن والثلاثون

الهجرة للخارج ومصير ابراهيم

وتوزع الفارون من السداده في نواحي شتى من الأراضي الجنوبيــة ، وهم في حالات يرثي لها ، من بكاء الأطفال ، وسفور المخدرات ، واضطراب الرجال وفراغهم من كل شيء ، بسبب ذلك الهجوم المبــاغت من العدو .

وقد قام نحوهم البعض من أبناء ورفلة في تلك الجهات ، بمروءة كبيرة وشهامية عالية ، يستحقون من أجلها الثناء العطر الجزيل ، إذ أسعفوهم بإبل النقل والماء والأغذية ، وبضروريات أخرى للسفر ، ثم هاجر فريــق منهم لتونس وآخر لفزان ، ومنهم فقراء لم تكن لديهم مقومات الهجرة ، فأخذوا الأمان من الطليان ، ورجعوا بأسرهم إلى جهات مختلفة من أوطانهم .

وأما القائد ابراهيم وجنوده ، وأحمد بك السويحلي ، وأعيان مصراتــه وغريان وترهونة فقد غادروا بناسهم السدادة عقب استيلاء العدو عليها يوم ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣ ، نازحين إلى منطقة سرت ، ولم تكن محتلة فأقاموا فيها بعائلاتهم مدة قليلة ريثما هدأ روعهم .

ولما بلغهم أن الطليان احتل بني وليد يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٢٣ م أي بعد أخذه السدادة بخمسة أيام ، وأنه عما قريب سيتوجه نحوهم والى فزان ، قرروا الهجرة إلى مصر وهم مرتاحو الضمائر ، بأنهم لم يلجأوا إليها إلا بعد أن كافحوا عن شرفهم وكرامتهم ووطنهم ، حتى نفد ما يملكون له من أموال ورجال قادرين على الحرب ، والتضحية له بأعز أبنائهم وأبطالهم وفرسانهم .

وعملاً بتقريرهم الهجرة ، فمن المصراتيين الذين عملوا بها ، وغادروا سرت بأسرهم متجهين عن طريق برقة إلى وادي النيل ، كان في طليعة أعيانهم أحمد بك السويحلي ، والتهامي بك قليصة ، وعمر بك أبو دبوس ، والفيتوري السويحلي ، والضابط المجاهد السنوسي الضراط ، والحاج علي الأسطى ، وبعيو بيت المال وغيرهم .

كما هاجر من سرت إلى مصر بأسرهم أيضاً ، لفيف كبير من شمال وغرب طرابلس ، ومن أشهر هؤلاء من ترهونة أحمد بك المريض والشيخ مبروك المنتصر ، والشيخ عبد الصمد النعاس ومن غريان الزعيم الوطني الكبير مختار بك كعبار ، ومن صرمان الشيخ محمد بك سوف وابنه عون بك سوف .

تشاحن ابراهيم وعمه حول الهجرة :

ولكن ابراهيم السويحلي ، كان له رأي في هذه الهجرة ، مخالف تماماً لرأي عمه أحمد ، ولم يصارحه به حتى وصل في توديعهم إلى سيدي بشر ، الواقع شمال غرب مدينة أجدابية ، عندئذ فاجأه قائلاً يا عماه يحسن بك أنت والذين معك من الرجال ، أن ترسلوا العائلات مع من يوصلهم بأمان إلى أرض الهجرة ، وترجعوا إلى سرت لنعسكر ونجتهد باستئناف المقاومة

للعدو ،عسى أن نرغمه بذلك على الاعتراف لنا رسمياً بشيء من الحقوق لصالحنا واحترامنا ، أو نموت في أرضنا شهداء في سبيل الله والوطن كغيرنا .

فرد عليه عمه أحمد بما يدل على نقصان رأيه وطيشه ، وأنه بعد كل ما جرى مع العدو ، هل لا يزال يأمل بالتغلب عليه أو يأمل منه خيراً ، وأجاب ابراهيم عمه على هذه الملاحظة منه ، بألفاظ اعتبرها أحمد انتقاصاً لوطنيته وسفاهة من ابن أخيه ، واحتدم بينهما الجدل في الموضوع ، وتعاظم حوله شجارهم المثير ، للنفوس والأعصاب غضباً وانفعالاً لدرجة هَمَّ كل منهما أن يتناول السلاح ضد الآخر .

وإذا التهامي[1] قليصة وعمر أبو دبوس وغيرهما ، قد تجاروا فتداخلوا بينهما بإبعادهما عن بعضهما ، وكان ابراهيم أثناء هذا الخصام العنيف يصحبه عدد من الجند النظامي بأسلحتهم الخفيفة وبعض الثقيلة المتوسطة ، فأنهى المسألة بأن التفت إلى عساكره قائلاً ، أيها الأخوة من كان منكم يريد الهجرة إلى مصر فليذهب مع هؤلاء ، ومن كان يريد مثلي أن يناضل عدو الله ، إلى الظفر بالاستشهاد فليتبعني ، وأدار جواده غرباً نحو سرت ، فاتبعه جميع جنوده ، وآخرون من المجاهدين الشبان العزاب ، ومضى عمه وصحبه إلى مصر .

وعندما وصل ابراهيم بقوته إلى سرت ، وجد فيها[2] أحمد ضيف النصر ، فتحالف معه ضد ايطاليا وصارا يناوشانها في وادي زمزم جنوب ورفلة ، وغنما من هناك أسلحة وأشياء متنوعة ، ولكن لم يمكثا على هذا

---

(١) حادثة تخاصم ابراهيم مع عمه رواها لي شخصياً التهامي قليصة وغيره .
(٢) عن نحو فزان (ص ٢٧٠ و ٢٧١) .

الوفاق وقتاً طويلاً ، إذا حصل بننهما شقاق بسبب إحدى الغارات .

فترك أحمد سرت لابراهيم ، وذهب فنزل بمنطقة بشر فاطمـة وأبو نجيم ، ولعلمه بدنو الزحف الإيطالي على سرت ، أسرع فتحول إلى الجُفرَة وهي : (هُون وسُوكنة وودان وزلة) .

وتحرج موقف ابراهيم لبقائه وحده في منطقة سرت ، مع قوته الضئيلة من المجاهدين الفدائيين ، دون أن يكون له حليف يسانده لمواجهة الطليان ، الذين من غير شك سيقدمون نحوه ، ويروي غرسياني في كتابه (ص٢٧٠) أن ابراهيم وهو في هذا الموقف العصيب راسلهم للمفاوضة ، وقد يكونون هم الذين راسلوه خدعة ، لبينما يتمكنون من مباغتته هناك ، والغدر به ، كما هي عادتهم المألوفة في حروبهم الاستعمارية .

وفعلاً فقد جاءه الخبر بأن الطليان ، قد وصلوا في زحفهم شرقاً إلى بيرات الحسون ، الكائنة غرب سرت بخمسين (٥٠) كيلومتراً تقريبـاً ، فلم يزعجه ما سمع هو واخوانه ، عن قدوم العدو نحوهم بجحافله الكثيفة وهم لا يتجاوزون بضعة مئات ، لأنهم كانوا واهبين أنفسهم الفدائية للقائه بهذا العدد القليل ، ومعاهدين قائدهم البطل على أن يظـلوا مكافحين إلى جانبه إلى آخر حياتهم .

واجتاح العدو عليهم سرت يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ م فناوشوه فيها قليلاً ولعجزهم عن مقاومته ، تأخروا إلى قصر بو هـادي شرق سرت ، وظنوا انه سيتمهل فيها عنهم يومين أو ثلاث ، ولكن كما يقول غرسياني في كتابه نحو فزان (ص ٢٧١) : « وفي اليوم نفسه دون أن يضيـع (الكولونيل ميتزتي) وقتاً بارح سرت ، ووصل بعد زحف مجهد عند الغروب إلي قصر بوهادي ، وانقض على معسكر الثوار (أي المجاهدين) وكان هؤلاء مشغولين

بإعداد طعامهم ، ونزل بهم الفزع من هول المباغتة ، فهرع بعضهم إلى السلاح وسرعان ما تم قتلهم ، وأما الآخرون وبينهم ابراهيم الشتيوي ، فقد أرادوا النجاة بأنفسهم بالفرار ».

ومن الحظ الحسن لاخراج هذ التأليف ، انه عدا تلك المراجع والروايات الموثوق بصحتها ، وعدا كتاب نحو فزان ، فقد وجد أيضاً في الكتاب القيم (معجم معارك الجهاد في ليبيا) مصدر هام ، يدعم له الكثير مما اشتمل عليه هذا المؤلف ، من الحقائق التاريخية المعتبرة علمياً ، والتي لم نأخذها عن تلك الكتب والمراجع والروايات اعتباطاً ، بل بامعان النظر الطويل والتمحيص الدقيق ، لأنه لم يكن للتاريخ الطرابلسي مع الطليان ، من مصادر عربية مطبوعة ومترجمة ، ومعتبرة ووافيه سوى هذين الكتابين (نحو فزان — والمعجم) ، ولقد أخذنا منهما ومن غيرهما ما يفيدنا وتركنا ما يريبنا .

وحتى الوضع البطولي الأخير لابراهيم السويحلي أو الشتيوي بسرت نجد معجم المعارك في صفحتيه (٢٧٨ و ٢٧٩) ، يسعفنا بالتأييد التاريخي لما اسلفناه عنه ، من بقائه يناضل وحده هو واخوانه العدو في سرت ، بعد هجره عمه وبعدما غادره أحمد سيف النصر إلى الجفرة فيقول المعجم في كل ذلك ما يلي بالنص :

« وكان المجاهدون قد تحولوا إلى سرت ، حيث يتولى ابراهيم الشتيوي ، قيادة محلة تتألف من (٥٠٠) خمسمائة مسلح تقريباً ، وقد قام الايطاليون بتشكيل قوة تتألف من (٣٢٠٠) مسلح و (١٥٠) ضابطاً ، لمواجهة تلك القوة الصغيرة من المجاهدين الذين لجأوا إلى سرت عقب معركة السدادة .

وركز الايطاليون قوتهم في المرحلة الأولى من هذا الزحف ، في

بويرات الحسون ، التي جعلوا منها قاعدة رئيسية لعملياتهم الحربية ، وتمكنوا يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ من الاستيلاء على سرت بعد معركة قصيرة .

آخر أيام لقتاله وسبب مصرعه :

وتحولوا على أثرها إلى مهاجمة المجاهدين ، في (قصر أبي هادي) ، حيث جرت في الموقع معركة بين الطرفين ، وكانت الغلبة فيها للقوة العددية والعُددية ، واستولى العدو على كثير من الأسلحة ، التي كانت بيد المجاهدين ، خاصة تلك التي كانت كانت مخزونة في سرت ، وتشير المصادر الايطالية ، إلى أنه قد استشهد في هذه المعركة ما يقرب من سبعة وأربعين (٤٧) مجاهداً ، وكانت هذه آخر المعارك التي جرت في المنطقة الساحلية من إقليم طرابلس » .

ثم يتابع غرسياني كلامه الأول ، عن فرار إبراهيم من مباغتة (ميتزتي) له مساء في (قصر أبي هادي) ، فيروي بصفحة (٢٧٢) عن كيفية مصرعه قائلاً : « فقد تقهقر عن (قصر أبي هادي) يتبعه عدد ضئيل من المسلحين ، إلى حيث يوجد سيف النصر في الجفرة ، ولكنه لما كان يريد أن يعيش فيها مع سيف النصر عيشة الند للند لا كضيف ، ووقعت له بعض الأكدار ، اضطر إلى الفرار إلى فزان يتبعه أخلص رجاله » .

« ولحق به رجال سيف النصر المسلحون في مضيق (بئر قرباس) المعروف باسم (رواغة) وهو طريق إلى جبل ودان غير مأمون ، فغدروا به وخرّ صريعاً أثناء القتـــال » وكان ذلك يوم ١٩ مارس سنة ١٩٢٥ ، والمفهوم من روايات متواترة ، أن إبراهيم بعد أن ترك الجفرة ، كان يريد الذهاب لخليفة الزاوي ، المعين من قبل والده رمضان قائمقاماً على مرزق ، وكانت خزانة مصراته ، تبعث له أموالاً لمرتبات الموظفين ، وعندما جاء إبراهيم من سرت لسيف النصر بقوته الصغيرة ، ومعها أسلحتهـا وقطعتان مدفعية ورشاشية ،

خاف منه سيف النصر على نفسه ، أن يلتف حول إبراهيم المعجبون بشجاعته ، والمقدرون له على شرف أسرته وجهاد أبيه ، وأن يتحالف مع خليفة الزاوي ضده ، فينتزعوا منه النفوذ والحكم بالجفرة ومنطقة فزان ، ولذلك لما رفض إبراهيم أن يسلمه سلاحه ، ويترك له جنده الذين معه ، ويذهب بمفرده إلى خليفة بمرزق ، دبر له مكيدة اغتياله ، وقد قتل معه ما بقي له من الفدائيين الأوفياء لزعامته وقيادته ، كما قتلوا هم كثيراً من رجال أحمد سيف النصر (١) .

كلمة ختام عن شخصية البطل ابراهيم :

وهكذا انتهت الحياة المفجعة ، للفارس البطل إبراهيم رمضان السويحلي ، فقد كان رمز البطولة للشباب الطرابلسي الأبي ، وأصغر من تولى عن جدارة قيادة المجاهدين الأحرار ، في معامع الصد والقتال ، فبرهن فيها عن جدارة ، إنه شبل من ذاك الأسد ، وحري بأن يخلف عمه الشهيد في النضال العسير .

وكان عمره أقرب شبهاً بأعمار النساك والزهاد ، فلم ينعم فيه ولا يوماً واحداً بأدنى حظ من مباهج الدنيا السارة ، ولم يعرف عنه قط ارتكابه شيئاً من السلوك الذميم ، أو اتباعه نزوات النفوس الجامحة صوب مشتهياتها ، وكان محافظاً على الصلوات ، ومتجنباً لما حرم الله ،

---

(١) اتفق عندما كنت في عهد ما قبل الثورة مفتشاً اجتماعياً عاماً ، أن اجتمعت في مدينة سبها بمحمد سيف النصر ، فسألته أن الشائع على ألسنة بعض المهاجرين إلى مصر ، أن بعض السويحليين هناك حاول في الاسكندرية اغتيالك أخذاً بثأر إبراهيم بن رمضان السويحلي فأجاب هذا صحيح فقلت له ومن هو وكنت في الحقيقة أخبرت به ، فأجاب إنه الفيتوري السويحلي ، ولكن الطلق الناري أصاب جهة أذني وكان ليس خطيراً .

ولم يتزوج بتاتاً .

وكان القائد الأمثل مروءة وشجاعة ، وذا إرادة قوية ، ينفذ بلا تردد ما يراه خيراً للبلاد ، وصواباً للعمل ، وكان مع إخوانه المجاهدين حسن السيرة والمعاشرة ، ويعتبر نفسه في القيام بمسئولياته العامة نحوهم فرداً منهم ليس له عنهم أي امتياز ، في اللباس والأغذية وخيمة المبيت أو الراحة من العناء .

وأما إذا نادى النفير لحرب العدو ، فهو أسبق فرسان الطليعة للقائه ، وأول من يباغته بضرب النار ، والطعن له بحسامه البتار ، جاعلاً نفسه في هذا الأمر قدوة لغيره ، في المجابهة الراسخة للعدو الزاحف ، والفتك به فتك الجوارح بصيدها ، حفظاً للديار وسلامة للأعراض.

ولنا على صدق هذه الفتوة ، المتأججة حماساً وفداء ، ما مر بنا عنه في معارك يوم السبت وسواني المشرك وزاوية المحجوب، ثم معركة بئر الكراريم ، التي لم يخرج منها إلا وهو جريح تغمره الدماء ، حتى كادت شجاعته الجريئة فيها ، أن تلحقه بمصير البطل سعدون .

إذن وقد رأى منه أولئك المجاهدون البواسل ، ما رأوا من شيمه الكريمة وخصاله الحميدة ، في السلم والحرب ، فليس غريباً ولا عجيباً ، أن يفتتنوا بحبه والإشادة بفروسيته ، ويجلُّوا قدره وينقادوا لطاعته وأوامره ، ذلك أنهم وجدوه رائداً لما في نفوسهم من إباء الضيم للاستعمار ، فأخلصوا له الود والوفاء .

وهذا هو السر في أنه حين خيرهم بسيدي بشر ، بين أن يقتفوا أثر الظاعنين لمصر أرض الماء النمير والخير الكثير ، أو الإياب معه لسرت ، فاختاروا الرجوع معه ورفقته ما دام حياً ، مفضلين الموت شرفاء المبادىء في سبيل العزة للوطن ، عن مهانة اتصافهم بالجبن إذا ما هاجروا ، وهم لا يزالون قادرين على حمل السلاح وفي وجه العدو .

فرحم الله البطل إبراهيم المجاهد الأمثل للشباب الطرابلسي ، ورحم الله معه والده وعميه وغفر لهم ، فقد كان هؤلاء الأربعة ، للوطن أفذاذاً ، وللدين حماة ، وللعروبة مفخرة . ولله در المتنبي القائل :

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والإقدام قتـــال

– انتهى الكتاب –

ملحق خاص عن المؤلف (١)

المؤلف ونشأة والده :

ولد المؤلف حوالي سنة ١٩٠٤ م في مدينـة مصراته بقرية الشواهـدة التحتية المحاذية لمحلة الزعابة ، وتقع غرب المواطين بثلاثة كيلومترات تقريباً ، ويرجع نسب والده مسعود فشيكه إلى فرع من (قبائل شوا) المعروفة بأراضي تشاد وما حولها ، وجاء والده اصلاً إلى مصراته وهو صبي ، طلباً للعلم في الزروق وبعد فترة من الوقت لتعسر الإنفاق عليه ، التحق بأعمال فلاحية بالكراء عند أحد الوجهاء ، وأثناء هذه المدة تزوج بوالدة المؤلف مسعودة فرزق منها به ، وبشقيقة له اسمها فاطمة .

وفي ذلك الحين كانت تونس مجلبة لآلاف المصراتيين ، عمالاً فيها بمناجم فسفات الرديف والمتلوي ، فذهب أيضاً مسعود مع هؤلاء ، واشتغل هناك مثلهم باستخراج الفسفات ، ثم تحول عنه متاجراً ببعض السلع الضرورية ،

---

(١) كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب

ورجع لمصراته بحالة يسر مشكورة ، ولإسرافه بالانفاق العائلي واستضافته الكثيرة لأصدقائه ، أوشك على الافلاس التام ، ولكنه بوساطة البعض من معارفه الأعيان ، وظف مشرفاً على التلاميذ بأول مدرسة ابتدائية في مصراته أقيمت حوالي سنة ١٩٠٩ م بالمواطين وكانت بالدرادفة محل جامع حمير الآن ، وجعل مديرها الخوجة رضوان أفندي .

وكان المؤلف وقتئذ طفلا ، فأدخله والده أولاً كتاب قرية الزعابة ، ليتعلم القرآن عند الفقيه الحاج محمد بن زعبية ، ثم نقله لكتاب الفقيه الشيخ مصطفى التريكي بجامع سيدي التواتي بقبيلة الشواهدة ، وبعد ذلك أدخله معه في المدرسة التي يعمل بها تلميذاً في سنتها الأولى .

وفي أول ظهور الطريقة السعدية بمصراته ، وافتتاح زاويتها الرئيسية بمحلة الشنوبات ارتفع شأنها بمريديها من أفاضل الرجال ، وقد انتسب إليها والد المؤلف وصار من كبار إخوانها ، ومن هؤلاء الحاج سالم بن شعيب أحد أعيان وأثرياء الشواهدة ، وكان صديقاً لوالد المؤلف وجاره بيت بيت ، ومن محاسن الاتفاق أن زوجة المؤلف الحاضرة وأم أولاده ، هي حفيدة الحاج سالم المذكور ، من ابنه المرحوم الحاج علي سالم شعيب ، وفي سنة ١٩١٠ م ترك وظيفته بالمدرسة لقلة مرتبها ، ورجع لمزاولة أعماله السابقة بتونس التي كان قد جرب فوائدها ، وظل من هناك يرسل لعائلته بمصراته مستلزمات حياتها .

هجرة المؤلف وتطوراتها :

وعلى أثر الاحتلال الإيطالي لطرابلس سنة ١٩١١ هاجر المؤلف مع الترك إلى بلادهم في بعثة دراسية ، مراعاة لخدمة والده السابقة بمدرسة مصراته ، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى ، التي نشبت سنة ١٩١٤ م نقل



صورة مؤلف الكتاب الأستاذ محمد بن مسعود فشيكه
لمناسبة الكلام عن الموجز العـــام لتاريخ حياته

إلى دمشق ، وفي سنة ١٩١٨ م حين الأمير فيصل دخل دمشق بثورته العربية ضد الترك ، واستقلت سوريا به وتوج عليها ملكاً التحق بأول هذا العهد بدورة فنية للبرق والهاتف ، وكان مقرها بسوق ساروجة ، وبعد ستة أشهر أدى امتحاناته التطبيقية هو وأبناء فرقته بالدورة ، بأن أرسلوا بعثة فنية إلى شرق الأردن ، أنشأت خطوطاً للمواصلات السلكية ومراكز لها ، بين عمان وكرك الحجاز ، وذلك حين كان هذا الإقليم الكبير ، لا يزال متصرفية تابعاً لولاية دمشق ، وكان حاكم الكرك وقتئذ ، الكولونيل علي خلقي بك الجرشي .

وبعد رجوع البعثة لدمشق ، ونجاح المؤلف في امتحاناته النظرية والتطبيقية عين من موظفي المكالمات الهاتفية ، بوزارة الحربية التي كانت ببناية المشيرية في شارع النصر ، أيام وزيرها الشهيد بمعركة ميسلون القائد الأركان يوسف بك العظمة ، وكان المؤلف عمله المباشر مرتبطاً بمصطفى وصفي بك ، رئيس شعبة الأركان الأولى ، ومن هذه الشخصية العسكرية الكبيرة ، تلقح المؤلف بروحه المثالية في تأدية الواجب والتضحية له ، ورقي المؤلف فمين في البلاط الملكي لنفس عمله الفني ، ثم لما تكاثرت المهام الحربية والدفاعية ، بشعبة الأركان الأولى ، لمناسبة حوادث ميسلون ومقدماتها ، أعيد إليها هو وبعض زملائه الأكفاء الأمناء .

وفي عهد الانتداب الفرنسي على سوريا ، عين سنة ١٩٢٤ م مأموراً في دوما للخطوط والمراكز الهاتفية بقضائها ، أيام متصرفها الوجيه رفعت بك الأيوبي ، وقد شمل المؤلف رحمه الله بكل رعاية كريمة وتقدير له بين الناس ، ولما نقل رفعت بك إلى منصب كبير في ولاية حلب وبها توفي ، فقد المؤلف به سنداً رفع من قيمته في أرض غربته ، فترك بعده خدمة الحكومة ، واحترف التعليم الحر الابتدائي في دمشق ، من ذلك أنه اشتغل مدة في مدرسة الناشئة العربية ، لصاحبها الأستاذ الشيخ محمد الدلاتي ،

حين كانت بزقاق الخطاب من محلة العمارة ، وفيها تعرف على أحـــد مواطنيه الطرابلسيين ، وهو الأستاذ عبد الرزاق الباجقني ، وكان مدرساً رسمياً بمعارف دمشق ، وله هنا بعض الحصص الإضافية .

قصده مصر للدراسة :

وفي أثناء اشتغاله بالتعليم الأهلي ، شعر بضعف ثقافته ونقصان تحصيله ، فاتجـــه فكره لاستكمالها بمصر ، وفي سنة ١٩٢٦ م بما كان قد ادخره من وظائفه السابقة ، وببر السيدة أنيسة اليشرطية بعكا ، حفيدة القطب الرباني علي نور الدين اليشرطي ، صاحب الطريقة الشاذلية بفلسطين وسوريا ولبنان ، تيسر له بذلك أن يسعي للقاهرة إتماماً لتعلمه وللتقوية بالعربية ، فانتسب للأزهر برواق المغاربة ، وبالكد المستمر وبالاستعداد الذهني ، أخذ في السنة الأولى من مجيئه ، الشهادة الابتدائية النظامية للأزهر من الخـارج ، وكانت بقوة مناهجها الإسلامية والعربية والعلوم الحديثة ، أمنع من عقاب الجو على غير المجدين والمؤهلين لها .

وفي أول تعيين الإمام محمد المراغي شيخـاً للأزهر ، تقدم لثانوية الأزهر النظامي من الخارج أيضاً ، وكانت مقراراتها ومناهجها الدراسية ، في مستوى تجهيزية دار العلوم العليا التابعة لوزارة المعارف المصرية ، وأدى امتحانات الثانوية المذكورة مطمئناً بالنجاح ، ولكن فوجيء بقرار من مشيخة الأزهر ، يمنع أن تمنح الثانوية للمتقدمين من الخارج ، إلا بعد مضي أربع سنوات عن أخذ الابتدائية النظامية .

ورأى اخوانه الطلاب في الرواق المغربي نشاطه الحيوي ، فانتخبوه رئيساً للجنة التي أقاموها لإصلاح الرواق وأوقافه من جميع الوجوه ، وكان من أعضائها البارزين العالم المتفقه الشيخ فرج بن السلام الفيتوري

الحراري الزليتني[1] والشيخ عبد الحميد عاشور الطرابلسي ، وقد بلغت اللجنة عند الإمام المراغي من الحظوة والتقدير ، لدرجة أنه اعترف بها رسمياً ، وكادت تظفر منه جميع مطالبها بالنجاح الباهر ، غير انه قبل أن يحقق لها رغباتها الاصلاحية ، استقال من مشيخة الأزهر لأسباب سياسية منها ، لمحاولته أن يسير بالنهضة الأزهرية ، على مبادىء أستاذه العظيم الشيخ محمد عبده ، وبوساطة الشيخ عمر أبو زقية ، أحد الطلاب القدامى في الرواق ، تعرف وقتئذ على الكثير من الزعماء والأعيان المهاجرين بالفيوم وحمام مريوط ، ومنهم مثلاً البكوات أحمد السويحلي وأحمد المريض والتهامي قليصة والحاج بعيو بيت المال .

التحاقه بدار العلوم وأساتذته :

وبعد المراغي ترك المؤلف الأزهر ، وانتسب رسمياً إلى دار العلوم العليا الحكومية بامتحان المعادلة ، زمن ناظرها أحمد برادة بك ، وكان الفضل الأول في تيسير دخوله لها ، راجع إلى عظيمين مصريين ، أولهما صاحب الدولة محمد محمود باشا ، حين كان حوالي سنة ١٩٣٠ م رئيساً للوزارة المصرية ، وثانيهما إلى سكرتيره الخاص وقريبه وزوج كريمته وسفير مصر بأمريكا فيما بعد ، وهو الشاب الوجيه كامل بك عبد الرحيم ، إذ كان المؤلف في ذلك التاريخ قد قابله وشرح له شخصياً عصاميته وطموحه العلمي ، وظروفه الاجتماعية الخاصة ، واسترحم بواسطته من صاحب الدولة محمد محمود باشا ، أن يساعده بقبول انتسابه لدار العلوم العليا ، لثقته من نفسه أن دراساته السابقة في مستوى سنتها الأولى ، وسرعان

---

(١) وبعد الحرب العالمية الثانية ، رجع الشيخ فرج إلى وطنه زليتن ، وتولى إدارة التدريس بزاوية سيدي عبد السلام الأسمر وكان متمكناً من الفقه المالكي وقد سبق ذكره وتوفي ببلدته .

ما ظفر من كليهما بأشرف العواطف الإنسانية ، والتأييد الإيجابي لفكرته ، وبهاتم له الالتحاق بدار العلوم وهي الآن إحدى الكليات بجامعة القاهرة .

وفي سنة ١٩٣٥ م تخرج من دار العلوم العليا بتفوق نوهت عنه في حينه أمهات الجرائد المصرية ، ومنها جريدة البلاغ الوفدية ، والأهرام في عددها المؤرخ يوم ١٩ اكتوبر سنة ١٩٣٥ م مع نشرها صورته باعتبـاره أول ليبي يحرز هذه الشهادة الهامة . وكان من ألمع أساتذته فيها ، العلامة الفيلسوف الدكتور علي العناني ، والجغرافي الشهير الشيخ محمد فخر الدين ، والأستـاذ الضليع بفقه اللغة وعلم النحو ، أحمد نجاتي ، وفي الأدب العربي وتاريخه الشيخ النابه الذكر أحمد الاسكندري صاحب كتاب الوسيط في الأدب ، وفي علم التربية وأصول التدريس ، المربي الكبير الاستاذ زكي المهنـــدس ، وفي علم النفس وصلته بالتربية الأستاذ عطية الابراشي ، وفي التاريـــخ والاقتصاد الدكتور حسن خليفة صاحب كتاب تاريخ النظريات السياسية ، وكتاب علم الاقتصاد السياسي ، وفي البحوث الإسلامية وطوائفها كل من أساتذته التومي وطه عبد البر والبشبيشي ،وفي التفسير وأسباب النزول الأستاذ الشيخ عبد الفتاح خليفة .

وكان من أعضاء اللجان التي حضرت امتحانه العملي في أصول التدريس والتحضير لحصصه كل من الأساتذة الأعلام ، مصطفى أمـــين بك صاحب كتاب تاريخ التربية ومحمد جاد المولى بك صاحب كتاب محمد الإنسان الكامل وعلي الجارم بك صاحب كتب النحو الواضح والبلاغة الواضحة ، فـــإلى التثقيف المخلص من جميع هؤلاء العلماء الأفذاذ ، يعزي نجاحـــه الكبير كما سيأتي في مجالات التعليم والتأليف .

وبعد تخرجه أريد تعيينه بمدارس الحكومة المصرية ، ولكن نظراً لعدم تحصله على الجنسية المصرية ، اشتغل في التعليم الحر بمدارس القاهرة الخاضعة لاشراف الوزارة عليها واعانتها لاستيفائها الشروط التربوية والصحية ، فقام

فيها بالتدريس في مدرسة الحلمية للبنات لناظرها استاذ منصور ثم في مدرسة الخليفة بالحلميه القديمة لناظرها الأستاذ والفنان علي قنديل وكانت في عمارة الشماشرجى ، وكانت نتائج تلميذاته في الشهادة الابتدائية العامة حوالي ٩٠ ٪ ، واختاره أثناء ذلك صديقه السيد ولي الدين أسعد ، رئيس البعثة السعودية بالقاهرة ، اختاره استاذاً لفريق من طلابها الوجهاء ، في اللغة العربية والاجتماعيات المقررة للشهادة الابتدائية ، وكان من بينهم التلميذ حسن سرور الصبان . ابن الشيخ الفاضل الحاج محمد سرور الصبان ، نائب وزير مالية المملكة السعودية ، ومما يدل على مكارم أخلاق الشيخ سرور أنه لما زار ليبيا وجاء لطرابلس ، فقد طلب أن يقابل المؤلف بصفته كان مدرساً موفقاً لابنه ، فلما قيل له أنه متغيب في مصراته أسف كثيراً لعدم رؤيته .

الرجوع والحنين للوطن :

وتملك المؤلف الحنين ، إلى رؤية والديه وأفراد أسرته بوطنه ، بعدما انقطع عنهم نحو أربعة وعشرين سنة (١٩١٢ – ١٩٣٦ م) لهذا السبب اضطر أن يذهب للقنصلية بالقاهرة لاثبات جنسيته الليبية ، لكي تسمح له بالمجيء إلى طرابلس ، وبعد متاعب شاقة منها استطاع أخيراً الرجوع إلى وطنه مصراته ، فوجد والده قد توفي بتونس ، بعد أن كبرت سنه وتبددت صحته ومكاسبه ، ووجد أخويه غير الأشقاء الأكبر منه في العمر قد توفيا زمن الحروب الوطنية ولم يتزوجا ، ووجد والدته حية ، ولبقائها وحيدة وكبرها وانقطاعها لذلك ، عن خدمة الصوف نسيجا للكلمات والعباءات والجرود ، (وكانت فيها بارعة الصناعة) ، فإنها لهذه الظروف لم تكن في عيشة راضية ، ووجد شقيقته متزوجة بالغيران ، وأحوال أسرتها الفلاحية بسوانيها الخاصة حسنة .

وبعد أن نظم تأمين المعيشة الطيبة لوالدته وهم بالرجوع إلى المشرق ، تسارع الأفاضل بمدينة طرابلس ، إلى الحكومة الإيطالية طالبين الانتفاع به لتثقيف وتعليم أبناء وطنه ، فوافقت على رغبتهم بحكم كونها مشرفة على مدارس البلاد العربية ، فعينته مديرية الأوقاف بمدينة طرابلس استـــاذاً في المدرسة الإسلامية العليا .

وتعمد منافسوه فيها غير الراضين عنه حسداً احراجه ، فتواطأوا فيما بينهم وأسندوا إليه طائفة من المواد الصعبة الخارجة عن طبيعة تخصصه ، وهي علم الحياة بفروعه الثلاثة الإنسان والحيوان والنبات ، والتاريخ الإسلامي والجغرافيا العامة والمنطق الخ.. ، على أمل افتضاح فشله فيها وبالتالي التخلص منه ، فقبل التحدي السافر وقام بتدريسها حفاظاً لكرامة واعتبار الذين أثنوا عليه خيراً ، وكان نجاح طلابه بها تحريراً وشافهة آخر العام ساراً جداً .

وإذا العناية لاحظتك عيونهـا نم في المخاوف كلها آمـان

ذهابه لمصر وأسباب عودته :

وفي العطلة الصيفية من تعيينه بالمدرسة الإسلامية ، رجـــع لمصر لاحضار كتبه ولقضاء أمور تتعلق بصلته التعليمية ، فانتهز خصومه هذه المناسبة فروجوا عنه في طرابلس ومصر ، ما شاءوا من اختلاق الأكاذيب عنه والمكائد والدسائس له ، ولا غرو فـالمرء لا يخلو من صديق يمدح وعدو يقدح ، وكان من نتيجة التأثير لأراجيفهم الباطلة ضده ، أن عزل في طرابلس من المدرسة الإسلامية وهـــو لا يزال في مصر ، وظلت والدته تدعو الله في صلواتها ، أن يعيد إليها ابنها الوحيد لينزلهـــا إلى قبرها على يديه ، وبقي هو في القاهرة كحاله الأولى مشتغـــلاً بالتعليم الحر المشرفة عليه وزارة المعارف .

وفي غيبته عن طرابلس ، تأثر طلابه بالمدرسة الإسلامية بايجابيـات

تدريسه للعلوم المذكورة وبأسلوب تعليمه الفهيم ، فترجوا آباءهم أن يسعوا لدى الحكومة كي تعيد المؤلف ، أو تأتي لهم بأستاذ ليبي آخر قدير مثله في المواد التي كانوا يتلقونها عنـــه ، ويقدر الله أن مساعي أولئك الآباء المسئولين في طرابلس ، قد لقيت منهم الاستجابة والقبول لإعادته ، فبعثت إليه الأوقاف رسالة مستعجلة ، أن يقدم فوراً للقيام بوظيفته الأولى ، فعاد إليهـا حوالي سنة ١٩٣٨ م وهو موفور الكرامة .

وتلقاه طلابها بالحفاوة الزائدة والفرح الجزيل ، وإلى إشادتهم بفضله الكبير عليهم في تعليمهم وتهذيبهم ، ارتفعت بذلك منزلته وسمعتـه في البلاد ، وآب خصومه وشانئوه بمقت الناس لهم ، وعلى الرغم من الحياة القصيرة للمدرسة ،التي لم تزد عن سبع سنوات (١٩٣٤ – ١٩٤٣ م)،فإنها أنجبت الشباب الطرابلسي المثقف ، ههنا الذي قام بالنهضة الحضارية الحديثـــة أيام العهد الماضي في شتى المجالات ، ذلك أن طلاب المدرسة كانوا يؤخذون، من صفوة التلاميذ الأذكياء، الذين أتموا من قبل تحصيلهم بنجاح ، في المدارس العربية الايطالية الحكومية .

وكانت الدراسة في المدرسة الاسلامية ، جامعة بين المنهج الثانوي المصري في أهم مقرراته العلمية والاجتماعية ، ومضافاً إليها اللغة الايطالية ويعطيها أساتذة إيطاليون ، وبين منهج قوي متين ، في القواعد العربيـة والأدب ، وتحفيظ نصف القرآن غيباً والنصف الآخر تلاوة ، وفي الفقه دراسة العبادات والأحوال الشخصية والمعاملات والقضاء والميراث (في كتاب دليل المسالك إلى مذهب الإمام مالك) .

وتولى التدريس فيها مع المؤلف ، أكفأ الطرابلسيين جدارة علميـــة وتربوية ، ومنهم مثلاً الشيخ الشهير الحافظ لكتاب الله إتقاناً وتجويداً ، محمد ابن السلام المصراتي ، والخبير بعلم الهيئة (الفلك) علي أفندي الساعاتي ،

والأستاذ القدير بعلم الرياضيات (جبر وهندسة وحساب) ، مصطفى أفندي القلالي .

بعد الحرب العالمية الثانية :

وبعد الحرب العالمية الثانية زمن الإدارة البريطانية في طرابلس ، عيّن سنة ١٩٤٤ م مديراً لمدارس مصراته ، فأحدث فيها نشاطاً تعليمياً كبيراً ، توارد الاقبال عليه من جميع طبقات الشعب ولا سيما من أبناء الوجهاء الأعيان القريبين إلى المواطين ، ولم يرض نجاحه الجديد كذلك ، أرباب حرفته التعليمية في طرابلس ومصراتة ، خوفاً من أن يزداد به رفعة عنهم ، فدبروا له مكيدة سياسية وإدارية واختلاسية ، فأوقف من أجلها عن عمله ، ودفع بسبب المكيدة المزورة لمحاكمته قضائياً باستئناف طرابلس ليكون قرارها مبرم الإنجاز ، وفي هذه الأثناء توفيت والدته ، تأثراً مما جرى لابنها من أعدائه وأنزلها إلى قبرها على يده .

وبعد أربعة أشهر لثبوت بطلان التهمة وتلفيقها ، برأته المحكمة منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وردت إليه جميع اعتباراته الشخصية ومرتباته الموقوفة ، ثم عينته المعارف سنة ١٩٤٥ مديراً لأولى دورة رسمية لايجاد معلمين صالحين ، ونظراً لظرف الحرب وضع للدورة منهجاً ثقافياً عاماً في شتى المعلومات الضرورية للمدرس ، على أن تستوفى دراسته في مدة ستة أشهر ، وقد أثار الاستحسان والإعجاب من أهل الفضل ، وبه وضع المؤلف النواة الأولى لتاريخ ليبيا ، وهو الذي تولى في آخر السنة الدراسية المراقبة العامة لامتحانات الدورة وامتحانات الشهادة الابتدائية . وما بين سنة ١٩٤٦ إلى ١٩٤٨ م ، صار قائماً بأعمال المدرسة الثانوية وأستاذاً فيها للتاريخ والجغرافيا ، وحين أريد تثبيته مديراً لها لأسباب شخصية اعتذر عن قبول هذا

المنصب وفضل بقاءه أستاذاً بها .

جهوده التأليفية وقيمها :

ولما أعلنت معارف طرابلس في جريدة طرابلس الغرب يوم (٥ ديسمبر سنة ١٩٤٦) عن مسابقة تأليفية لتاريخ ليبيا ، تقدم إليها مع المشتركين فيها ، فأعطت لجنة الفحص والاختيار [١] الدرجة الأولى ، لكتابـــه المعنون باسم « تاريخ ليبيا العام ، من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر » في جزءين ، وقررت المعارف استعماله في مدارسها ، فبعد صدور الجزء الأول منه ، كان ممن تناول تقريظه البليغ ، في جريدة طرابلس يوم (٣ فبراير سنة ١٩٤٩م) كل من الزعيم بشير بك السعداوي رئيس المؤتمر الوطني الطرابلسي ، والدكتور محمد فؤاد شكري ، أستاذ التاريخ وقتئذ بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) ، والمنتدب مستشاراً قانونياً لهيئة تحرير ليبيا . ومما جاء في تقريظ بشير بك قوله بعد الديباجة : « أنه لمجهود نعتز به ونفخر ولا يسعنا إلا أن نشكر المولى سبحانه وتعالى ، الذي أتاح لهذا الوطن الكريم من أبنائـه ، من أخذ على عاتقه تدوين تاريخه ، مثل هذا الأسلوب الفذ والتنسيق البديع » . وأما تقريظ الدكتور فؤاد شكري الهام ، فقد انصب حسب نوعية اختصاصه ، على قيمة الكتاب العلمية والتربوية والفنية وبكلام فائض الإخلاص والنزاهة قال رحمه الله ما يلي نصه حرفياً :

---

(١) وكان أعضاء هذه اللجنة اثنين من ذوي الاطـــلاع الواسع بالتاريخين الليبي والإسلامي وهما الأديب والشاعر الكبير مدير الأوقاف الطرابلسية ، أحمد بك الفقيه حسن ، والأستـــاذ المتقـدم الذكر الشيخ محمد بن عبد السلام المصراتي ، وثلاثة من الملمين تماماً بالتاريخ العـــالمي قديمه وحديثه ، وهم الكمندتور جرج نهامة ، والدكتور خليل الخوري (شقيق العلامـة فارس الخوري) ، والأستاذ فيليب البستاني ، والاثنان الأخيران استحضرتها الإدارة البريطانية للقضاء .

« عزيزي المؤرخ الأستاذ محمد مسعود حفظه الله ، تحية مباركة وبعد : فقد تلقيت بيد الممنونية والشكر مؤلفكم القيم (تاريخ ليبيا العام) ، وقد قرأته بكل عناية وشغف زائد ، وذلك لما ضمه هذا الكتاب بين دفتيه ، من معلومات تاريخية نفيسة ناهيك عن سهولة العبارة ، وجزالة اللفظ ، وإحكام الترتيب ، حتى أن القارىء يجد نفسه مدفوعاً دفعاً إلى استيعابه والتمتع بقراءته .

ولعل أبرز نواحي هذا المؤلف القيم ، تلك العناية الواضحة التي بذلتموها في تقريب الحقائق التاريخية إلى أذهان الناشئة ، وربط هـذه الحقائق بتنسيق بديع ، واهتمامكم بعمل الملخصات الدقيقة عنها عند نهاية كل فصل من فصوله الشيقة ، كما تظهر مهارة المربي الكامل والاستاذ القدير ، في تلك التمارين التي ذيلتم بها الكلام للتثبيت .

وأرجو الله تعالى أن ينفع بعلمكم وأدبكم وفضلكم أبناء هذا الوطن الكريم ، ودمتم في حفظ الله وسلامته . المخلص محمد فؤاد » .

وتأليفه الآخر القيم ، هو كتاب (كأنك معي في طرابلس وتونس) ، ومناسبة إخراجه أنه بعطلة نصف السنة الدراسية ، كان بأوائل مارس سنة ١٩٤٩م ، قد ذهب هو ولفيف من أساتذة وطلاب الثانوية ، إلى تونس في رحلة استطلاعية وتعرفوا على مماهدها وتجولوا في معالمها ، من القيروان جنوباً إلى عين دراهم شمالاً ، فلما عاد من الرحلة أنتج الكتاب المذكور ، عما شاهده هناك من أوضاع البلدين المتماثلة إلى حد كبير ، في جميع معالمها الأثرية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية ، بأسلوب سهل التعبير ، قريب المأخـذ ، ومعزز بالصور الموضحة ، وتكلم فيه بصفة خاصة ، عن مدينة طرابلس ، بما يعتبر أوليات لخططها العمرانية وحياتها البشرية ، الأمر الذي لم يسبقه إليه أحـد من قبل في نوع هذه الأبحاث المبتكرة ..

وظائفه وانتداباته سابقاً :

وفي مدة ثلاث عشرة سنة (١٩٥٢ – ١٩٦٥ م) أيام الحكم الملكي، صار المؤلف الشخصية اللامعة في وزارة المعارف الليبية، فقد عيّن مفتشاً عاماً للمواد الاجتماعية، وفي أثناء ذلك ألف سلسلة من الكتب المنهجية في التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية، وفقاً لمقررات المرحلتين الابتدائية والإعدادية، حازت على تقديرات زملائه المدرسين وإقبال التلاميذ والطلاب على اقتنائها، لتركيز معلوماتها في صميم مناهجهم، مع تنسيقها التربوي الفهم ومعانيها الواضحة، وفي هذا العهد لا تكاد أعداد جريدتي طرابلس الغرب والرائد المحتجبتين، تخلو من كتاباته فيها بشتى الأبحاث الثقافية والاجتماعية، بقلمه السهل الممتنع وتحقيقاته الممتعة .

ثم جعل مديراً عاماً للتعليم الحر في ليبيا، وكانت تتبعه مدارس ثماني جاليات أوروبية أكبرها الايطالية، وتضم في جملتها قرابة اثني عشر (١٢) ألف تلميذ وتلميذة، فأخضعها جميعاً بصلابة عوده، لتنفيذ القانون الخاص بالتعليم الحر، ومن أهم شروطه، تدريسها اللغة العربية وتاريخ وجغرافية البلاد وأكبر مجهود له في هذا العمل، أنه لخص لها تاريخ وجغرافية، وترجم للغتين الانجليزية والايطالية، ولنجاحه في هذا المنصب أضيفت إليه أيضاً المديرية العامة لمحو الأمية .

وفي المؤتمر الدولي لمحو الأمية، الذي عقدته منظمة اليونسكو بفندق سان استيفنو بالإسكندرية سنة ١٩٦٥، انتدبته معارف ليبيا أيام وزيرها السيد منير البعباع، رئيساً لوفدها في هذا المؤتمر، وأعجب أعضاؤه به لفكرته القائلة، إنه خير وسيلة للقضاء السريع على محو الأمية، هي التعبئة العامة لمحاربتها، بأن تساهم في ذلك جميع الأجهزة الحكومية في الدول المنتشرة بها الأمية، وشرح لهم

فكرته بإيجاز في هذا الخصوص وفي أثناء تلك المدة رقي إلى درجة وكيل مساعد بالوزارة وفي ١٢ مارس سنة ١٩٦٥ م مثل ليبيا في اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية بالقاهرة وبفضل موقفه أبطل تقرير الإلغاء لامتحان الدين في الشهادة الابتدائية . وفي أول مايو سنة ١٩٦٥م على الرغم من أنه كان محالاً على التقاعد بناء على طلبه ، فقد انتدب أيضاً بهذا التاريخ بصفة استثنائية ليمثل ليبيا في الموسم الثالث للكتاب العربي الذي انعقد بالرباط في المملكة المغربية ، وكان لما نشره عن وطنه هناك في جريدة العلم وللمحاضرة التي ألقاها بجامعة الرباط الصيت الحميد عن ليبيا ونهضتها الحديثة المباركة في شتى الميادين الحضارية والحيوية .

بعهد الثورة وحاضره :

ولما قامت الثورة الليبية المجيدة بالفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩ م كتب فيها أيضاً سلسلة من مؤلفاته المدرسية ، في التربية والتاريخ والجغرافيا ، وفقاً للمناهج التعليمية التي أعدت لتلائم الوضع الوطني الجديد وقد راجت لميزاتها في محيط المدارس الابتدائية والإعدادية رواجاً كبيراً واستمر تداولها المدرسي نحو سنتين بنفس الإقبال الرائج ، إلى أن عدلت المناهج بصفة عامة بما يتفق مع المبادىء الوحدوية للثورة فألغي تداولها لهذا السبب .

غير أن كتابه المسمى « أصول التربية الوطنية ، للسنة الثالثة الإعدادية » ، كان أهم مؤلفاته التربوية في هذا العهد قيمة علمية وتاريخية ، ومن أجل هذا استبقت الوزارة العمل به رسمياً لفترة سنة أخرى ، ذلك أنه انفرد بتفصيله لمنهج الثالثة الإعدادية في ثلاثة أمور هامة ، أولها إشارته إلى علاقة الجمهورية العربية الليبية الوثيقة بافريقيا والبلدان العربية سياسياً

واقتصادياً وثقافياً ، وثانيها ارتباطها الدولي بالهيئات الأممية والمؤتمرات العالمية على اختلاف أغراضها ، وثالثها إشارته إلى الأثر العالمي البليغ ، لقيام الليبية الثورة بالفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩ م وعلاقاتها وارتباطاتها القوية بالأمرين السابقين الأول والثاني .

ومما جاء فيه بصفحة (١٧) بهذا الخصوص قوله : « وبلا أدنى ريب واختلاف فإن قيام الثورة الليبية الظافرة ، كان من أهم أهدافها الرئيسية ، أن تكون نجدة كبرى لجيوش الأمة العربيـــة ، المناضلة للصهاينة والاستعمار على خطوط المواجهة ، وبادرة غوث وخير وتدعيم ، للفدائيين الفلسطينيين البواسل ، ومن أدلة هذه المواقف الثورية العظيمة (أ) عقدها صفقات ضخمة مع الدول الأوروبية الصديقة لشراء الأسلحة استعداداً لقومية المعركة (ب) استمرارها على الدعم المالي الوافر وغيره للفدائيين الفلسطينيين .

ووضع المؤلف الاجتماعي عند الصدور لهذا الكتاب فإن له أسرة متكونة من ثمانية أشخاص وهم : زوجته المثالية المتقدم ذكرها السيدة فاطمة وأم جميع أبنائه وبناته ، وهؤلاء ولدان أكبرهما يسمى نور الدين طالب في السنة الثالثة الإعدادية ، والآخر عادل تلميذ في السنة السادسة الابتدائية، وأربع بنات وهن أنيسة وعائشة طالبتان في كلية التربية بالجامعة الطرابلسية ، وخديجة طالبة في السنة التوجيهية ، وصغراهن اسمها فائزة تلميذة في السنة الثانية الابتدائية .

ومع هذا العدد للأسرة فإنه يفضل حياته المنزلية الرضية ، وعمله بموارده المحدودة من تقاعده وملكيته لبعض العقارات المكتسبة من بيع كتبه ، وعملاً بقاعدة لا تقتير ولا تبذير ، لذلك لم يكن لهذه الأسباب

مأزوماً في شيء من الناحية الاقتصادية ، وعلى الرغم من كونه يحمل شهادتي محاماة لدى المحاكم المدنية والشرعية ، فإيثـاراً منه لراحة بدنه وضميره لم يشتغل للقيام بهما في مجالات التقاضي ، وهذه الخلاصة العامة لحياة المؤلف رويت عنه بإيجاز وصدق خدمة للحقيقة والتاريخ ونسأله تعالى حسن الختام .

استدراك شكر وتقدير

لمناسبة صدور الكتاب ، فإني أستدرك الاعتراف بالجميل فأعلن شكري الجزيل وتقديري الوافر ، لكل من مراقبة دار المحفوظات الأثرية والتاريخية لما أسعفتني به ، من المراجع والوثائق والمستندات الهامة المتصلة بموضوعات الكتاب .

ثم أقدم نفس الثناء والامتنان ، لجميع المواطنين الأعزاء ممن لم أنوه عنهم في المقدمة ، وهم أولئك الذين اتصلت بهم شخصياً في مناسبات وأوقات مختلفة ، وسألتهم عما يعرفون بالسمع أو المشاهدة ، من حياة رمضان وأيامه ، وما له صلة بذلك ، وكان رائدهم مما أفضوا إلي به ، الصدق والإخلاص والنزاهة .

وتوثيقاً لما نقلت عنهم بهذا الخصوص ، ذكرتهم في هوامش الصفحات بأسمائهم وأوصافهم ونسبتهم لبلدانهم ، و مما لا شك فيه انهم بذلك يكونون قد قاموا مع المؤلف بمساهمات فعالة ، في إحياء التراث النضالي المجيد ، للآباء والأجداد ، ذوداً عن حمى الوطن والأعراض ، وإشعاراً لأجيالهم لما بذلوا من التضحيات الجسام في سبيل الله ولخيرهم وإسعادهم .

المؤلف

فهرست الكتاب [1]

(١) اقتصرنا في الفهرست على بيان الفصول الرئيسية في الكتاب ، دون الشرح لموضوعات كل فصل منه رغبة في عدم التطويل والإسهاب للفهرست .

فهرست الصور[1]

(١) جعلنا الصور التاريخية كلاً منها في ورقة تامة مستقلة تيسيراً لمن يرغب الاحتفاظ بإحداها منزلياً ضمن إطار للذكرى .

نلتمس المعذرة عن حصول الأخطاء الطفيفة الآتية وهى فى نحو (١٦) ست عشرة كلمة ، والتى لا يخفى مفهومها على الأديب القارىء من فحوى الكلام ، ولكنا آثرنا ضبطها للدقة ، والذى أدى اليها الاسراع باخراج الكتاب فى عشرين يوماً فالرجاء تصويبها فى الكتاب قبل قراءته

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦	١٤	بهذا الغلو	بهذا الخلو	٧	١٤	يعيا عهده	يعيان عهده
٢٤	١١	أبوبكربودبوس	عمر بودبوس	٣٥	٢	من زوجة	من زوجه
٣٥	٩	أجدهما	أحدهما	٦٤	٦	بأرض الاصابة	بأرض الأصابعة
٨١	١٩	محلة ميانى	حملة ميانى	٨٤	٣	عمرسيف النصر	أحمدسيف النصر
٨٩	٥	وم الخليج	يوم الخليج	١٣٦	٢	أبوبكربودبوس	عمر بودبوس
١٣٦	١٢	عبد العال	عبد العالى	١٣٦	١١	بليبلوا	بليبلو
١٥٨	بالهامش	سالم الزبيدى	سالم الزبيك	٢٤١	١٣	الفريق	الطريق
٣١٧	١٢	بيرات الحسون	بويرات الحسون	٣١٨	٦	مصدر هام	مصدراً هاماً
٧٣	التصويب هو : (RAMADAN SCTEUI)						